فلاسفة ملائكيون

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

ممدوح، محمد
فلاسفة ملائكيون/ د. محمد ممدوح. - القاهرة: نيو بوك للنشر والتوزيع/ ط ١/
القاهرة: ٢٠١٨م.
٢٦٧ص؛ ١٤×٢١سم
تدمك: ٧-٧٨-٦٥١٩-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٢٢٦٨
١- الفلاسفة
أ- العنوان
٩٢١

دار النشر:	نيو بوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب:	فلاسفة ملائكيون
الكاتب:	د. محمد ممدوح
رقم الطبعة:	الأولى
تاريخ الطبع:	٢٠١٨

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًّا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيو بوك
٦ عمارات الدفاع الوطنى - حدائق القبة - القاهرة
ت: ٠١٠٩٢٦٧٣٢٧٤
newbooknb@gmail.com

فلاسفة ملائكيون

د. محمد ممدوح

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع
2018

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾

[المجادلة: 6 - 7]

الإهداء

إلى كل مـن خلـع عبـاءة البشريـة والجاهليـة ونزوات النفس البشرية وسـار بقلبه وجسـده وفـؤاده نحو الإنسـانية ومنهـا إلى الملائكية... أولئـك هم الأبـرار... هم الصديقون... سـلام عليهـم حتى تشـبع الأرواح من الأرواح فى ظل بارئ الإنسانية ومبدع الملائكية سبحانه...

الـمؤلّف

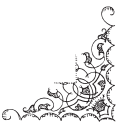

رسالة

لا أريد من السادة والساسة أن يلتفوا حولى...فالتفاف الضعفاء أشرف..
لا أطلب منهم عونًا ولا غنيمة...فالفقر ثمنًا لمحبة الإنسانية أعظم..
لا أريد من موائد السلطان ومرتادوها شبعًا..فالتسبيح ببطنٍ خاويةٍ أشرف...
لا أطلب من السدنة وشيوخ المنافقين أمنًا....فإهدار دمى فى ساحة الفكر أثمن..
لا أطلب من الأرستقراطيين أن يسكبوا الدمع عند موتى..فدمع المساكين أطهر..
لا أريد من زبانية السلطان أن يحملونى إلى قبرى...فحمل المعوزين والبؤساء أشرف..
لا أطلب من متعصبى الأديان إمهال حياتى..فالموت فى سبيل التسامح أعظم..
لا أتوسل إلى الجهاديين (بزعمهم) أن يرفعوا أيديهم عن السلاح..فترقب الله لهم بجحيمٍ مستعرٍ أعدل..
لا أشتاق إلى السلام والتسامح فى الدنيا...فالراحة فى الآخرة أفضل..
لا أتمنى الحياة وسط مغتصبيها...فالموت فى سبيل المبادئ أرحم...
لا أريد أن يسمع صوتى القادة والسادة...فسماع الكون له أعظم...
كل أمنيتى أن تبارك الملائكة صنيعى...فلا شك أن مباركتهم أشرف..
أن يحمل الضعفاء نعشى...فحملهم لى شهادة على طُهر المنبع..
أن يسكب الإنسانيون لا المرائون دمعًا... فدمعهم من المعين الأطهر...

المؤلف

الفهرس

الموضوعات	صفحة
الإهداء	7
على سبيل التقديم	13
الفصل الأول: إخناتون	23
الفصل الثانى: سقراط	39
الفصل الثالث: أبكتيتوس	71
الفصل الرابع: ماركوس أوريليوس	85
الفصل الخامس: الفارابى	101
الفصل السادس: لوك	119
الفصل السابع: فولتير	147
الفصل الثامن: روسو	187
الفصل التاسع: كانط	211
الفصل العاشر: حنا أرندت	239
خاتمة	257
المصادر والمراجع	263

على سبيل التقديم...

تهفو نفوس الملائكيين دومًا إلى القيم الفطرية النبيلة... العدل... المساواة... الحرية... الإخاء... الوحدة بين البشر... السلام... الأمن... الأمان.

كلها مفاهيم خرجت من فطرة إنسانية نقية، أيدتها مشاعر نبيلة وقلوب رقيقة ونفوس سامية... لتخرج تلك النداءات فى وقت الأزمات... وقت إنهيار الإنسانية فى قلوب ونفوس البشر... وقت إنتشار المبادئ وضياع القيم، لتطل علينا من جديد... مبددةً اليأس... ومستشرفة نوافذ جديدة من اليقين... وباعثة الأمل فى نفوس أصفياء القلوب.

تهفو النفس كل حين إلى عالم متسامح... كريم الأخلاق... ذا مروءة... ذا قيم ومبادئ... عالم لديه اليقين فى حق الحياة... فى حق الوجود... فى حق إسعاد البشر بقدر الإستطاعة... فى حق وأمان الناس... ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ [قريش: 4]....

عالم يتقن الغايات ويهضم المقاصد ويقف على حقائق الوجود... عالم خالى من الشك فى الوجود... الشك فى المعرفة... ذاك الشك الذى تغنى به زينوفان من قبل... «أما بالنسبة للحقيقة اليقينية، فلا أحد يعرفها... ولن يعرفها أحد... لا عن الآلهة... ولا عن كل ما أتحدث عنه من أشياء... وحتى

لو حدث بالصدفة أن نطق بالحقيقة الكاملة... فلن يعرفها هو نفسه... فكل شيء ليس إلا نسيجًا محبوكًا من التخمينات»... نظرية هادمة للمعرفة... ناقضة لليقين.

إنها بمثابة معول هدم للحياة... للوجود... نافذة هدم وتدمير للكون... فناء محدق بالمخلوقات... شك لا يقين بعده... وهدم لا بناء فيه.

تجاوز تلك المرحلة الشكية هو أول طريق نحو صياغة عالم متسامح ذو قيم... عالم آمن لا حرب فيه ولا نزاع... لا طائفية فيه ولا نرجسية... لا إستبدادية فيه ولا تسلطية... لا طغيان فيه ولا فاشية...

عالم يكون على قدر ما أراده له بارئه سبحانه... يطرح على ملائكته رأيًا... سأجعل فى الأرض خليفة!!... الملائكة تتعجب... عهدنا بالأرض وسكانها السابقين سفك الدماء و إنتهاك الحرمات... فكيف تجعل فيها من يسفك الدماء... ثم نحن نسبح ونقدس و نمجد، فأنت سبحانك غنى عن إيجاد خليفة... نحن نقوم بالدور كله... بالعمل كله... بما تريده سبحانك كله... ولكن الإجابة تخرج بالقطع ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]..

لابد إذن من التسليم لأمره سبحانه... فلا راد لأمره... ولا معقب لحكمه... ليخلق الخليفة ممثلاً فى أبى البشر آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ... يخطئ فى الجنة... يهبط إلى الأرض... يزرع ويحصد و يشقى... ينجب أربعة من الأبناء... تقاتل إثنان منهم... أحدهما لم يستطع أن يتجاوز بشريته... يبسط يديه ليقتل أخاه... يستسلم أخوه لقضاء الله... لم يعقب... لم يبسط يدًا بالسوء... بل بسط يد السلام... يد التسامح... يد العفو... يد الإحسان... و يسجل القرآن الموقف بحروف من نور... يسجلها شاهدًا عليها... مسرورًا بها... سعيدًا بأول ثمار

الإنسانية... مبتهجًا بتجاوز أحد البشر مرحلة البشرية وسموه إلى درجة الملائكية... يا له من إعجاز... و يا له من موطن فخار ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّۘ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: 27 - 28]..

هنا ينظر الرحمن الرحيم إلى ملائكته... أعلمتم لماذا جعلت الإنسان خليفة؟ لمثل هذا الموقف، ولمثل هذا الرجل... لأجل أن أجعل منهم إنسانيون وملائكيون ومحسنون ومتسامحون... لأجل أن يتفوق بعض منهم بصفاء قلبه وطهارة نفسه عليكم وأنتم لم تعصونى مرة... لأجل مقام الإحسان خلقت الإنسان... لأجل سمو نفس الإنسان خلقت الأرض... ومن ثمّ خلقت الكون...

ذاك هو المعنى العظيم الذى أراده بارئ السماوات والأرض... خلق لأجله الكون... سيَّر لأجله الشمس والقمر كل فى فلك يسبحون... سخر له الأنهار والرياح وعلمَّه من كل شىء لعلهم يتسامحون... لعلهم يتراحمون... لعلهم يترافقون... تلكم هى صميم التعاليم السماوية... وجوهر إرادة الله سبحانه... وجوهر الأديان كافة... جاءت لتلك القيم... ولتلك المعانى.

ولكن البشرية ضلت الطريق على جميع مستوياته وأصعدته... فأهدروا القيم الإنسانية من مساواة وحرية وعدل... وبالمقابل تنافسوا على إهلاك الحرث والنسل عبر حروب لا تُبقى ولا تذر... وقوَّضوا كل فرصة ممكنة للسلام أو لأمان البشر، فصار العالم لا عالم... لا ينطبق عليه وصف حيوانى، فالحيوانات لا تتصارع ولا تتقاتل... ولا ينطبق عليه وصف "الغاب" لأن

الغابات لها سيد يحكم بين الأعضاء بالعدل والمساواة... صحيح أنه مستبد، لكنه عادل... لكنه يبسط السلام على ربوع غابته... ولكنى لا أجد مسمى صحيح يمكن إطلاقه على عالم الإنسان المتصارع... المتقاتل... السائر فى طريق الإنهيار...

وابتُكرت ديموقراطيات، و إبتكرت قيم، ولا زال العالم يسير فى ذات الإتجاه... طريق اللاعودة... لتصبح المساواة والعدل من المطالب التى تغدو مجرد مجالاً لدراسة الباحثين فى العلوم الإنسانية، بل و يغيرون إسمها فيطلقون عليها اسم «اليوتوبيا» وكأنهم يضعون العقل الإنسانى فى مواجهة مباشرة أمام الضمير... وكأنهم يريدون أن يثبتوا للإنسانية أنها أصحبت بلا قيم... بلا مبادئ... بلا غايات الوجود الأولى التى لأجلها خلق الله الخلق... بلا مقومات للتعايش، بل بلا مبررات للوجود ذاته... ولكنها من وجه آخر تثبت عدم إنقطاع مدد السماء عن الأرض... عدم تخلى السماء عن الأرض بالكلية، فلا زال يقطن الأرض ملائكيون... لا زال يقطنها إنسانيون يحلمون بلحظات العدالة والمساواة.. ويترنمون لحظات الأمن.. ويتمنون عبير السلام.. وينقبون عن التسامح والتراحم... يسوقهم الأمل... ويدفعم اليقين.

ومر العالم عبر تاريخه بديموقراطيات زائفة... وضعت تلك القيم النبيلة مجرد عناوين براقة، دون أن تنفذ تلك العناوين إلى أدنى حدَّ من التنفيذ... يقول برجسون: «من هنا نفهم أن الإنسانية لم تصل إلى الديموقراطية إلا فى زمن متأخر، فالديمقوقراطيات التى عرضتها المدن القديمة كانت ديموقراطيات زائفة، فقد كانت قائمة على الرق، فكان هذا الجور الأساسى يجعلها فى حلٍ من أضخم المشكلات وأعوصها... إن الديموقراطية هى أبعد

المفاهيم السياسية من الطبيعة... وهى وحدها تسمو فى المقصد على الأقل، على شروط «المجتمع المغلق»، إنها تنسب للإنسان حقوقًا لا يجوز إغتصابها، ولكن تبقى هذه الحقوق مصونة، توجب على الجميع أن يخلصوا لواجبهم إخلاصًا لا يحول، فموضوعها إذن إنسان مثالى يحترم الآخرين كما يحترم نفسه، ويخضع لواجبات بعدها مطلقة، ويلتزم هذا الأمر المطلق حتى ما ندرى ألواجب يمنح الحق، أم الحق يفرض الواجب، ومثل هذا المواطن يكون «مشرعًا ومشرَّعًا له» على حدَّ قول كانط، والسيادة إذن لمجموع المواطنين، أعنى الشعب، وتلك هى الديموقراطية النظرية، إنها تنادى بالحرية وتدعو إلى المساواة وتوفق بين هاتين الأختين إذ تذكرهما بأنهما أختان فتضع الأخوة فوق كل شىء»[1]..

لكن لم تتجاوز تلك المثل مرحلة اليوتوبيا، مرحلة المثل العليا... الديموقراطية الحرة مطلب بسيط فى ذاته وأولى، وقد تكرر التعبير عنه بطريقة أو بأخرى خلال عصور التاريخ المختلفة، هذا المطلب القديم الذى تنادى به البشرية من أجيال سحيقة هو مطلب المساواة، والحق أن المساواة تستهوى كل النفوس، فهى بهذا عالمية النشأة، ونداؤها ينفذ مباشرة إلى أسماعنا ويستقر فى أفهامنا ويحرك قلوبنا، إنها تفعل فى نفوسنا ما يفعله قائد الأوركسترا الموسيقية الذى يُخضع بيد كل الأوتار وبيد أخرى يحرك كل الأنغام ويمزج بينها... إن الرغبة فى المساواة رغبة أصيلة[2]..

(1) هنرى برجسون، منبعا الأخلاق والدين، تعريب سامى الدروبى، عبد الله الدائم، مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة 2011م

(2) إد موند كان، الإنسان والديموقراطية، ترجمة مصطفى حبيب، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، د.ت، ص145.

والمساواة نوعان، إيجابية وسلبية... فالمساواة السلبية تعنى الوصول إلى حدّ الكفاف كما فى الشريعة الإسلامية... كفاية المواطن من صحة وتعليم وسكن... إغناؤه عن العوز أو الفقر والإملاق... أما المساواة الإيجابية فتعنى إتاحة الفرص أمام الجميع فى ميزان عدل يضمن تكافؤ الفرص، بحيث يأخذ كل مؤهل لشيء ما يتناسب ومؤهلاته، بدون أى مجال للمحسوبية أو الواسطة أو الفساد... إنها تعنى تقييم القدرات الحقيقية للمواطنين بغض النظر عن مكانتهم الإجتماعية أو مستواهم المادى أو لون بشرتهم أو جنسهم... إنه بمثابة أداء الأمانات... أن يوسَّد الأمر لأهله... وهذا وذاك مما ينشدهما عالم اليوم دون أن يجد إليهما سبيلاً.

دعونا نكن منصفين... أين تقع تلك المساواة لرجلٍ لا يجد خبز يومه... ولا كساءً يقيه، ولا سقفًا يأويه... ولا فرصة متاحة لكسب عيشه؟ إن كل إنسان يجب أن يأكل أولاً قبل أن يستطيع مناقشة الشئون العامة مناقشة منطقية، يجب أن تتاح له فرصة للعمل تحت ظروف محترمة توفر له أجرًا للعمل يستطيع أن يعيش منه قبل أن يستيطع أن يُدلى بصوته فى ذكاءٍ ووعى، يجب أن يُتاح له القليل من الراحة والفراغ والأمن النفسى قبل أن يستطيع أن يمارس عمله بكفاية فى مجتمع حر، هذه هى العوامل التى تتضمنها المساواة السلبية، والتى نعنى بها نوع من المعاملة السياسية والقانونية التى تحفظ لكل إنسانٍ الحد الأدنى من المعيشة كعضو فى المجتمع، بحيث تصونه من أن يصبح متسولاً أومجرمًا أو منبوذاً، وتوفر له سندًا إجتماعيًا يحميه من الحرمان والخسائر والمخاوف.

وعلى الصعيد الموازى للمساواة والعدالة، هناك مطلب لا يقل عن ذلك

أهميـة بل يفوقه... إنه أمن الناس وأمانهم... فإذا كانت المسـاواة تمثل أسـمى ما فى النفس الإنسـانية من عطاء، فالأمن والسـلام يمثل أعظم ما فى النفس من تسـامح وتراحم ورفق... إنها معانى متوازيـة... متضامنة... مترابطة... تضع النفس الإنسـانية فى مأزق أمام مبادئها وقيمها... أمام ضميرها وعقلها... أمام مشـاعرها ووجدانها... يقول بوبر...: «والسـلام مثال آخر، وهو أمر نبتغيه اليوم أكثر من أى وقتٍ مضى، إننا نرغب، بل ولابد حقًا أن نفعل كل ما بوسعنا لتجنب الصراعات، أو عـلى الأقل للحدَّ منها، لكن مجتمعًا دون صراعات هو مجتمع لا إنسانى، لن يكون هذا مجتمعًا بشريًا، إنما هو مستعمرة نمل، لا وليس لنا أن ننسى حقيقة أن كبار رجال السلام كانوا أيضًا مقاتلين، حتى المهاتما غاندى كان مقاتـلاً، مقاتلاً من أجل اللاعنف. يحتاج المجتمع البشرى إلى السـلام... لكنه يحتـاج أيضًا إلى صراعات فكرية جادة، قيم وأفكار يمكن أن نقاتل من أجلهـا، تعلّم مجتمعنا الغربى من الإغريق أن للكلمات فى هذه الصراعات أثرًا أطول بقاءً من أثر السيف، أما الأعمق أثرًا فهو الجدل العقلى... المجتمع المثالى إذن مستحيل، لكن بعض النظم الإجتماعية أفضل من بعض»[1]..

هـذا أحـد أمثلة الحالمـين الذين يسـمون الواقعيـة مثاليـة... والمطالب الإنسانية العادلة مطالب يوتوبية... فقط يتوق إلى السلام من زاوية البشرية لا من زاوية الإنسانية، لا يريد أن يتخلى البشر عن بشريتهم... فقط يطالبهم بضبط النفس، كمثل ذلك الذى يمسـك بالسلاح ويفتك بالضحايا ثم يطالبه آخـرون بضبط النفس!! أى ضبط للنفس!! أى إنهيار للقيم وضياع للمبادئ

(1) كارل بوبر، بحثًا عن عالم أفضل، ترجمة د. أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 2011م، ص152.

ذاك!! وماذا يفعل الضحية إذن إذا لم يفعل المجتمع البشرى أكثر من مطالبة الجلاد بضبط النفس... لا يا سيدى!! هذه مطالب معوجة... معكوسة... قيم مقلوبة... إنها لا قيم، لا مبادئ، أو بالأحرى لا إنسانية...

لكن يبقى الأمل أن العالم كله قد إكتوى بنيران الحروب والصراعات والتقاتل... ذاق شدة البأس وعانى الويل والثبور... لم يعد أمامنا إلا منهج العقل... والعقل دومًا يؤثر السلام... يتقارب فكريًا ووجدانيًا... يحل مشكلاته بالحوار لا بالسلاح... بالعقل لا بالتهور، تحقيقًا لمصالحه المشتركة، وحفاظًا على وجوده المهدد بالفناء... يقول بيرنز... «إن فكرة عالم جديد من الدول والأمم تنطبع فى مخيلة بعض الناس ممن يشعرون شعورًا حقيقيًا لا إصطناع فيه بما يترتب على الحرب من ضياع وبلاء... إنه عالم تتضافر فيه جهود الدول على تحقيق ما بين سكانها جميعًا من مصالح مشتركة، فالجريمة والمرض مثلاً هما عقبتان فى طريق الحياة الحرة الكاملة للمواطنين فى كل دولة... كما أن مواطنى كل الدول يهمهم على السواء أن يتسع نطاق المواصلات والنقل بحيث يعُم العالم أجمع، ولهذا يجب على كل الدول أن تعمل معًا للوصول إلى هذه الغايات، ثم إن هذا العالم الجديد يجب أن ينظم بحيث تقوم فيه هيئة سياسية أو قضائية بمحاولة تنسيق ما كان بين الدول من مصالح مختلفة أو متعارضة، والمفهوم ضمنًا من عصبة الأمم كمثل أعلى أن الحرب يجب ألا يكون لها مكان فى العالم، ولو أن العصبة لم تخلط سياسة أو يضع برنامجًا نتوقع منه القضاء على إحتمالات الحرب فى المستقبل القريب، ولهذا لم تحز فكرة العصبة كمثل أعلى قبولاً لدى كل إنسان»[1]..

(1) دليل بيرنز، المثل السياسية، ترجمة لويس إسكندر، مؤسسة كل العرب، القاهرة، سنة 1964م، ص340.

والحرب كذلك مضيعة للأرواح والتفكير، وكلما إبتكرت وسائل حرب حديثة إزدادت نسبة الوفيات بين المحاربين وغير المحاربين فى أية دولة تدخل المعركة، وتقلص نسبة المواليد أيضًا، ويمكن النظر إلى تلك الخسارة من ناحيتين، الأولى الخسارة الناتجة عن موت العنصر البشرى وإهدار فرص التنمية التى كان بإمكانه تحقيقها لو جُنب مخاطر الحروب... والثانية ما كان للمواليد التى نقصت من مستقبل يمكن أن يغير تاريخ ومصائر الأمم.

هذه الأفكار وغيرها من القيم الإنسانوية ذات الأصل النبيل للفطرة الإنسانية مما تشغل بالى منذ زمن بعيد... ومما أرسخ له إهتمامى وحياتى... ومما نذرت له حياتى ومماتى... البحث عن تلك القيم... محاولة بعثها من رقدتها... تسليط الضوء على فلاسفة المبادئ الإنسانية... بل وغير الفلاسفة... كلهم أهديهم تحيات معطرات... تحية إلى نوبل فى قبره... تحية معطرة إلى نيلسون مانديلا... إلى كوامى أبياه... إلى كل إنسانيى العالم أحياءًا وأمواتًا... إلى الملائكيين بثياب بشرية، وهيئات بشرية... لأجلهم أعيش... ولأجلهم أموت... ولأجلهم كانت الفكرة الرئيسية من «فلاسفة ملائكيون»...

الفصل الأول

إخناتون...

يعترف العالم كله بأن الشرق هو مهد الدين ومنبع الأخلاق، فمن الشرق خرج دعاة السلام والوحدة بين البشر، ومن الشرق نبعت القطرات الأولى من سماء القيم، وفوق أرض الشرق عاش المصلحون والصديقون الذين حلموا بعالم خالٍ من الحرب، خالٍ من الإرهاب، خالٍ من قتل النفس التى حرمها الله.. وحرَّمها العقل، وحرَّمتها الفطرة، وحرَّمها كل دين... هكذا يتحدث الغرب عن الشرق بعزةٍ وفخار، يسطرون فى كتبهم تاريخ الشرق لأحفادهم، يقصون عليهم من نبأ الأرض المباركة التى كانت مهبطاً للنبوات ومبعثاً للرسالات وأمنًا وأمانًا للوافدين من شتى الجنسيات، إنها الأرض التى بارك الله حولها وجعلها أرضًا مقدسة تهفو إليها أفئدة العالمين، ويكفى أنها أرض خاتم النبيين، أرض بيت الله الحرام الذى تهفو إليه النفوس وتتشوق إليه القلوب وتحن إليه الأفئدة.

لقد سجل الغرب كل ما للشرق من مآثر ومفاخر، قديمًا وحديثًا.. تغنى المفكرون والفلاسفة بما للشرق من تاريخ مجيد، وماضٍ تليد... زيجريد هونكه... هنرى برستيد... روجيه جارودى... آرنست رينان.. أسماء لامعة

فى سماء الفكر الإنسانى من بنى الغرب، أدلوا بشهاداتهم بكل موضوعية عن الشرق، ويكأنهم يُذّكرون الشرقيين بتاريخ قد نسوه، وبماضٍ قد أهالوا عليه التراب، وبمجدٍ قد سطّره الآباء والأجداد، ويكأنهم يتحسّرون عما آل إليه مصير الشرق من تخلف مادى وحضارى وقيمى وأخلاقى.. ويكأنهم ينفخون فى العظام النخرة كى تقوم من رقدتها، كى تحمل مشاعل السلام والأمن والرحمات لتضئ للعالمين الطريق من جديد، لتقود العالم نحو القيم الغائبة أخيرًا كما قادوه أولاً، ولتسطر مجدًا شرقيًا جديدًا ينحو بالعالم نحو قيم السلام والمحبة والتعاون والإخاء.

وكم يمتلئ تاريخ الشرق برجالٍ عظام سطروا تلك القيم بأحرفٍ من نور، وقع إختيارى منهم على إخناتون، وهو أحد الملوك العظام فى الأسرة الثامنة عشر التى بدأت حكمها مؤسسةً للدولة الحديثة التى يؤرخ لبدايتها بعام 1575 ق.م، واستمرت حتى عام 945 ق.م[1].

وكان إخناتون سليلاً لأسرة أحمس الأول مؤسس الدولة الحديثة، تلك الأسرة التى حكمت مصر أكثر من قرنين ونصف من الزمان، حكم خلالها ملوك عظام حققوا العديد من الإنتصارات مثل الملك تحتمس الذى حقق إنتصارات عسكرية عظيمة فى مجد وقادش، وأحكم سيطرته على الشرق الأدنى وأورث الإستقرار لمن خلفه[2]

(1) د. مصطفى النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط1، سنة 2012م، ص89.

(2) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج2، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، سنة 1982م، ص216، وما بعدها.

وكان من نتيجة هذا الإستقرار أن عاشت مصر أزهى عصورها فى عهد أمنحوتب الثالث والد إخناتون، ولكنها ركنت إلى الإسترخاء والإستمتاع بما أحدثه السابقون، حيث هادنت مصر ملوك الشرق وأمراؤه، وركن ملكها إلى الدعة ومقارفة الشهوات والإكثار من الزيجات ومصاهرة الملوك والشعوب لتزداد بينه وبينهم عرى المودة والصداقة[1]، ولكنهم استغلوا حلمه أسوأ إستغلال فتمزقت إمبراطوريته الواسعة وضعفت سيطرته على البلاد وأورث هذا العبء إلى وريثه أمنحوتب الرابع، الذى لقُب فيما بعد بـ (إخناتون).

وجاء أمنحوتب الرابع إلى الحكم ليرث تركة ثقيلة يحيط الفساد بها من كل جانب، ويتفشى العبث فى جنبات الدولة المترامية الأطراف، فساد فى العامة، وفساد فى الخاصة، حيث تداعى الإمبراطورية الكبرى إلى حروب متتالية من ناحية، وحيث فساد الكهنة وإشراكهم مع الله آلهة أخرى وتصدرهم للمشهد الدينى بفسادٍ وعبثية من ناحية أخرى، حيث آمنوا بألوهية آمون دون أن يُنزهوه عن التشبيه والتمثيل، لم ينكروا تعدد الآلهة إلى جانبه، مما جعل أمنحوتب الرابع يقود ثورة لإجراء تعديلات جذرية، يكون فيها الإله واحدًا أحدًا لا شريك له، فدعا إلى عبادة آمون وتنزيهه وتوحيده مع تغيير اسمه إلى « آتون» ليزيل الصورة الشرعية التى ترسخت مع الإسم القديم «آمون» فى أذهان العامة، لتبدأ الثورة الإنسانية من بوابة الدين، وهو ما يمكننا صياغته عبر النقاط التالية:

(1) نفسه، ص224.

أولاً: رياح التغييير

فى غضـون تلك الأحداث الدرامية، الـصراع بين القديم والوافد، الشرك والتوحيد، يُفاجئ الكهنة بصوت الملك أمنحوتب الرابع يخرج منددًا بعقيدة الشرك التى يبثونها، مناديًا بالتوحيد الخالص.. فوجئوا به يتغنى للإله الواحد الأحد.. ينشد الشعر فى أحديته وصمديته.. إنه صاحب القدرة اللامتناهية، خالق كل شىء، و إليه أمر كل شىء..

«أنت تشرق بجمالك يا آتون الحق يارب الأبدية..

إنك ساطع وقوى وجميل ..

وحبك عظيم وكبير..

أشعتك تمد بالبصر كل واحد من مخلوقاتك..

ولونك الملتهب يجلب الحياة إلى قلوب البشر..

عندما تملأ بحبك الأرضين..

أيها الإله الذى سوى نفسه بنفسه..

خالق كل أرض..

وبارئ كل من عليها..

حتى الناس وكل قطعان الماشية والغزلان..

وكل الأشجار التى تنمو فوق التربة..

فإنها تحيا عندما تشرق عليهم..

وأنت الأب والأم لكل ما خلقته..

وعندما تشرق فإن عيونهم ترى بواسطتك»[1]..

إنها عبارات جديدة تمامًا، على النقيض تمامًا مما شب عليه القوم، ومما يبثه الكهنة من تعاليم فى نفوس الناس، مما أدى إلى تزايد الصراع بين الصفوة المجددون والمنقون للعقيدة مما يلحق بها من شوائب من ناحية، وكهنة الإله آمون من ناحية أخرى، وهو ما دفع الملك أمنحوتب الرابع إلى الإنتصار لعقيدة التوحيد والإنحياز التام لها، فأعلن الثورة على آمون وكهنة المعبد، ولم يكن ضد الدين ذاته، أو آمون ذاته، و إنما كان فى ذهنه هدف سامى وجدير بالإحترام، إنه تنقية العقيدة وتخليص الدين من أيدى الكهنة[2] ومن ثمَّ قام بإجراءات عدة، جاء على رأسها تغيير اسمه من أمنحوتب (أى آمون راضى) إلى إخناتون (أى المفيد لآتون) كما شرع فى بناء معبد ضخم للرب آتون فى الكرنك، ثم أنشد له مبتهلاً إليه ومعلنًا توحيده وتفرد الإله بالملك، ثم إتخذ إجراءً ثوريًا آخر، بأن عزل كهنة آمون عن العمل وأعلن أن آمون إله زائف وأن عبادته إلحاد، وأن الدين الرسمى للدولة هو التوحيد للإله آتون[3].

من هذا التوحيد خرجت معالم الإنسانية لدى إخناتون متجهةً فى

(1) هنرى برستيد، فجر الضمير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 2001م، ص309.

(2) أرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، د.ت، ص132.

(3) توملين، فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، دار المعارف، القاهرة، سنة 1980م، ص73.

مسارين، الأول أن الله هو الخالق المبدع لهذا الكون وهو واحد أحد لا شريك له، وهذا هو إتجاه عقدى بحت، والثانى قائم على الأول حيث أنه طالما كان الإله واحدًا للكون كله فلابد وأن يتحد العالم كله بحكم إتجاههم بالعبادة لإله واحد، ومن ثمَّ فوحدة الكون تقوم على وحدة الإله ووحدة الطبيعة، يقول برستيد: «إن إخناتون كان رسولاً لكل من عالمىَّ الطبيعة والحياة الإنسانية، فكان مثله فى ذلك كمثل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين استقى دروسه من وحى الطبيعة فى ثمار الحقل وطيور الهواء وسحب السماء من جهة، ومن المجتمع الإنسانى الذى يحيط به من جهة أخرى[1].

ثانيًا: مناشدات إلهية

من صميم وجوهر دعوة التوحيد التى قادها إخناتون خرجت أشعاره وأناشيده مخاطبة الله سبحانه، فتارة يصف جماله وعنايته بالبشر..

«أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء ..

أنت يا «آتون» الحى الذى كنت فى أزلية الحياة ..

فحينما كنت تطلع فى الأفق الشرقى..

كنت تملأ كل البلاد بجمالك ..

أنت جميل وعظيم ومتلألئ ومشرق فوق كل أرض ..

وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك ..

أنت رع..

(1) برستيد، المرجع السابق، ص319.

وأنت تخترق حتى نهايتها القصوى (يعنى الأرضين)..

وأنت توثقهم (يعنى البشر) لإبنك المحبوب..

ورغم أنك قصيٌّ جدًا فإن أشعتك فوق الأرض.. ورغم أنك تجاه البشر فإن خطواتك خفية عنهم»[1].

وتارة يصف كيف يستمد الجميع وجودهم من وجوده سبحانه، وقدرتهم من قدرته، وقوتهم من قوته..

«وجميع الماشية ترتع فى مراعيها..

والأشجار والنباتات تينع..

والطيور فى مستنقعاتها ترفرف..

وأجنحتها منتشرة تعبُدًا لك ..

وجميع الغزلان ترقص على أقدامها..

وجميع المخلوقات التى تطير أو تحط تحيا عندما تضئ عليها»[2]..

ثم نراه يُنزه الله فى صفاته، وينسب إليه الحكمة فى تدبير شئون خلقه فيقول..

«إنك صانعُ مصور لأعضائك بنفسك..

ومصور دون أن تُصور..

(1) نفسه، ص301.

(2) نفسه، ص303.

منقطع القرين فى صفاته مخترق الأبدية..

مرشد الملايين إلى السبل ..

وعندما تقلع فى عرض السماء يشاهدك كل البشر..

رغم أنك فى ذهابك خفيٌ عن أنظارهم..

إنك تجتاز سياحة مقدارها فراسخ، بل مئات الآلاف وملايين المرات..

وكل يوم تحتك (تحت سلطانك)..

وحينما يأتى وقت غروبك، فإن ساعات الليل تُصغى إليك أيضًا ..

وعندما تجتازها فإن ذلك لا يكون نهاية كدك ..

وكل الناس تنظر بواسطتك..

أنت خالق الكل ومانحهم قوتهم، أنت أم نافعة للآلهة والبشر،

وأنت صانع مجرب ..

وراع شجاع يسوق ماشيته..

وأنت ملجؤها ومانحها قوتها..»[1]..

ثم يصف طلاقة القدرة الإلهية بقوله:

«أنت خالق الجرثومة فى المرأة ..

والذى يذرأ من البذرة أناسيا..

(1) نفسه، ص295.

وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه..

ومهدئًا إياه حتى لا يبكى..

مرضعًا إياه فى الرحم..

وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسانٍ خلقته..

وحينما ينزل من الرحم فى يوم ولادته..

فأنت تفتح فمه كلية..

وتمنحه ضروريات الحياة»[1]..

وتستمر مناشدات إخناتون ودعائه وتضرعه إلى ربه وبارئه، يُفرده بالعبادة والتوحيد، ويُنزهه عمن سواه، وينسب له فعل كل شيء، وحياة كل شيء، ليقيم على هذا الأساس دعوته إلى وحدة بنى البشر جميعاً، فنزاه يقول مناشدًا ربه:

«ما أكثر تعدد أعمالك ..

إنها على الناس خافية..

يا أيها الإله الأحد..

الذى لا يوجد بجانبه إله آخر ..

لقد خلقت الأرض حسب رغبتك..

وحينما كنت وحيدًا (لا شيء غيرك)..

(1) نفسه، ص303 وما بعدها.

مما يمشى على رجليه ..

وما فى عليين مما يطير بأجنحته..

وفى الأقطار العالمية.. سوريا.. وكوش.. وأرض مصر..

فإنك تضع كل إنسانٍ فى موضعه..

وتمدهم بحاجاتهم..

وكل إنسانٍ لديه قوته ..

وأيامه معدودات ..

والألسنة فى الكلام مختلفة ..

وكذلك تختلف أشكالهم وجلودهم، لأنك تخلق الأجانب مختلفين»[1]..

من تلك المناشـدات وغيرها يمكننا فهم النزعة الإنسـانية لدى إخناتون، والتى تتضح أكثر عبر المنطلقات التى اتخذها دعائم للوحدة بين البشر..

ثالثًا: دعائم الوحدة البشرية

يسـتقر فى يقينى أن دعـوة إخناتون الدينية خرجت مـن جوهر عقيدته الإنسـانية، فأخذ من تطهـير العقيدة مدخـلاً لتطهير النفـوس، ومن وحدة الإلـه مدخلاً لوحدة العالم، ومن صفات الإله الممثلة فى التسـامح والسـلام والعطاء مدخلاً لصفات إنسـانوية ينبغى الترسيخ لها فى أفهام البشر، لتكون المدينة الأرضية أشـبه بالمدينة السماوية، أو لتحاكى الأرض السماء فى طُهرها

(1) نفسه، ص304 وما بعدها.

وبرائتها ونقائها وسلامة فطرتها، ومن ثمَّ ولدت تلك المعانى الإنسانية لدى إخناتون من رحم المعنى الدينى السامى الذى نادى به، وهو توحيد الإله، ويؤيدنى فى ذلك دعائم ثلاث، يمكن صياغتها كالتالى:

أن إخناتون ذاته كان ضد الحروب وضد المؤامرات التى تُحاك سياسيًا بين القادة والزعماء، وما أكثر الأدلة فى التاريخ القديم على جنوحه للسلم وإيثاره للمحبة والمودة بين الجميع.

تأسيسه للمدينة الفاضلة، ولعلها الأولى فى التاريخ، حيث اشترط لها التعاون والسلام بين مواطنيها، فهى مدينة يحكمها العدل ويسيطر عليها السلام وتشيع فى جنباتها المحبة والقيم النبيلة والفطرة السليمة، ويأتى على رأس الحكم فيها ذوى العقول النيرَّة والأفهام النبيلة، يقول د. النشار: «ولنلاحظ أهم عناصر هذه الصورة المثالية لمدينة إخناتون الفاضلة، إنه الملك نفسه، فقد أخذ على عاتقه أن يكون رأس الدولة ملكاً فيلسوفًا عادلاً بحق، فكان يحاول دائمًا أن يغزو عقول رعاياه بالحجة والمنطق لا بالقوة والجبروت، وأن يغزو قلوبهم بالمحبة والود، وظل على هذا الحال بين رعاياه ومحبيه داخل مدينته طوال ثلاثة عشر عامًا كاملة، ظل يحكم بالعدل ولا يقول إلا الصدق، ولا يدعو إلا إلى السلام، وتلك كانت الدعائم الثلاثة لبناء صرح تلك الدولة العالمية التى كان يطمح إليها، لقد وصل إخناتون بهذا التصور إلى إدراك لأسمى صورة يطمح إليها البشر، دولة عالمية واحدة، الإعتقاد فى إلهٍ واحدٍ وقانون عالمى واحد»[1]..

إستناد إخناتون فى دعواته كلها، سواء منها الدينية أو السياسية إلى العقل،

(1) د. مصطفى النشار، المرجع السابق، ص104.

يقول برستيد: «وليس أدل على ميل إخناتون إلى الإعتماد على العقل أكثر من أنـه محا بلا تردد طائفة الأسـاطير والتقاليد التى كانت محترمة، والتى كانت تقـول بأن النيل هـو الإله «أوزير» عدة أزمان، ثم نسـب الفيضان فى الحال إلى قوى طبعية يسـيطر عليها ذلك الإله الذى يعبده، وهو الذى خلق للبلاد الأخرى نيلاً آخر فى السـماء»[1].. وهو ما يعنى أن دعوة إخناتون السياسـية ذات النزعة الإنسـانية إنما قامت على أسس عقلية و إن بدت دينية أكثر منها فكرية..

عـلى هذه الدعائم الثـلاث خرجت دعوة إخناتون السياسـية ذات نزعة إنسـانية من ثياب دينية، حيث أبرز فى مناشداته وأشـعاره وحدة الإله التى وحدت العالم، ووحـدة العالم الذى اتجه بالعبادة إلى إله واحد، وما أكثر ما ترك من أشعار فى هذا الإطار..

«أنت تخلق النيل فى العالم السفلى،

وأنت تأتى به كما تشاء..

ليحفظ أهل مصر أحياء ..

لأنك خلقتهم لنفسك..

وأنت سيدهم جميعًا..

وأنت الذى تُنهك نفسك من أجلهم..

وأنت شمس النهار عظيم الإفتخار..

(1) هنرى برستيد، فجر الضمير، ص314.

وجميع الأقطار العالية القاصية..

أنت تخلق حياتها أيضًا..

لقد وضعت نيلاً فى السماء،

وحينما ينزل لهم يصنع أمواجًا فوق الجبال..

مثل البحر الأخضر العظيم..

فيروى حقولهم فى مدنهم ..

ما أكرم مقاصدك يا رب الأبدية»[1] ..

إنه يتحدث من فوق أرض مصر، يُرجع أمر مصر بنيلها وشعبها إلى الله، ولكنه يجعل من الله سيدًا للعالمين.. إلهًا للكونين.. هو الذى يزرع، وهو الذى يُنبت الزرع، وهو الذى يُنشئ الحياة، ثم هو سبحانه الذى تتجه إليه ألسنة الخلق جميعًا بالدعاء..

«الأرض زاهية حينما تشرق فى الأفق وعندما تضئ بالنهار مثل "آتون" فإنك تقصى الظلمة إلى بعيد..

وحينما ترسل أشعتك ..

تصير الأرضان (مصر) فى عيد ..

والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم عند إيقاظك لهم ..

وبعد غسلهم لأجسامهم يلبسون ثيابهم..

(1) نفسه، ص305 وما بعدها.

ثم يرفعون أذرعتهم تعبُدًا لطلعتك..

ثم بعد ذلك يقومون إلى أعمالهم فى كل العالم»[1]..

تلـك كانت دعـوة إخناتون إلى الوحدة والمسـاواة وتوجـه الخلق جميعًا بالعبـادة لإلهٍ واحد.. إنها الدعوة الأولى مـن نوعها فى تاريخ الجنس البشرى التى عرفها بنو البشر، فاسـتحق صاحبها الخلود فى قلوب الإنسـانيين، ولكن مثل تلك الدعوات الإنسانية عادةً ما تجد المعارضات الشديدة فى عصرها وفى غير عصرها، فقد لاقت دعوة إخناتون المعارضات الشديدة كشأن أى دعوة إصلاحية عبر التاريخ، كما أن مصيره هو نفسه قد أصبح فى مهب الريح، إذ لاقى ذات المصير الذى لاقاه أوديب بعده بمئات السنين، بل وهو ذات المصير الـذى يلاقيه المصلحون عـبر التاريخ، ومن ثمَّ خربت المدينة التى أسسـها بعرقـه وفكره وكيانه.. والتى كانت رمزًا للسـلام والقيم الإنسـانية النبيلة، وتحولت إلى شبح مدينة وحطام منازل هجرها الأحياء، بل والأموات، ورغم ذلك فسـيظل إخناتون رمزًا للسـلام والوحدة بين بنى البـشر وتوحيد الإله، بـل هو أول رمز فى التاريخ، يقول د. النشـار: «وفى إطـار كل ذلك فلتفخر مصر و إلى الأبد بأن إخناتون هو أشـهر ملوكها، فقـد حقق المجد الفكرى الـذى لا يدانيه مجد، ولا يعلـو عليه إنجاز مما تحقق على يـد غيره من الملوك الفراعنة»[2]..

إن أولى الدعوات الإنسـانية ذات النزعة الملائكيـة فى التاريخ خرجت من الشرق لتصفع الغرب على وجهه وتنبهه إلى معالم الإنسـانية وتضاريسها

(1) نفسه، ص302 وما بعدها.

(2) د. مصطفى النشار، المرجع السابق، ص111.

النبيلة، وكانت مصر حاضرةً فى قلب المشهد الحضارى القديم، فمنها خرجت الفلسـفة الإنسانية المتناسقة، التى تتخذ من وحدة الإله دافعًا لوحدة البشر، وكان الإنسـان الـذى اختاره القدر لتلـك المهمة النبيلة هـو إخناتون، ليظل محفـورًا فى الأذهـان إلى حيث لا حيـث، و إلى منتهى المنتهـى، كأول داعية سـلام ووحدة بين البشر على كوكبٍ أرضٍ تسلطت عليه الحروب وسيطرت عليه الأنانية.

الفصل الثانى

سقراط...

«يبقى العقل فى إكتماله ووعيه مابقى لديه الجوهر»

(وحى سقراط)

ثمـة كتابات عدة عبر التاريخ تناولت سـقراط هدفًا لهـا... ما بين مدحٍ و إعجاب واشمئزاز (من بعض الجوانب فى بعض الحالات)... قبول ورفض... نعم... لقد احتل سقراط مكانة واسعة فى الكتابات عبر التاريخ رغم أنه لم يكتب شيء... وقد سـبق وأفردت له كتابًا يحمل اسمه[1]، لكن حب الفطرة للسـلام والحق والعدل تدفع الإنسـان دومًا لتناول سقراط، فسقراط أشهى من أى مشروب وألذ من كل طعام... فى كل قراءة جديدة لسقراط نكتشف الجديد... يبدو للدارس و يكأنه لم يدرسـه من قبل... و يكأنه لا يعرف عنه شيئًا.

هكـذا يبدو سـقراط على الـدوام... لا يفتؤ يتصيـد المعجبين على مدار

(1) د. محمد ممدوح، سقراط...إغتيال العقل..المكتبة العصرية للطباعة والنشر، المنصورة، 2015م.

التاريخ، لأنه لم يكن تقليديًا أبدًا... لم يكن نمطيًا بقدر ما كان مجددًا ومبدعًا... إنه من أوائل الذين امتطوا العصا الإنسانية، وقف ليتحدث عن الإنسان... حياته... مماته... ماذا بعد الممات؟... فضائله... أخلاقه... النظم التى تحكمه... إنه بتعبير د. عبد الغفار مكاوى: «صحيح أنه ظل يبحث عن معنى الحياة والإنسان، ولكنه لم يبحث عنه خارج الموقف الإنسانى... وفكرَّ فى الأسئلة الخالدة: من أين و إلى أين وماذا نفعل؟، ولكنه ظل ملتزمًا باللحظة التى عاش فيها والناس الذين شاركهم حياتهم وهمومهم وطعامهم وشرابهم... ظل الإنسان عنده هو أول حرف فى الفلسفة وآخرها... واستطاع أن يجعلها تسكن فى قلب الواقع والتاريخ... ويجعلها فى نفس الوقت تغادر مسكنها وترتفع فوقه لتسأل عن الحقيقة الكلية، والمعنى الثابت الأخير... لهذا يبقى سقراط سؤالاً حيًا لا يبس... رمزًا متجددًا للنفس والمقاومة... تعبيرًا خالدًا عن روح التفلسف»[1]..

لأجل هذا البعد الإنسانى لدى سقراط كان خلوده عبر التاريخ، فما أكثر المتأثرين به... وما أكثر السقراطيين أكثر من سقراط ذاته!! وما أكثر العاشقين عبر الزمان... أراسم، ذالكم الكاهن المسيحى... يتوجه بدمعه إلى السماء... يناشد سقراط فى تقلب وجهه... «يا سقراط الأقدس... صل من أجلنا»[2]..

هذه العبارة وحدها تنبئ عن مدى تأثير سقراط فى الأجيال اللاحقة عليه... لقد صنعوا سقراطًا غير سقراط... كل ذى خيال ينسج حوله خياله،

(1) د. عبد الغفار مكاوى، لم الفلسفة، منشأة المعارف للطباعة والنشر، الإسكندرية، ط 3، 1996م، ص51 وما بعدها.

(2) كارل باسبرز، فلاسفة إنسانيون، ترجمة د. عادل العوا، منشورات عويدات، باريس، ط 3، سنة 1988م، ص44.

إنه بتعبير ياسبرز: «إن واقع سقراط، سواء حين عُرف أو حين أنكر تمامًا، قد غدا بنوعٍ ما المحل الذى أضفت العصور وأضفى البشر عليه مشاغلهم الخاصة... المسيحى المتواضع الذى يخشى الله... إنسان العقل الواثق بنفسه... عبقرية الشخصية التى يلهمها شيطانه... النذير الإنسانى... بل عند الإقتضاء السياسى الذى يخفى ورائه قناع الفيلسوف خططه فى الإستيلاء على الحكم... وسقراط لم يكن شيئًا من ذلك كله أبدًا»[1].

هو إذن لغز محير لم تستطع الأجيال عبر تعاقبها وامتدادها حله... ربما تكمن صعوبة هذا اللغز فى كونه كان إنسانيًا إلى حدٍ كبير... خلع البشرية وجازها إلى حيث الإنسانية... تلكم التى تفوق حال تحققها فى البشرية مرحلة الملائكية... ربما يكون هذا هو السبب فى لغز سقراط المحير عبر الأجيال... إذ من كونه إنسانًا... من كونه ملائكيًا... بهر الأجيال، إذ كان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق... وما كان عهدهم بالملائكة كذلك... وإذ كان سقراط يتحدث إليهم... يلمسهم ويلمسونه... يؤاكلهم ويؤاكلونه... ولم يكونوا مصدقين أن رسالته، أرضية أو سماوية - أيًا كانت - ستُضفى عليه هذا التواضع، وستقذف فى قلوبهم هذا القدر من الحب...

□□□

من هو سقراط؟ سؤال لا يمكن تجاوزه... وعادةً ما تأتى إجابته تقليدية إلى حدٍ كبير... فسقراط ولد عام 470 ق.م لأسرة متوسطة الحال فى مدينة عريقة اسمها آثينا... الأب اسمه «سوفرونسيكوس» ويعمل نحَّاتًا، والأم اسمها «فانياريت» وتعمل قابلة.

(1) المرجع السابق، ص45 وما بعدها.

ولضيق ذات اليد أخرجه والده من المدرسة دون أن يُتم تعليمه، وهو فى حوالى الثالثة عشر من عمره، ولكن الصبى لم يضق ذرعًا، فلم يتهم والده بالتقصير، ولم ينهال على والدته سبًّا... بل قال... «إن ما تعلمته من المعلمين يكفينى ولن أنساه... أما ما سأتعلمه من الحياة ورجال المدينة فهو ما سيجعلنى رجلاً صالحًا حقًا»... لذا تراه يصرح فى فايدروس بالقول «رجال المدينة هم الذين يعلموننى... أما الريف والأشجار فلا تُعلمنى شيئًا»[1].

ولأن سقراط رجل غريب الأطوار، لا يتقيد بفكر ولا بنمط معين، بل لم يكن يتقيد سوى بالحقيقة... بالجوهر... بالمضمون... فلم يستحى أن يعلن على الملأ أنه سعيد فى حياته إذ حظى بثلاث ميزات... الأولى أنه ولد إنسانًا وليس حيوانًا... الثانية أو ولد رجلاً وليس امرأة... الثالثة أنه ولد يونانيًا وليس بربريًا...

وبذات القدر من الحظ السعيد لسقراط فى حياته... كان فى زواجه أيضًا، إذ تزوج من امرأة تُدعى أكزانثيب... وكانت - فيما يقال - تعامله معاملة سيئة يقابلها هو بالإحسان والصبر... بالعفو والصفح... كان دومًا يلتمس لها العذر و يفترض حسن الطوية وصفاء السريرة فيقول: «إن إكزانثيب مثل السماء عندما ترعد سرعان ما تبكى»[2]..

أضف إلى تلك النفس السامية، المتسامحة... المهذبة... شكلاً غريب على

(1) أفلاطون، محاورة فايدروس، ترجمة د. أميرة حلمى مطر، دار الثقافة، القاهرة، بدون تاريخ، ص21.

(2) انظر كتابنا، سقراط اغتيال العقل، المكتبة العصرية، المنصور، سنة 2015م، ص21.

قدر غرابة أطوار تلك الشخصية... فسقراط كان ذو شكلٍ غير مرغوب فيه... غير محبب إلى النفوس... زاده إمعانًا فى السوء أنه لم يكن يهتم بمظهره قط... بل كان أشعث الرأس حافى القدمين... بالى الثياب... وربما يرسم هذا المشهد جزءًا من شخصيته البراجماتية البحتة، تلك الشخصية التى لم تهتم يومًا بأعراض الأمور وسفاسفها... لقد قال عنه القبيادس فى المأدبة «أنه كان يشبه المخلوقات الخرافية»[1] إمعانًا ومبالغة فى وصف الشكل الدميم لسقراط، وهو ما أيده ديورانت بالقول: «إذا جاز لنا أن نحكم من مشاهدة التمثال النصفى الذى وصل إلينا من أنقاض التماثيل القديمة، فقد كان سقراط بعيدًا عن الوسامة، برأسٍ أصلع... ووجهٍ كبير مستدير... وعينين عميقتين، وأنف كبير عريض زاهر، لقد كان رأسه فى الحقيقة أقرب إلى رأس عتَّال منها إلى رأس أعظم الفلاسفة»[2].

هذا فى الشكل... أما فى المضمون فشخصية مربكة لجميع العقول، مع أنه كان إنسانويًا إلى حدٍ كبير، إلا أن معظم المؤرخين يؤكدون غرابة تلك الشخصية، يقول وورنر: «وبرغم الصعوبة البالغة فى الوصول عن بيانات أفلاطون وأكزينوفون إلى من هو سقراط فى الواقع إلا أنه يتضح لنا أننا أمام شخصية مختلفة تمام الإختلاف عن أية شخصية ظهرت قبله، فهو غير عادى من خلال كونه عاديًا... وذائع الصيت من خلال كونه أثينيًا... ومتدين من خلال منهج الشك... وحكيم من خلال تظاهره بالجهل... ومع ذلك لا تجد

(1) نقلًا عن فرديرلك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ج1، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة سنة 2002م، اليونان والرومان، ص154.

(2) ول ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة د. فتح الله المشعشع، منشورات مكتبة المعارف، ط4، بيروت، سنة 1979م، ص10.

فى شـخصيته وسلوكه وآرائه أية متناقضات، هو فى مجموعه كل متجانس... شـخصيته دائمًا مؤثـرة، بل إن المرء ليشـعر لو أن فنانًا عظيـمًا مثل أفلاطون أراد أن يشوهها لما أمكنه ذلك... كانت شخصيته قد فرضت نفسها على من خلفوه كما لم تفرضه شخصية أى فيلسوف غيره»[1].

ويزيـد وورنر رأيه وضوحًا: «وعندما نحـاول أن نُقيِّم أهميته فى تاريخ الفلسفة الإغريقية نجدنا مدفوعين باستمرار إلى ملاحظة أن أهميته الحقيقية تتمثـل فى شـخصيته هو نفسـه... هى التى شـكلَّت مثل تلك الشـخصيات المختلفة أمثال أفلاطون وأكزينوفون»[2].

شـخصية كهـذه هى التى تحـرك كل شىء مـن حولها... فعـادةً ما يحرك أصحـاب المبـادئ كل شىء... يـدور كل شىء فى فلكهـم، لأنهـم أصحاب مبادئ... ومن المبادئ الإنسـانية كان سـقراط... من القيم الإنسانية انبعث سـقراط، فكانت تلك القيـم هى محور حياته... بل هـى الفلك الذى دارت عليه وفاته... لقد امتلأ بحب الإنسـان... بحـب الخير... عاش لأجل نصرة القضايا الإنسانية... التى لن نحصرها عنده فى العبودية والحرية... لقد فاقت ذلـك بكثير... إنها قصة تحقيق أقصى خير ممكن للإنسـان... البحث عنه فى كل شىء... ووراء كل شىء... لقـد كان عـلى قناعة تامة بالمبدأ القائل: «إن الحياة الصحيحة ليست الحياة لأجل الموت، بل الحياة لأجل الخير»[3].

(1) ريكس وورنر، فلاسفة إغريق، ترجمة عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص1985م، ص62.

(2) نفسه، ص62.

(3) فلاسفة إنسانيون، ص34

الحياة لأجل الوجود الإنسانى... الترسيخ للقيم... تأكيد الفضائل الأخلاقية ومنها تثبيت أقدام الفضائل المعرفية... مواجهة الذات بعيوبها... الأخذ بيديها نحو الخير والحق والعدل... لأجل أن تنال حظها من الإنسانوية...

❐❐❐

القول الفصل عند سقراط بعد قراءة متأنية يقودنا إلى اليقين الجازم بأن شخصية مثل شخصيته حتمًا ستواجه الموت فى أى عصر وفى أى وقت، إنها شخصية يتفق العالم على عدائها... لا فرق بين جيل وجيل... لا فرق بين زمن وزمن... لا فرق بين محكمة أثينية وأخرى عربية... أو قضاة جهلاء يتجاوزون الخمسائة وقضاة تخرجوا من الجامعات وارتدوا البذلات، وسارت أمامهم المواكب واحتُبست فى حضرتهم الأنفاس... كلهم واحد... والنتيجة أيضًا واحدة، وإن شئتم فابحثوا عن الإنسانية والمصلحين ومصائرهم عبر التاريخ... إنه ذات المصير السقراطى... وكأن حكمة الله جرت أن الملائكة فى السماء فقط وليست على الأرض... وأن من يتجاوز البشرية إلى الإنسانية فمصيره الموت... بأى صورة... وبأية طريقة وما تاريخ المفكرين والمصلحين منا ببعيد...

ما تهفو إليه النفس فى فلسفة سقراط... وما يميز سقراط عما سواه، ليست النزعة الإنسانية بالمفهوم المسطحى للعقل البشرى، ولكنها نزعة أكثر عمقًا وأشد جاذبية، حيث إرساء المبادئ والقيم ومحاربة التلاعب بالألفاظ والسفسطة، والبحث الدائم عن الأصول لا الفروع... الجوهر لا العرض... ثم فى الأخير، القناعة التامة بأن الحياة جُعلت للخير... الموت ليس شرًا... بل الموت ثمنًا للحياة الصالحة... تلك باختصار شديد هى رؤية سقراط التى أعدها إنسانية من طرازٍ فريد...

بدأ سـقراط فى مواجهة السوفسـطائيين... سـمعوا صوتـه صارخًا... لا تتلاعبوا بالألفاظ... لا تمارسوا السفسطة... لا تثبتوا الشىء ونقيضه فى وقتٍ واحـد... لا تعلموا الناس سـطحيات المهارات الكلاميـة دون فهمٍ أو دون وعيٍ أو دون تعليم حقيقى... لا تجعلوا التعليم تجارة وليس رسالة...

ويمتعض السوفسـطائيون أمام هذه اللاءات... ما بـال هذا الرجل يقف عقبـة كؤود فى وجه ثرائنا الفاحش عبر اللاقيـم... عبر اللامبادئ... مثلهم كمثـل الذى يبيع السراب... يتاجر فى الوهم... لا يقدمون شـيئًا ذا قيمة ثم يحصلون على أعلى مقابل وأرفع قيمة...

وفى الوقت الذى يشـن فيه سـقراط حملته على السوفسـطائيين كان هو أيضًا يشـن حملـة على الديموقراطيـين الذين يتربعون على كـرسى الحكم... فرفـض إعدام قـادة الأرجينوسـاى الذين تركـوا الأسـطول الأثينى يتعرض للهزيمـة التى قذفوا على إثرها جثث القتـلى فى البحر ولم يواروهم الثرى... كـما رفـض القبـض على أحـد الرعايـا الذيـن لا ناقة لهـم ولا جمـل فى تلك الأحداث واسمه «ليون السُلمى»... وفى ذات الأثناء التى يقود فيها سقراط تلـك الحرب ضد الدولة... أو ضد الفئة الحاكمة بالمعنى الأدق، كان تلاميذه أيضًا يشاركونه مسـيرة الإصلاح والتصحيح حيث يقومون بتصحيح المعانى لـدى القـادة والزعـماء والساسـة ووجهاء المجتمـع من الشـعراء والخطباء ورجـال الصناعة حيث يوجهون لهم الأسـئلة ليسـتولدوا منهـم المعانى، ثم يقومون بتنفنيدهـا وتصحيحها وتقديم المعنى الصحيـح... وهى عادة كثيرًا ما أوقعت المشـكلات... وكثيرًا ما عرَّضت سـقراط للعنة لأنه هو مؤسـس هـذا المنهج... التهكم والتوليد... هـى حرب إذن على ثلاث جبهات مختلفة،

يقودها فى جبهاتها الثلاث سقراط بكل شجاعة... وبكل حزم... فى ظل ظروف سياسية مواتية للجريمة وللوقوف فى وجه أى إصلاح... إنها فاشية ديمقراطية... ديماجوجية جاهلية... عرضت آثينا لمحن متعددة، وكبدَّتها خسائر لا حصر لها، فى أعوام 411، 404، 401 ق.م... ففى سنة 411 ق.م وللمرة الثانية فى 404 ق.م قامت بعض العناصر المنشقة بالتآمر مع العدو الإسبرطى فأسقطت الديموقراطية وأقامت نظامًا ديكتاتوريًا مستبدًا وافتتحت عهدًا للإرهاب، وفى 401 ق.م، أى قبل المحاكمة بعامين أوشكت هذه العناصر أن تحدث انقلابًا ثانيًا، فالشباب الأثرياء البارزين فى حاشية سقراط لعبوا دورًا رئيسيًا فى هذه الإختناقات السياسية التى تعرضت لها المدينة، والذى فقدت على أثرها فى 404 ق.م أسطولها وتنازلت عن السيادة لاسبرطة وهُزمت شر هزيمة فى موقعة أبجوساتومای، تلك الواقعة التى ظلت خلف الستار فى محاكمة سقراط.

لقد طرق سقراط أبواب العقول جميعًا... لم يخش سلطة سلطان أو وزارة وزير، أو قوة الدهماء... كان كل شغله الشاغل تحرير الإنسان من أهوائه وشهواته، على المستوى الأخلاقى... وتحرير عقله من ربقة الأوهام وحتمية الشكل، على المستوى الفكرى، أو إن شئت دقة أكثر فلنقل أراد تحرير الإنسان من بشريته والإرتقاء به نحو إنسانيته، على المستوى الأخلاقى، وتحرير عقله من صنمية الإتباع إلى أفاق الإبداع على المستوى العقلى.

ولكن الظروف السياسية آنذاك لم تكن مهيئة بحالٍ لإصلاحات سقراط... لم تكن مواتية لقبول قضية الجوهر والقضاء على السفسطة، فقدموا سقراط إلى المحاكمة عبر اتهامين، الأول قديم قدمه أرستوفانيس،

الهزلى الساخر فى مسرحية «السحب» حيث أساء تصوبر سقراط وفقًا لتزاوجه مع سلطة سياسية قائمة، وكان ملخص اتهامه كما ذكره سقراط.. «قد أساء سقراط صنعًا، وهو طلعة يصعد البصر إلى السماء وما تحتوى، ثم ينفذ به تحت أطباق الثرى، وهو يُلبس الباطل ثوب الحق، ثم أنه يبُث تعاليمه هذه فى الناس»[1].

هذا اتهام عقائدى إذن... أو اتهام بالمرض النفسى المفضى إلى المرض العقلى... بحسب التافه أرستوفانيس.

وتصل الكوميديا إلى نهايتها عندما يعود «أستربسياديس» ومعه جماعة من الغوغاء لإشعال النار فى «دار الكفر» التى يقوم فيها سقراط بتعليم تلاميذه أن زيوس كإله لا وجود له، وقد وقع سقراط وأمسكت به ألسنة اللهب، فراح يصرخ و يستغيث «إنى أختنق» فى حين أن «استربسياديس» يصيح فرحًا بالنصر «فلأى غرض كنت تُهين الآلهة!... وتستطلع أسرارهم حول مساكن القمر؟»... ثم يُحرض السوقة ضد سقراط وتلاميذ قائلاً: «اضربوهم، اضربوهم، دون رحمة، من أجل أسباب كثيرة... لكن الأهم أنهم تهكموا عن الآلهة»[2]..

بعد هذا المشهد... لو كانت آثينا مقرًّا للمتعصبين، أما كان الجمهور سيخرج من المسرح يندفع إلى بيت سقراط ليشعلوا فيه النيران جزاءً وفاقًا

(1) أفلاطون، محاورات أفلاطون، ترجمة د. زكى نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1966م، ص49.

(2) نقلًا عن أى إف ستون، محاكمة سقراط، ترجمة نسيم مجلى المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، سنة 2002م، ص232.

لإلحـاده؟... ولكن هذا لم يحدث، وبدلاً منه، خرج المتفرجون - وسـقراط كان مـن بينهم - وهـم غارقون فى الضحـك، ولم يقيم أى منهـم بتدبيج تهم الكفر أو الهرطقة ضد سقراط.

هـذا هو الإتهام القديم... أما الثانى، فقد تعاقد ثلاثة من حاقدى القلوب وعلى رأسـهم مليتس على بعث اتهام جديد يـدور فى ذات الفلك مؤاده: «إن سـقراط فاعل للرذيلة مفسـد للشـباب، كافـر بآلهة الدولة، ولـه معبودات اصطنعها لنفسه خاصة»[1]..

تلك هى التهم التى تحاصر سقراط لتقدم إليه المنية على عجل!

التهمـة القديمـة... سـقراط يبحـث فى الطبيعـة... والتهمـة الحديثة... سقراط مفسد للشباب كافر بالآلهة.

□□□

سـيق سـقراط إلى محكمة التاريخ و إن كان مقرها أثينـا... ووقف أمام التاريـخ و إن كان أمام قضاة جاهلون... يعلـم الدوافع الحقيقية التى قادته إلى هـذا المشـهد، وذاك المصـير... يفتتـح رئيـس المحكمة الجلسـة... يقرأ التهم الموجهة إلى سـقراط... تُظهر عينيه الشماتة... فقد يكون أحد الذين أحرجهم من قبل أحد التلاميذ... يتوجه إلى سـقراط... أفتنا يا سـقراط فى تلك التهم التى تحاصرك... والتى لا أجد لك منها خلاصًا.

وكأنـه يصدر الحكم قبل المحاكمة... خصـم وحكم وجلاد... ثلاثة فى واحد...

(1) أفلاطون، محاورات أفلاطون، ص55.

ولكن هذا المشـهد لم يغير من هدوء سقراط وسمته وخلقه، لم يغير من رزانتـه التى لازمته من البداية حتى شرب السـم وخرس اللسـان... يبتسـم للقضـاة غير عابئ بهم... وكيف يعبأ بهم وهو لا يهاب الموت ذاته... «أما أنا فخذوا الحق من صراحًا... ولن أصوغها إليكم عبارة خطابية، بل أسوقها بعفو سـاعتها... لأنى على يقين من عدالة قضيتى... فلن أقف بينكم أيها الآثينيون موقف الخطيب الصبيانى ما دمت حيًا، فلا يرجون أحدًا منى خطابًا»[1]. ربما يقال لو أن سـقراط إعتمد على حسن الأسـلوب والاسترسال فى القول لكان سوفسطائيًا... وهو ما جاء للمحاكمة إلا بأسباب لعل محاربته للسوفسطائين هى أقواها... ولكنه لم يعتمد على المهارات الخطابية رغم أنه يمتلك من ذلك الكثير، و إنما إعتمد على الأسـلوب العقلى، البرهان المنطقى... مخاطبة العقل ومواجهته بالحجج المنطقية، فسقراط فى دفاعه كان منطقيًا لا سوفسطائيًا... محاورًا لا خطيبًا... يقف فى مشـهد يفت عضد الأشداء دون أن يتأثر... وما أقـصى ما يملكه القضاة... الموت... خير لا شر فيه... إذن من العجز أن تولد حرًا ثم تكون جبانًا... ومن الجهل أن ترضخ لأهواء نفسـك فى حب الحياة، فتقـدم الحياة العاجلة على الواجب... عـلى الضمير... على المبدأ... تلك هى المعانى المستخلصة من محاكمة سقراط.

لقد دخل سـقراط المحكمة وهو على دراية تامة بالدوافع الأساسـية... عـلى دراية كاملة بطبيعة العداء مع الساسـة، كان يعلم حقيقة ما يُضمرونه لـه... لـذا أراد أن يوجه الأنظـار إلى حقيقة نواياهـم ودوافعهم لبعث تلك المحاكمـة... ليقـرع ضمائرهـم مـن ناحيـة... وليبرهن على فهمـه لحقيقة

(1) أفلاطون، المصدر السابق، ص47.

الموقف من ناحية أخرى، يقول لهم: «سأقص عليكم قصة قد تشوقكم أو لا تشوقكم، ولكنها مع ذلك حق، إننى لم أشغل منصبًا إلا مرة واحدة عضوًا فى مجلس الدولة... وكانت رئاسة المجلس عند محاكمة القواد الذين لم ينقذوا جثث القتلى بعد موقعة أوجينس لقبيلة أنتيوخس - وهى قبيلتى - فرأيتم أن تحاكموهم جميعًا، وكان ذلك منافيًا للقانون كما أدركتم ذلك جميعًا فيما بعد، ولكنى كنت إذ ذاك وحدى بين أهل بريتان أعارض الإفتئات على القانون، وأعلنت رأيى مخالفًا لكم، ولمَّا تهددنى الخطباء بالحبس والطرد، وصحتم جميعًا فى وجهى آثرت أن أتعرض للخطر مدافعًا عن القانون والعدل على أن أساهم فى الظلم خشية السجن أو الموت... حدث ذلك فى عهد الديموقراطية، فلما تولى زمام الأمر الطغاة الثلاثون أرسلوا إلىّ و إلى أربعة معى، وكنا تحت السقيفة، فأمرونا أن نسوق إليهم ليون السلامى من بلدة سيلاميس لينزلوا به الموت، وذلك مثل لأوامرهم التى اعتادوا أن يلقوها لكى يُشركوا معهم فى جرائمهم أكبر عدد ممكن من الناس، فبرهنت لهم قولاً وعملاً أنى لا أعبأ بالموت وأنه لا يزن عندى قشة إن صح هذا التعبير، وأن كل ما أخشاه هو أن أسلك سلوكًا معوجًا شائنًا، فلم أرهب طغيان تلك العصبة الظالمة، ولم تضطرنى إلى ركوب الخطأ، فلما خرجنا من السقيفة حيث كنا، ذهب الأربعة الآخرون إلى سيلاميس فى طلب ليون وكدت أن أفقد حياتى لقاء ذلك العصيان لولا أن دالت دولة الثلاثين بعد ذلك بقليل وما أكثر من يشهد بصدق ما أقول»[1].

هذه صراحة مطلقة... جرأة منقطعة النظير... لعلها هى التى خلَّدت

(1) المصدر نفسه، ص61.

سـقراط... لعلها هـى التى جعلت منه رجـلاً... وما أقل الرجال فى سـاحة الموتى... وما أقل الرجال عند المواقف...

رجـل يقف أمام المحكمة... شـجاع مهـاب لا يتغـير... لا يتأثر بالجند والقضـاة... لا يهتز أمـام هيبة المحكمة... ليس لأنـه مواطن عاق أو قاسى القلب... ولكن لأنه رجل ذو مبدأ... يثق تمامًا فى عدالة قضيته... يعلم أبعادها جيـدًا... يعلم أن المسرحيات التى مُثلت ضـده لم تكن لتُدينه أبدًا... فطالما مُثلت مسرحيات تدور أحداثها عن شخصيات عامة دون أن تدينهم... يقول سـتون: «لكن حقيقة أن سـقراط كان هدفًا محببًا لدى شـعراء الكوميديا، فهذا لا يعنى أنه كان سـيئ السـمعة، بل لأن هذه المسرحيات كانت انعكاسًا لشهرته وشـعبيته، إذ كان الآثينيون يستمتعون بالفُرجة على غرائب أطواره وأقواله... وكانوا أيضًا يستمتعون بالنكات التى تتخذ من كبار رجال الدولة هدفًا لها، بل إن شـعراء الكوميديا قد وجهوا سـهام سـخريتهم إلى بركليس العظيـم... المهيـب... ورفيقـة نضاله الفكرى أسـبازيا، وأفـراد المجموعة المحيطـة بهما مـن كبار المثقفين، لكـن النكات الداعـرة والهزليات البزيئة الخشنة التى استوحوها عن بركليس لم تمنع الآثينيين من إعادة انتخابه مرات عدة، لقد وصفه سيكوديدس بأنه ملك حقيقى، أما كليون - خليفة بركليس - ورغـم أنه كان زعيمًا شـعبيًا فإنـه كان هدفًا لمثل هذه النـكات، وهذا لم يمنع أيضًا إعادة انتخابه، سـقراط نفسه أيضًا كان كذلك يملك حسًا ساخرًا عظيمًا، وكثيرًا ما كان يسـخر من نفسـه، ومن غير المحتمل أن يضيق صدره بنكتة تطلق عليه»[1].

(1) ستون، المرجع السابق، ص158.

إذن ليس ثمة مشكلة جراء الكوميديا... وطالما اعتاد الشعب الآثينى مثل تلك الكوميديا على المشاهير... ولولا شهرة سقراط لما كان هدفًا لأقلام الكوميديان، وهذا ما يؤكد هزلية تلك المحاكمة... كذب الصورة التى خرجت بها زيف الاتهامات... فشل مقيمى الدعوى فى تقديم إتهامات حقيقية... بل كانت اتهامات ظاهرية... شكلية... وسقراط كان ضد المظاهر والشكليات... كان باحثًا عن القيم الثابتة... جواهر الأمور... مضمونها... ولكن آثينا ضاقت بذلك ذرعًا... ضاقت بوقوفه ضد الإرادة السياسية مرات عدة... ضاقت بإلتفاف الشباب حوله وتقليده... كما ضاق به السوفسطائيون أيضًا فأوغروا ضده الصدور... وألبوا ضده المشاعر... فكانت ثمة ثورة حقيقية دافعها الحقد والكراهية لشخص سقراط، دون أن يخف ذلك عليه، لنجده يقول: «فليس الأمر قاصرًا على مليتس وأنيتس، ولكنه الحقد الذى يأكل القلوب، ويُغرى الناس بتشويه السمعة، فكثيرًا ما أدى ذلك برجال إلى الموت، وكثيرًا ما سيقضى بالموت على رجال، فلست بحمد الله آخر هؤلاء»[1].

قد يكون مثل هذا الكلام مثيرًا للقضاة أنفسهم خاصة أنهم من الجهلة، أصحاب الحرف المختلفة الذين لا يجيدون فى أمر القضاء قليلاً أو كثيرًا... ومثل هذا الحديث المستفز - بحسب تعبير البعض - للقضاة، قد استساغه سقراط عبر طول دفاعه وعرضه، حتى ليخيل إليك أنه أعدم نفسه، أو أنه أساء الأدب مع هيئة المحكمة... كل ذلك لم يحدث، ولكن هذه طبيعة شخصية... فطرة إلهية لتلك الشخصية، ولو قال سقراط غير هذا الدفاع

(1) أفلاطون، محاورات أفلاطون، ص61.

لطمس شـخصيته ووواراها الزمن إلى الأبد... ولكن لأنه كان رجلاً ذو مبدأ، كان مقتنعًا بكل حرفٍ قاله... كان واثقًا من علمه ونفسـه وصدق مبادئه... فكانت ردوده كلها تخرج من إطار المضمون لا الشكل... الباطن لا الظاهر... المحتوى لا الصـورة... لم يكن يجدر به الخوف... ولو حدث أن خاف لهدم رؤيتـه للموت... لم يكن يجدر به أن يسـوق أولاده إلى هيئة المحكمة باكين مولولين، ولو حدث لهدم فلسفته كلها رأسًا على عقب... بالإختصار لم يكن يجدر به أن يقول غير ما قال... ولا أن يفعل غير ما فعل.

هذه الشـخصية العظيمـة تتضح وحدة منهجها وسـلامة فطرتها وصدق مبادئهـا فى أصعـب المواقف... رئيس المحكمة يسـتمع إلى الدفـاع كله... يوجه حديثه إلى سـقراط... إقترح إذن عقوبة يا سقراط لصنيعك... ولكن سـقراط هو سـقراط، يفاجئ الجميع بذات منطق الرد الـذى يظنه البعض عبثيًا... «فماذا يحُسـن برجل فقير أحسـن إليكم الصنيع ويرغب فى الفراغ ليتمكن من تعليمكم سوى أن يظل أبدًا فى مجلس الدولة، وإنه أيها الآثينيون لأجـدر بهذا الجـزاء ممن كوفئ فى أولمبياد سـباق العجلات سـواء أكان يجر عجلتـه جـوادان أو أكثر، لأنـى فقير محتـاج، وذاك غنى عنده ما يسُـد منه العـوز، على أنه لا يعطيكم إلا سـعادة ظاهرية، أما أنا فأدلكم على الحقيقة، فإذا كان لى أن أقدر لنفسى عقوبة عادلة ما قلت بغير البقاء فى مجلس الدولة جزاءًا أو فى»[1]...

هذا النص يبين حقيقة سـقراط... يعمق رؤيتنا له... يُظهر غوامض تلك الشـخصية... صراع الشـكل والمضمون... المفارقة بين الكائن وما ينبغى أن

(1) أفلاطون، محاورات أفلاطون، ص63.

يكـون... تمثلها خـير تمثيل مثال المعلـم الحقيقى للقيم... والمتسـابق فى لعبة رياضيـة، الأول يمثل الجوهـر، والثانى يمثل العـرض... الأول يبنى حضارة... والثانى يقيم لذة ومتعة ظاهرية تستمر لعدة لحظات... الأول يستحق الأجر الكبير الذى لا يناله ولا تلتفت إليه الدولة كشأن كل عصر... فى حين أن الثانى يأخذ أكثر مما يسـتحق، يأخذ بما لا يتناسب مع ما قدمه من نفع للمجتمع... فيـثرى ثرائًا فاحشًـا فى متعة ظاهريـة قدمها... فى حـين أن أصحاب العلوم لا يجدون ما يسـدون به رمـق أبنائهم... تلك هى المفارقة التى أراد سـقراط تقديمها... هى المأسـاة التى أراد سـقراط أن يلفت الأنظـار إليها... أن يدق ناقـوس الخطر عـبر التاريـخ... ويا ليت التاريـخ يعتبر... ويـا ليت قارئوا التاريخ يتعظون مما قد سلف، وممن قد نصح... لكن ذلك لم يحدث، فلا قضاة سقراط فهموا إشاراته... ولا قراء التاريخ اعتبروا من حكمته وصبابة نفسه ولوعة فؤاده وحسرة قلبه... كلهم ضلوا الطريق... المعاصرون لسـقراط... واللاحقون عليـه... لدرجة جعلت من أولئك اللاحقون سـاخرون من هذا الطلب... يقرئونه فى شكله دون مضمونه... يتهكمون ويسخرون... كيف لرجل سـيحكم عليه بالموت يسـخر مـن المحكمة ويطلب منهـا مكافأة لا عقوبة... المحكمة تدينه وهو يطلب البقاء أبدًا فى مجلس الشيوخ... يظنونها مفارقة سـقراطية، ولكنها لم تكـن أبدًا مفارقة، بل كانت إبداعًا سـقراطيًا، كانت رؤية عميقة من سقراط أن يوجه النظر إلى مغزى فلسفته كلها، تلك التى - فيما أظن - تتلخص فى تلك الكلمات.

ولكـن القضاة كعادة الجهـلاء أخذوا الكلام كما أخـذه المؤرخون عبر العصـور على أنه سـخرية جديدة منهم كشـأن سـخريته الدائمة على مدار دفاعـه بأكمله... فيمتعضون ويتميزون من الغيظ... ثم يقترعوا على إدانته

والحكم عليه بالإعدام فتكـون النتيجة موافقة (280 عضو) على الإدانة، فى حـين رفـض (220 عضو) تلك الإدانـة الظالمة، أى أن سـقراط كاد يبرأ لولا سـتين صوتًا لا أكثر... ليولد اسـم سـقراط من جديد وليصبح هدفًا لسـوء الفهم وضعف التأويل، حتى ذوى الأسـماء الكبيرة اتهموا سقراط بالتقصير فى دفاعه، فسـارتون يقول: «كاد سـقراط أن يبرأ لأن الحكم بإدانته لم يفز إلا بأكثرية (30 من 501 صوت)، وكان من اليسير أن تُصوت هذه الأكثرية فى مصلحته لو أنه حاول كسـب عطف المجمع الآثينى بالكلام اللبق، أو لو أنه دافع عن نفسه دفاعًا جديًا، ولكنه فعل عكس ذلك، فكان دفاعه آية من آيات السخرية، وخطابه كفيلاً بتأليب ذوى العقول الضيقة»[1]...

إنه ذات المنطق الذى تحدث به كارل باسبرز: «لقد كان فى وسع سقراط أن ينقذ نفسه بيسير دفاع مناسب، ولعله قد احتقر حكامه بصلف فى تحديه للقوة الإنسـانية، وهو لم يمر على أى جسر من الجسور التى بنوها من أجله، إنه لم يشـأ الخلاص من الإعدام بتيسـيرهم له سُـبُل الفرار، وربما أحجم عن الإفصـاح عـن أى اسـتعداد لـكى يتكيف مـع المواصفات غـير المكتوبة فى مجتمعـه، وقد يكون سـقراط هو الـذى إجترم موته، قد يكـون أراده، ولذا فقـد لا يكون إعدامه اغتيالاً حقوقيًا، بل انتحـارًا حقوقيًا، إن هذه النظرية التى تعتبر الضحية مجرمًا بدل القاتل تهمل واقع أن سـقراط لم يخف موهبته الإلهية، موهبة أن يصدع بالحق، وأن يأتمر بإسـهامه فى اللاصدق الذائع، لقد كان شهيدًا صحيحًا، أى شاهدًا»[2]...

(1) جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة لفيف من العلماء بإشراف د. إبراهيم بيومى مدكور، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج2، ص76

(2) كارل باسبرز، فلاسفة إنسانيون، ص27.

هكذا يتناول النقاد قضية سقراط على مر العصور بفهم واحد، واتجاه تحليلى واحد... مع أنه لم يتزحزح عن موقفه، لقد ظل حتى آخر لحظة قبل الإقتراع مصمِّما على موقفه، لا يهاب الموت، ولا يهاب المحكمة، ولا يعبأ بمقيمى الدعوى والخصوم إنه يتوجه إلى المحكمة بكل شجاعة وسمو نفس.. «أيها الآثينيون سواء لدى أصدعتم بما يأمركم به أنيتس أم فعلتم بغير ما يشير عليكم، وسواء أأصبت عندكم البراءة أم لم أصبها، فاعلموا أنى لن أبُدل من أمرى شيئًا ولو قضيتم علىّ بالموت مرارًا»... منتهى التحدى... منتهى القوة الإرادية والشجاعة الفكرية... لم يكن يجدر به غير هذا يا سادة... لا يمكن أبدًا أن نوجه له تهمة التقصير فى الدفاع... بل الحق كل الحق أن التهم تحاصر آثينا... تلك المدينة التى لم تكن أبدًا صادقة مع نفسها، فالمفارقة والعار فى محاكمة سقراط أن مدينة اشتُهرت بحرية الكلام قامت بمحاكمة فيلسوف لم يرتكب ذنبًا سوى ممارسة هذه الحرية...[1]

ما لم يفهمه ناقدوا سقراط أنه لم يكن يهزأ من المحكمة، لم يكن يستعديهم، إن الشىء الوحيد الذى سخر منه سقراط إذا جاز لنا أن ننسب إليه السخرية، هو الموت، فقد سخر من الموت حتى الموت... قبل الموت ورضى به... آثره على حياة تكون ضد المبدأ... «فإنى لا أوثر خطتى التى رسمتها ولو أدت بى إلى الموت، على أن أصطنع خطتكم احتفاظًا بالحياة، فلا يجوز لإنسان فى ساحة الوغى أو أمام القانون أن يلتمس أى سبيل فرارًا من الموت»[2]..

(1) ستون، المرجع السابق، ص229.
(2) أفلاطون، محاورات أفلاطون، ص62.

يمكننا القول إذن بأن سقراط قد ضنع ما هو أهلُ له، وصنعت الديموقراطية ما هى أهل له، لم يكن يجدر بسقراط سوى أن يُقدم على الموت راضيًا مرضيًا، ولم يكن يجدر بالقضاة إلا إعدامه وفقًا لإرادة سياسية مملاة مسبقًا عليهم، ووفقًا لجهلٍ مطبق يرتعون هم أنفسهم فيه... فكلُ قام بدوره على أكمل وجه، وكلُ سار ناحية غايته دون توقف، وكل فعل ما هو منوط بفعله... فسقراط إلى الخلود، والقضاة إلى عار ملازم أبد الدهر... إذ سيذكرهم الجميع بلقب مغتالى العقل... ويا له من لقب يكفى لأن يلحق العار الأبدى بأصحابه، يقول باركر: «وسواء وُصف سقراط بأنه كان رجلاً مفكرًا أو لم يوصف بذلك فالمقطوع بصحته أنه مات شهيدًا لفكرته الذهنية عن السياسة، لقد وجه النقد إلى خصائص الديموقراطية الآثينية من لجوء إلى الإقتراع، ومن تشكيل للجمعية الوطنية، ومن جهلٍ اتصف به ساسة آثينا، ويبدو أنه نادى بأن معالجة السياسة تتطلب حذقًا فلسفيًا للمعرفة، ولا شك أن تعليمًا كهذا فى دولة ديموقراطية يعتبر فى أحسن الظروف عدم ولاء للدولة، ويعتبر فى أسوأها خيانة عظمى»[1]..

تلك هى حقيقة المحاكمة... حقيقة الدوافع... حقيقة النتائج... فلولا تلك الأسباب لما سيق سقراط إلى المحاكمة، فعادة عندما يضيق الساسة بشخص يبحثون له عن تُهم تُثير ضده الرأى العام كى يقدموه كمجرم ويظهرواهم فى صورة الضحية والمجنى عليه، وتلك هى سنة كل قُطر،

(1) آرنست باركر، النظرية السياسية عند اليونان، ج1، ترجمة لويس إسكندر، مراجعة محمد سليم سالم، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1966م، ص170.

وكل عـصر، لم تتغير منذ القدم وحتى اليوم... وتلك هى مكمن الخطورة فى الأنظمة التى تدّعى الديموقراطية.

❐❐❐

ثمة وجه آخر يوضح الأبعاد النفسية لسقراط فى تلك المحاكمة... يبرهن على مدى إنسـانيته وسـمو خلقـه... وعلى قدر القيـم فى قلبه وفـؤاده، ففى كثـير من الأحيان تجد أصحاب القيم هـم أول من ينتهكونها... هم أول من يلوثوا شرفها... هم أول من يطئونها بالأقدام ذات الضمائر الملتاثة... ولكن سـقراط كان من طرازٍ آخر، لولا هذا الطراز لما كان سـقراط... ولولا تلك المواقف لما كُتب سقراط بماء الخلود.

يجلس سـقراط فى سـجنه... يعيـد تأملاتـه... يتذكر فى نفسـه مواقفه السياسـية... يتراءى له الشـباب وهم يحيطون به... يسمعهم... يوجههم... يعلمهـم... يبُـث فيهم روح حب الحقيقـة... يزودهم من مهـارات المعرفة والتعلـم... ينصـت إليهـم بحـرص وشـفقة... يلاعـب صغـاره فى حجرته الصغيرة... كلها مواقف تترائى للرجل أمام عينيه بعد أن أصبح قاب قوسـين أو أدنى مـن مفارقة عالم الزيف والصورة إلى عالم الجوهر والحقيقة... يا لها من أمنيات سـعيدة، فكم كان سقراط يشتاق إلى رؤية المصلحين والأبطال الذيـن اهتمـوا بقضايا الإنسـان... كم هو فى شـوق إلى معانقـة البشر ذوى النزعة الملائكية... كم يُمنى نفسه ويشتد شوقه... وكم تتمثل له حياته كلها مجرد أشباح، مجرد صورة وزيف وشكل بلا مضمون... كم هى قصيرة حياتنا الدنيا... وكم هى غرورة وكاذبة أيضًا... كم يدخل السـجن فيها بريئون... وكـم يدان فيها ملائكيون... وكم تنقلب فيها الحقيقة إلى وهم... وكم يغدو

فيهـا الحق باطـلاً، والباطل حقًـا... إنها بالأحرى حياة ليسـت كالحياة التى يتمناها رجل مثل سقراط... وليست بالحياة التى يفر فيها أيًا من ذوى النزعة الإنسـانية من المـوت... فالموت بالنسـبة لهؤلاء مجرد خلاص... هو سـفينة النجاة التى طالما تطير إليها الأشـواق... هو ملاذ القلب وعشق الروح ومنى الفؤاد.

يجلس سـقراط فى ليلـه الطويل... فكـم يعُد اللحظات بعـد اللحظات لحين عودة المركب المقدسـة وانتهاء الأيام الحرُم التـى حُرم فيها القتل ليلقى مصيره ومناه... يتذكر كل الحياة... الأيام... الشـهور... السـنون... يفكر فى طبائـع البشر... غرائز النفس... حقيقة الوجود... يمزق صمته طرق باب السـجن عليه... ليقطع عليه أقريطون صديقه الودود خلوته... ليقص عليه من نبأ المفاجئة التى أخذت منه وقتًا وجهدًا حتى يعدها لأسـتاذه سـقراط، تلـك المفاجئة التـى تؤكد على أن أقريطـون هذا - رغم كونـه من المقربين لسقراط - لم يكن يفهم سقراط... لم يكن يعرف حقيقته ولا جوهر نفسه ولا مكنـون سره، ربما كان يظنـه من تلك النوعية التى تقـول ما لا تفعل... من أولئك الأقوام الذين يحسـنون القول و يُسـيئون الفعل... ربما... إنه جاء ليعرض على سـقراط خطة للهرب من السـجن... خطة ناجحة مائة بالمائة، فقد هيأ لها الأسـباب، وذلل لها الصعاب، ولم يتبق سـوى موافقة سـقراط، ذاك الذى رفض بشـدة... سـمى تلك الخطة بالعبث، بالهرب من الواجب... يلقن الإنسـانية كلها درسًـا فى احترام الذات... وليس مـن دليل على احترام الـذات أعظم مـن احتقار الموت ورفض الهرب من أى خطر... هذا مسـلك الجبناء لا مسلك أصحاب الرسالات... هذا بالإختصار كان رد سقراط، لقد تخيل القوانين تعاتبه.. «هبنى هممت بالأبوق فجاءت إلىّ القوانين والحكومة

تُسـائلنى حدثنا يا سقراط، ماذا أنت فاعل؟ أتريد بفعلةٍ منك أن تهز كياننا، أعـنى القوانين والدولة بأسرها بمقدار ما هى فى شـخصك ماثلة؟ هل تتصور دولة ليس لأحكام قانونها قوة، ولا تجد من الأفراد إلا نبذًا و إطراحًا أن تقوم قائمتها، فلا تندك من أساسـها»[1]، ثم يتخيل المفارقة بين الضمير واللاضمير، أو الواجب والمندوب على لسـان القوانين، تلـك التى تحدثه بالقول.. «اصغ إلينا إذن يا سقراط، نحن الذين أنشأناك، لا تفكر فى الحياة والأبناء أولاً، وفى العدل آخرًا، بل فكر فى العدل أولاً، وارج أن تصيب البراءة عند ولاة العالم الأدنى، فـإن فعلت ما يأمرك به أقريطـون فلن تكون أنت ولا من يتعلق بك كائنًا من كان أسعد أو أقدس أو أعدل فى هذه الحياة ولا فى أية حياة أخرى، فارحل الآن بريئًا مجاهدًا لا فاعلاً للرذيلة، ضحية الناس لا ضحية القوانين، أمـا إن صممت أن ترد الشر بالشر والضر بالضر، ناقضًا ما قطعته أمامنا على نفسك من عهود ومواثيق، مسيئًا إلى أولئك الذين ينبغى ألا يمسهم من إسائتك إلا أقلهـا، أعنى نفسـك وأصدقـاءك ووطنك، ونحن فسـننقم عليك ما دمت حيًا، وستسـتقبلك قوانين العالم الأدنى وهى إخوتنا، عدوًا، لأنها سـتعلم أنك لم تدخر وسعًا فى هدمنا، إصغ إذن إلينا لا إلى أقريطون»[2]..

يلفت سـقراط الأنظار كعادته فى إشـاراته إلى حقائق هامة، لعل أهمها أن المنظمـة السياسـية تختلـف عن القانـون، ومن ثمّ فمهما افـترت المنظمة السياسـية على شـخص وألصقت به التهم ظلمًا، فهـى المدانة وليس القانون، القانـون يحكم على ما أمامه من ورق... لا ينفـذ القانون إلى أعماق النفوس

(1) أفلاطون، محاورات أفلاطون، ص94 وما بعدها.
(2) المصدر نفسه، ص 100.

البشرية ليستطلع حقائق نواياها... هذه مهمة علوم أخرى غير القانون، وتاليًا فإذا كان سقراط قد ظُلم من سلطة سياسية قدمته ظلمًا للمحاكمة فبأى حقٍ هو يظلم القانون... بأى حقٍ هو يعتدى عليه؟!...

أيضًا يلفت سقراط الأنظار إلى أن.. «احتمال الظلم خير من اقترافه».. فليحتمل هو خطأ المنظمة السياسية دون أن ينتهك المنظمة القانونية، يقول وورنر: «لقد ظل سقراط حتى نهاية حياته يطرح المفارقات، لقد أدين وكان يعلم أنه أُدين على غير وجه حق، ولكنه كان يحترم قوانين مدينته، ولمَّا أتيحت له فرصة للهرب رفض أن يستغلها، فلقد كان سلوكه سلوك مواطن مخلص إخلاصًا غير عادى لمدينته، ومع ذلك فلقد أوضح أن وجود «قانون» ما، يُعد أكثر أصالة من وجود أية منظمة سياسية»[1].

قد يعترض البعض بمنطق المصلحة أو بمنطق دفع المضار مقدم على جلب المصالح ومن ثمَّ فإن فرار سقراط من السجن لن يكون إلا قطعًا للطريق أمام الظالمين ليس إلا، أى أن هذا الهرب لن يُعد أبدًا فرارًا من القانون ولا خروجًا على الدولة، لأنه حوكم ظلمًا، وربما كان الهرب هو الحل الوحيد الذى ربما ترتضيه الدولة وتباركه، بل وربما تريده وتُصر عليه حتى لا تقع فيما بعد فى عذاب الضمير، ولكن حتى هذا الحل رفضه سقراط، رفض الخروج قيد أنملة عن مبادئ وشموخ سقراط، رفض مجرد أن يُقال.. «إن هناك مواطنًا عاقًا لقوانين بلده فر هاربًا من تنفيذ القانون»...

(1) ريكس وورنر، فلاسفة الإغريق، ترجمة عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، ص660.

لقد وضعت محاورة أقريطون سقراط أمام اختبارين أحدهما أشد بلاءً من الآخر، الأول، هل يقدم سقراط الحياة على الواجب... الجسد على الروح... طاعة الجسد و إزهاق الضمير... ذاك بحق اختبار عسير، ولكن سقراط لم يجعل منه اختبارًا بالأساس، إذ لا توجد عنده أدنى مفاضلة بين طاعة الضمير والخروج عليه... حتى مجرد المقارنة لم يكن ليقبلها سقراط... وهو ما ينقل الإختبار من سقراط إلى كل البشر الذين يتعاقبون بعده... ماذا تفعل لو كنت مكان سقراط؟ هل تقدم الحياة على الموت وتضحى بالمبدأ؟... أم تقدم الموت على الحياة فداءًا للمبدأ؟! ذالكم هو السؤال المستخلص من تلك المعركة الفكرية الأخلاقية الكبرى... إنه سؤال لم تفلح فلسفة القانون إلى الآن فى الإجابة عليه، ولعل إجابة سقراط كانت أهم وجه من أوجه ملائكيته، وأهم بند من بنود خلوده...

إن الذى قتل سقراط هو أخلاق سقراط ورجولته، وليس شيئًا آخر غير ذلك، أخلاقه رفضت الهرب من السجن، أو أن يخرج عن الأطُر العامة لمبادئه بأن يرد الشر بالشر... ورجولته رفضت أن يأتى بأبنائه وزوجته ليسترحموا القضاة، فى وقت كان يفعل فيه مشاهير وساسة آثينا هذا الصنيع عندما يلم بهم ما ألم بسقراط دون أن يأخذ أحدًا ذلك عليهم، هى إذن رجولة لا مثيل لها. وهى إذن أخلاق ما أعظمها، وما أروعها...

إجمالاً، يمكننا القول بأن سقراط لم يُقتل بأيدى الأثينيين كما يظن البعض، ولكنه بطريقة أو بأخرى قتل نفسه حقًا- إذا جاز لنا هذا التعبير- قتلها برجولته وبأخلاقه، واللتين لابد للمرء منهما ولو قتل ألف ألف مرة.

□□□

انتهت المحاكمة الأعظم فى التاريخ... إنها محاكمة الفكر... محاكمة الرجولة... محاكمة المبدأ والقيمة... لم يكن سقراط هو القابع خلف القضبان... فما كان سوى صورة للفكر والرجولة والقيم... وما أن انفضت تلك المحاكمة حتى كُتب لسقراط الخلود، فلم تمض سوى لحظات عقب ذاك الإغتيال الآثيم، حتى نشأ بين عشيةٍ وضحاها نوع من الأدب الحقيقى، الأدب الثرى، فهذا يصف اليوم الأخير، وذاك يصف الدفاع، وثالث يصف خلود الروح، ورابع يتخيل ما كان ينبغى أن يقوله سقراط، وخامس يحلل المأساة، وسادس يبحث عن الأسباب الحقيقية وراء الإغتيال، وسابع وثامن وعاشر...

تطير الأخيلة، تنقب القرائح... ماذا كان ينبغى على سقراط قوله؟ وهل لو اختلف دفاعه كان سيتغير الحكم... يقول ستون :" كان يمكن لسقراط أن يحتج قائلاً "إخوانى المواطنين، يا أهل آثينا، أنتم لا تقاضوننى من أجل شىء فعلته، بل من أجل شىء قلته وعلمته، أنتم تهددوننى بالموت لأنكم تكرهون آرائى وتعاليمى، هذه محاكمة للأفكار وهذا شىء جديد فى تاريخ مدينتنا «بهذا المعنى تكون آثينا هى التى فى قفص الإتهام وليس سقراط... " دعونى أن أكون صريحًا معكم، فأنا لا أؤمن بما تسمونه حرية الكلام، لكنكم تؤمنون بها، إننى أعتقد أن آراء الناس العاديين مجرد دوكسا DoXa أى معتقدات بلا مضمون، مجرد ظلال باهتة لا حقيقة فيها ولا يجب حملها على محمل الجد، وقد تقود المدينة إلى طريق الضلال»... أو أن يقول «إننى أظن أنه من العبث تشجيع المقولات الحرة التى لا تقوم على حقائق أو تشجيع الآراء غير المعقولة، أو إقامة سياسة المدينة على عدد من الرؤوس التى تشبه رؤوس الكرنب، ولذلك فإننى أرفض الديموقراطية ولا أعتقد فيها، لكنكم

تؤمنـون بها، وهـذا اختياركم، وهو امتحان لكم وليـس لى».. أو أن يقول.. «تقولون إنى أبديت عدم إحترامى لآلهة المدينة فاحذروا أن ترتكبوا إثم هذه الإهانـة بالحكم علىّ بالإدانة... كيف تكرمون بيثو فى حين تقمعون الإقناع وتصـادرون الأفكار المخالفة؟ ألسـتم بهذا تعصون زيـوس أجورايوس إله المناقشات ذاته، عندما تقيدون حرية المناقشة بإدانتى»[1].

قرائح وأخيلة تقيس الموقف بحسـب آراء أصحابها لا بحسـب قناعات سـقراط، بحيث نفسـيات أصحابها لا بحسـب نفسـية سـقراط... فهى لا تصح إلا معهم، لا تصح أبدًا مع شـخصية كسقراط، ولا مع نفسية كهذه... بالإختصـار لا يوجـد دفاع عقلى منطقى أروع مما قاله سـقراط، لقد كانت كل كلمة فى سـياقها... وكل حرف فى مكانه، وكل تنهيدة خرجت من قلبه إنما خرجت فى أوانها ومناسـبتها، ولو زيد حرف أو نقُص عما قاله سـقراط لألفى بذلك ظلال الشك على فلسفته برمتها...

وهكذا سيظل سـقراط هدفًا للأقلام إلى قيام الساعة، لأن دماء الشهداء تصنع ما لا يسـتطيع الساسة بسياسـتهم أن يصنعوه، وما لا يستطيع الأبطال من أصحاب السـيوف أن يحـرزوه... إنها تصنع الخلـود، ذاك الخلود الأبدى الذى يستمر فى ذاكرة التاريخ إلى أن يغدو لا تاريخ، وإلى أن يصبح الكون لا كون... ويصير هناك حيث لا هناك.

بالإختصـار، إنـه الخلود، ولا شىء أروع من ذاك الخلود فى ذاكرة الإنسـانية إلى أن تنتهى الذاكرة من التذكر... فلن يمر جيل دون أن يقرأ سـقراط... دون أن يكتب عن سقراط... سيزداد حبه لسقراط وسخطه على أثينا، يقول ستون:

(1) ستون، المرجع السابق، ص245 وما بعدها.

«كنت كلما أوغلت فى عشق للإغريق، كلما زاد ألمى لمشهد سقراط أمام قضاته... وأنا ككاتب من دعاة الحرية المدنية قد أفزعنى هذا المشهد وهز إيمانى بالرجل العادى الذى رسخته دعوة جيفرسون، لقد صار علامة سوداء فى تاريخ آثينا وفى تاريخ الحرية التى كانت ترمز لها، كيف أمكن لمحاكمة سقراط أن تحدث فى مثل هذا المجتمع الحر؟ كيف تنكرت آثينا لنفسها»[1] ويقول وولف: «إن الحكم على المواطن الفيلسوف سقراط كان كما لو أن الدولة الآثينية فى القرن الخامس بقلب صفحة ذروتها، قد وقعت قرار موتها هى»[2]..

بل إن ستون يرفع محاكمة سقراط كأعظم محاكمة عرفها التاريخ باستثناء محاكمة المسيح فيقول: «باستثناء محاكمة المسيح، فليس هناك محاكمة أخرى تركت تأثيرها على خيال الغربيين مثل محاكمة سقراط، والمحاكمتان تتشابهان فى كثير من الوجوه، فليس هناك تقارير معاصرة مستقلة لأيٍ من المحاكمتين، ولا حتى إشارة جزئية، كتلك لا توجد مخطوطات ولا سجلات للمحكمة، ونحن لا نسمع الإدعاء، ونعرف القصة فيما بعد عبر التلاميذ المحبين لكل منهما»[3].

هكذا يتحدث الناس عن سقراط، لأن دماء الشهداء لا تعدلها دماء، دماء ذكية، حرة... ثم إنها تثأر لنفسها... فما هى إلا أيام معدودة ويندم الآثينيون على اغتيال سقراط، ويثوروا ضد مقيمى الدعوى ضده، فأعدموا مليتس، وطردوا أنيتس إلى المنفى، وأقاموا تمثالاً برونزيًا لسقراط...

(1) ستون، المرجع السابق، ص15.
(2) وولف، ص42.
(3) ستون، نفسه، ص17.

هكذا دماء الشهداء... مصير القتلة معروف سلفًا... بمثل ما عُلم مصير الشهداء... إنهم فى أركان الجنة يطوفون تارة، ويطيرون أخرى، يردون أنهار الجنة وينهلون من خيراتها حيثما شاءوا، جزاءً بما قدموا للإنسانية من صنيع إعظاماً لقدرهم... رفعةً لمكانتهم... إعترافًا من بارئ السماء بسمو أرواحهم... ورقة أفئدتهم.

وعى الذات

يقع فى يقينى أن مسألة خلود الروح وفناء الجسد هى النقطة الفاصلة فى فكر سقراط... فلولا قناعته بفناء الجسد وخلود الروح لما قبل الإعدام... ولكن شخصيته كانت متكاملة إلى حدٍ كبير، فإيمانه بالقيم والمبادئ الثابتة التى لا تتغير بتغير المواقف أو باختلافها هو الذى قاده إلى الإيمان بفناء الجسد وبكونه مصدر الشرور والحروب، وخلود الروح وإعتبارها الجزء السامى غير المرئى فى الحياة الإنسانية، ومن ثمّ كانت أحد أوجه ملائكية سقراط تخرج من جوف الإيمان بخلود الروح والثورة ضد المادة...

فالجسد هو مصدر الألم والشقاء والتعاسة، يخرج علينا متسائلاً ومجيبًا فى آنٍ... «من أين تأتى الحروب والمعارك والأحزاب إن لم تكن آتية من الجسد وشهوات الجسد... فالحروب يثيرها حب المال، والمال إنما يُجمع من أجل الجسد وخدمته، ومن جراء هذا كله يضيع الوقت الذى كان ينبغى أن يُنفق فى الفلسفة، هذا ولو تهيأ للفلسفة الميل والفراغ لنفث الجسد فى مجرى التأمل الشغب والإضطراب والخوف ليحول بيننا وبين رؤية الحقيقة، وقد دلت التجارب جميعًا على أنه لو كان لنا أن نظفر عن شيءٍ ما بمعرفة خالصة

لوجب أن نتخلص من الجسد، ولزم على الروح أن تشهد بجوهرها جواهر الأشياء جميعًا»[1].

هذه النقطة بالتحديد تقع حدًّا فاصلاً فى الفلسفة السقراطية، إذ لولا قناعته بخلود الروح لما قبل الرضوخ لحكم ظالم... وهذا يفسر لنا السر الذى لم يفهمه مؤرخوا وناقدوا سقراط عبر العصور، الذين اتهموه بالتقصير فى دفاعه، وبأنه أعدم نفسه... فلو أحسنوا فهم تلك النقطة لاستطاعوا حل الكثير من المعضلات... لأن سقراط لم يكن جزعًا من الموت، ومن ثمَّ فلن يهتم بإدانة أحد، لن يرد الشر بالشر، لن يتحدث حديثًا يستدر به المشاعر ويُهيج فيه القلوب، لن يتحدث بغير المنطق... الحجة العقلية... حتى ولو أفضى به ذلك إلى الموت، فأكرم به من غائبٍ منتظر.

إنه يؤكد للحضور قصة الخلود فى اليوم الأخير من حياته، يحدث سيبيس

- وإذن فما دمنا قد رأينا أن الخالد لا يناله التخريب، أفلا يلزم أن تكون الروح مستعصية على الفناء كذلك ما دامت خالدة؟

- سيبيس: بكل تأكيد.

- سقراط: إذن فحين يهاجم الموت إنسانًا، فقد يتعرض الجزء الفانى منه للموت، وأما الخالد فينأى عن طريق الموت حيث يُحفظ سليمًا.

- سيبيس: حقًا.

- سقراط: إذن يا سيبيس فالروح خالدة بغير شك، هى مستعصية على الفناء، وستحيا أرواحنا حقًا فى عالمٍ آخر»[2] ..

(1) أفلاطون، محاورات أفلاطون، ص127.

(2) أفلاطون، نفسه، ص194.

ولأن الروح خالدة فمصيرها سيكون بحسب ما قدمته فى حياتها الدنيا، إذ يتحدث سقراط عن العالم الآخر، حيث صعود الروح وبقائها، وحيث تعذّرها عن الفناء، وحيث ترحل أرواح الأخيار فى نعيم، وأرواح الفجار فى سجين، وما أدراك ما سجين، جزاءً للقتلة ومصيرًا لكل من سلب النفس الإنسانية الحياة، لندعه إذن يقص علينا من ذاك النبأ .. «تلك هى طبيعة العالم الآخر، فلا يكاد الموتى يصلون إلى حيث شياطينهم وحداناً حتى يُقضى فى أمرهم بادئ ذى بدء إن كانوا أنفقوا الحياة فى الخير والتقوى أم لا، فمن ظهر منهم أن حياتهم لم تكن لا إلى الخير ولا إلى الشر، فإنهم يذهبون إلى نهر أشيرون ويركبون ما يصادفونه من وسائل النقل، فيُحملون فيها إلى البحيرة حيث يقيمون ويُطهرون من أوزارهم ويعانون جزاء ما أساءوا به للناس من أخطاء، ثم يُغفر لهم وينالون جزاءً وفاقًا بما قدمت أيديهم من خير، أما أولئك الذين لا يُرجى لهم إصلاح فيما يبدو لفداحة جرمهم، أولئك الذين أوتوا من الآثام المنكرة شيئاً كثيرًا كتدنيس المعابد وإزهاق الأنفس إزهاقًا خبيثًا عنيفًا أو ما أشبه ذلك، أولئك يلقى بهم فى جهنم لا يخرجون منها أبدًا، فهى لهم أنسب مصير، أما هؤلاء الذين أجرموا إجرامًا لا يجل عن العفو على هوله، أولئك الذين قسوا على والد أو والدة مثلاً وهم فى سورة من الغضب ثم أخذهم الندم مدى ما بقى من حياتهم أو الذين قتلوا مدفوعين بظروف تُخفف من جرمهم، هؤلاء لا يلقون فى جهنم ولزام عليهم أن يُصلوا عذابها حولاً، وفى نهايته تقذف بهم الموجة، أما قاتل النفس فتقذف به إلى مجرى نهر كوكيتس، وأما قتلة الآباء والأمهات فإلى نهر بيرفليجيثون فيُحملون إلى بحيرة أشيروزيا حيث يرفعون عقائرهم صائحين بضحاياهم القتلى، أو بمن نالتهم منهم إساءة، عسى أن تأخذهم بهم رحمة فيتقبلوهم ويسمحوا

لهم بالخروج من النهر إلى البحيرة، فإن نالتهم الرحمة من أولئك خرجوا ونجوا من عذابهم، وإن لم يرحموهم حُملوا إلى جهنم مرة أخرى ومنها إلى الأنهار، وهكذا دواليك حتى يظفروا ممن أساءوا إليهم بالرأفة، فكهذا قضى عليهم قضاتهم، أما من امتازت حياتهم بالتقوى فأولئك يُطلق سراحهم من هذا السجن الأرضى فينطلقون إلى عليين حيث يقيمون فى مقامهم الطاهر ويعيشون على تلك الأرض وهى أنقى... وأما أولئك الذين طهروا أنفسهم حقًا بالفلسفة فهم يعيشون منذ الآن متحللين من أجسادهم فى منازل أجمل من تلك، يعجز عنها الوصف ويضيق الوقت أن أحدثكم عنها»[1].

هذا هو آخر حديث أدلى به سقراط... تلك هى كلماته الأخيرة... خلود الروح مصير المحسنين إلى بنى البشر المقيمين للمبادئ الإنسانية، ومصير الأشرار الذين يقتلون ويعقون الآباء والأمهات... إنها ذات التعاليم الإلهية التى نبعت فى قلب كونفوشيوس وبوذا فى ذات عصر سقراط... ثم هى ذات التعاليم السماوية التى أكدها عيسى بعد هذا الزمن بما يقرب من أربعمائة سنة، ثم هى نفس التعاليم الإنسانية التى أكدها رسول الإسلام محمد ﷺ بعد عيسى بخمسمائة سنة تقريبًا... لتؤكد تلك الأقوال فى مجملها أن الإنسان هو محور إهتمامات الفلسفات الراقية والشرائع الوضعية العادلة والرسالات السماوية، كلها تؤكد قيم الحياة والوجود الإنسانى... تحمى حياة الإنسان وتزود عنه أعداء الحياة بكل ما أوتيت من قوة... من تلك التعاليم كانت أحد أوجه ملائكية سقراط... بالمثل تمامًا كما كانت تلك التعاليم فيما بعد تمثل أعظم وصايا السماء.

(1) المصدر السابق، ص202 وما بعدها.

الفصل الثالث

أبكتيتوس...

«ستظل الفضيلة معراجًا للنفس الإنسانية».

تموج النفس سيرًا... تبحث يُمنة ويسرة... تُنقب عن إنسانيي البشر... تلتقط سيرتهم... تبحث عما كان يجيش بصدروهم... تحاول أن تثبت للدنيا كلها أن الإنسانيين لن يفنوا أبدًا من موازين الأرض حتى تغدو لا أرض... فالملائكيون وحدهم هم عدالة السماء للأرض... هم الجاذبية الأرضية... لأجلهم تشرق الشمس وتغرب ويضئ القمر ظلمات الليل... يغدو ويروح مسبحًا بحمد ربه... ترصَّع السماء بالنجوم... تمتلئ الأرض بخيرات تكفى عشرات أضعاف سكانها... كل ذلك بفضل إحسان الملائكيون، بفضل سمو نفوسهم، وطهارة قلوبهم...

وما أكثر الذين وفدوا على كوكب الأرض بقلوب ملائكية... لم يحصهم القلم... ولن يغرب عنهم التاريخ... ففى أقصى الغرب... حيث اندثار

الحضـارة اليونانية وبـزوغ فجـر الإمبراطورية الرومانية، يؤسـس زينون الكيتومى (334: 162 ق.م) مدرسـة فى الرواق يطلق عليها اسـم «المدرسـة الرواقيـة»... وقد تطورت تلك المدرسـة على مر الزمـان وعمَّرت طويلاً فى بلاد الرومان، حتى إغلاق المدارس الفلسـفية على يد الإمبراطور جيستنيان عـام 529م، حيث تعاقب عليهـا الكثير من المفكريـن فى مختلف العصور، لـذا فإن المؤرخين يقسـمونها إلى ثلاثة عصور، أولهـا الرواقية القديمة وتمتد مـن 322 إلى 204 ق.م وأهـم أقطابهـا زينون وكليانتس وكروسـبوس... ثم الرواقيـة الوسـطى وتسرى عبر القرنـين الثانى والأول قبـل الميلاد وزعمائها هم فنايطـوس وبوتيوس وبوزيدونيوس، وهى ذات آراء مشـتتة تقترب من مذهبَّى أفلاطون وآرسـطو، ثم الرواقية الحديثـة وتمتد من القرن الأول بعد الميـلاد وتظـل قائمة حتى إغـلاق المدارس وأهـم أقطابها، بـل وأهم أقطاب الرواقية عبر تاريخهـا أبكتيتوس وماركوس أوريليـوس[1] وهما الملائكيان اللذان وقع عليهما اختيارى.

وترجـع أهمية الفلسـفة الرواقية مـن الناحية الإنسـانية إلى دعوتهم إلى الوحـدة بين جميـع أبناء الجنس البشرى، بل والوحدة بين الله والإنسـان على أسـاس فيزيائى، ذالكم المبـدأ الذى ينادى بوحدانية الكـون، حيث جوهر واحـد فقط، طبيعة واحدة، أساسًـا لـكل الظواهر أيًا كانـت، كان مبدءًا ماديًـا، فالآلهة والعقول البشريـة، بل العواطف وخصائص الأشـياء كانت كلها «أجسـامنا»، كلها أشـياء جسـمانية أو مادية، ولكنـه كان فى الوقت

(1) د.عثمان أمين، الفلسفة الرواقية، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971م، ص45.

ذاته مبدءًا عقلانيًا، وكثيرًا ما كان يُشار إلى «الطبيعة الواحدة» باسم الإله، وكثيرًا ما كان يعنى بها «العقل» وعليه فإنه بالرغم من أن كل شيء موجود، فمن المؤكد أنه مادى، وتاليًا يصبح من المسلَّم به أن كل شيء يحدث يوجهه عقل مدبر[1]، ومن هنا تنشأ الوحدة بين الله والبشر، بين السماء والأرض.

من هذه الوحدة الإلهية البشرية، يستقى الرواقيون مبادئ وحدتهم البشرية، فكل أبناء الجنس البشرى أسرة واحدة، وكل إنسان قد أسندت إليه الطبيعة دوره الخاص به فى مسرحية الوجود، دومًا جعله على صلة بغيره من الناس، تلك هى أبرز نقطة تميز الرواقيين خاصة أن مثل تلك الدعوة لم تكن معهودة ذى قبل، بل لقد شيد أفلاطون وآرسطو مذهبيهما على أساس سمو وسيادة الشعب اليونانى على البرابرة وسمو السيد بالطبيعة على العبد، وتاليًا لم يكن هناك مثل هذا الفكر الجديد الثائر على العنصرية القديمة المستشرية فى العقول اليونانية، اللهم إلا شذرات عند الكلبيين، والتى تختلف عنها الرؤية الرواقية اختلافًا كبيرًا... دعوة الكلبين لم تتجاوز النظر، بل غالى فيها ديوجين كثيرًا... أما الرواقية فقد تعدت النظر إلى العمل وأثرت فى القانون الرومانى، وتجاوز تأثيرها حتى وصل إلى الفلسفة المسيحية فى نظرة القديس أوغسطين إلى الوحدة فى مدينة الله، وظل تأثيرها ساريًا حتى العصر الحديث... هذا التأثير ليس تأثيرًا بالمعنى اللغوى المحض للكلمة بقدر ما هو تعبير عن نقاء الفطرة لبعض البشر، عن صفاء السريرة وكرم النفس[2].

(1) ريكس وورنر، فلاسفة الإغريق، ص207.

(2) انظر كتابنا، المقاومة فى الفكر السياسى من النظرية إلى التطبيق، ابن النديم للطباعة و النشر، بيروت، 2016م، ص280.

أضـف إلى تلك النظرة السـامية إلى بنى البشر، نظرة أخرى لا تقل سـموًا عنها، تتمثل فى إيمـان الحكيم الرواقى بأن كل شىء قد قررته الطبيعة، وتاليًا فحدوثـه على نحو ما حدث لا مفر منه، ومن ثمَّ فإن قبول كل ما يحدث هو الوضع العقلى الوحيد، فالسخط والأسف والخوف والأمل والقلق، كل هذه مشـاعر حمقاء ليس لها ما يبررها، لأنها كلها قائمة على الفكرة الخاطئة وهى أن السبيل الفعلى للأحداث يمكن أو كان من الممكن أن يكون شيئًا آخر غير مـا هو عليه، أو ما كان عليه، أو ما سـيكون عليه، وليس لدى الحكيم بحق من شىء يفعله سوى أن يستسلم هو نفسه لما يمكن أن يأتى به القدر... وهذا يقود النفس إلى الراحة والإطمئنان وهو مبدأ ملائكى محض.

❐❐❐

فى مدينـة تُدعـى هيرابوليـس من أعمال فيرجينيا بآسـيا الصغـرى، يولد إبكتيتـوس، وقد اختلف المؤرخون حول تاريـخ مولده وإن كانت الرواية الأرجح أنه ولد عام 50م وتوفى عام 138م، وكانت أمه جارية، ولذا فقد اتُخذ عبـدًا منـذ ولادته، ولم تُتح له فرصـة للتعليم حيث كان ينتقل من سـيد إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى، حتى وجد نفسه مملوكًا لمعتوق آخر من العبودية يُدعـى «أبافروديتوس» كان عبـدًا لدى الإمبراطور نـيرون فأعتقه واتخذه وزيرًا له[1].

وبعد أن عتُق أبكتيتوس انتقل إلى روما وعاش حرًّا فى منزل صغير متهدم لم يكن له باب ولا أثاث سوى النذر اليسير، إذ لم يتجاوز ذاك الأثاث سوى

(1) د. طارق عبد المحسن، الفلسفة العملية عند أبكتيتوس الرواقى، المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 2015م المقدمة للدكتور مصطفى النشار، ص8.

مائـدة وحصـيرة ومصباح مـن الحديد سُرق منـه مع الوقت فاسـتعاض عنه بمصبـاح من الطين... وعاش هذه الحياة البسـيطة لا يألـو على شيء ولا يألو عليه شيء إلى أن وجد طفلاً ضائعًا فأخذه ليعوله واستخدم لذلك امرأة فقيرة للعناية بهذا الطفل[1].

وبعـد أن طرد الإمبراطور جسـتنيان الفلاسـفة من روما عـام 89م كان أبكتيتوس فيمن لحقهم الطرد، فاتجـه إلى مدينة نيقوبوليس فى إيبروس ببلاد اليونان، ويُرجح أنه افتتح بها مدرسـة يرسـخ فيها للتعاليـم الرواقية، حيث التف حوله الشـباب من أبناء الطبقة الأرسـتقراطية الرومانية ليستمعوا إلى دروسه، وقد علا شأنه لدى رجال البلاط فى روما حتى قصده الناس للشفاعة عند الحكام لمكانته منهم[2].

ويُعد أبكتيتوس من أهم فلاسـفة الرواقية الذين أسسـوا لها فى عصرها المتأخر، وهو من بين الرواقيين أشبههم بسقراط، فهو مثل سقراط لم يكتب شـيئاً، وقد أراد تلميذه «آريانوس» أن يحفظ للأجيال ذكرى الأسـتاذ، فنشر بعد وفاته بقليل كتابًا أسـماه «محادثات أبكتيتوس» جمع فيه طرفًا من أقوال الأسـتاذ كما كتبها عند سـماعها، ونشر الكتاب فى ثمانية أبواب لم يتبق منها سـوى الأربعة الأولى منها، فعاد وكتب عن «حيـاة أبكتيتوس وموته» وهو كتاب مـن اثنى عشر بابًا، ولكن الكتاب ضاع كله، ونشر كتابًا ثالثًا اسـمه «المختصر» أجمل فيه فلسفة الأستاذ العملية إجمالاً قويًا[3].

(1) نفسه ص8.
(2) نفسه ص9.
(3) د. عثمان أمين، الرواقية، ص244.

لقد قام أريانوس بدور أفلاطون بالنسبة لسقراط، ثم أنه مثل سقراط فى النموذج الكامل للحياة الإنسانية حيث كانت حياته مرآة لفلسفته، فلم يكن يقول إلا ما يفعل، ولم يكن فى حياته شيئاً متناقضًا مع تعاليمه، فإن نادى بثبات الحكيم فهو أول من يثبت و يصبر إزاء الشدائد، و إن نادى بالخضوع لتصاريف القدر فهو أول من يصبر على كل ما يفعله القدر، سواء حط من قدره ليكون عبدًا أو رفعه عاليًا حتى يكون زعيمًا للمدرسة الرواقية، إنه فى كلتا الحالتين ذاك الرجل الثابت ثبات الجبل أمام قدره، فلا يتمرد عليه، ولا يعلن رفضه له، إنه الحكيم على الأصالة كما كان سقراط سواءً بسواء، فليس من قبيل المصادفة إذن أن نجد فيما كُتب عنه تقديره الشديد لسقراط واعتباره مثلاً أعلى للحكمة والقدوة المثلى للحكيم الرواقى[1].

ثمة تشابه آخر بين الملائكيين، سقراط وأبكتيتوس، ذلك أن غاية الفلسفة عند أبكتيتوس كما هو عند سقراط لم تكن البحث عن العلل الأولى للوجود، بل كانت عنايتها إصلاح الأخلاق وتزكية الأرواح التى هى فى نظره قبس من نور الله، تتجلى تلك التزكية وذاك الإصلاح فى نقطتين جوهريتين فى فلسفته تمثل الأولى حرية النفس وتحرير الإرادة، وتمثل الثانية الدعوة إلى الوحدة بين بنى البشر.

□□□

يبحث أبكتيتوس عن السمو الكامل للنفس الإنسانية... عن كمالها المطلق... والذى لن يكون أبدًا بغير حرية النفس من الرغبات، وخلاصها

(1) د. طارق عبد المحسن، المرجع السابق، المقدمة للدكتور مصطفى النشار، ص7.

من الأهواء البشريـة، وحرية مطلقة للإرادة، والرضا الكامل بالقدر، إذ أن كل ما يحدث للإنسان هو خير من حيث لا يدرى.

يدافع أبكتيتوس عن الحرية... حرية النفس من كل العلائق.. «لو كنا واهمين إذ نصدق كلام أسـاتذتنا بأننا لا نملك إلا حريتنا وأنه لا شيء غيرها يهمنا، إذن لكنت أول المرجين بذلك الوهم»[1].

لا شيء يحد تلك الحرية أبدًا، ما يجزع النفس أو يؤلمها ليس أبدًا مما يسلب تلك الحرية، لأن النفـس لا تجزع لشيء ولا تتألم لشيء، إنها محض ملائكية تعيـش فى وفاق مع الطبيعة... هذا ما يؤكده أبكتيتوس على الدوام... «يجب لى أن أمـوت، فهل ينبغى علىَّ إذن أن أموت وأنـا ضجر أيضًا، يجب أن أكبَّل بالأغـلال وأنوح أيضًا!! يجـب أن أذهب إلى المنفى، هل يمنعنى أى شـخص إذن من التوجه إليه بابتسـامة وسرور وصفاء؟ «بُح لى بأسرارك»... ما الذى تقوله يا رجل؟... تكبلنى؟! ستكبل رجلى، ولكن بالنسبة لهدفى الأخلاقى فلا يقوى حتى زيوس نفسه على أن يتغلَّب عليه! «إننى سأزج بك فى السجن»... بالأحرى، جسـمى الحقير... «إننى سأضرب عنقك»... حسنًا، متى قلت لك قـط أن عنقى هو العنـق الوحيد الذى لا يُمكن أن يُفصل؟ هذه هى الدروس التـى يجب عـلى الفلاسـفة أن يرددوهـا، هذه هى الـدروس التـى يجب أن يسجلوها يوميًا، فعلى هذه يجب أن يدربوا أنفسهم»[2].

فالحريـة تتمثل فى خلاص النفس خلاصًا تامًا من رغباتها وشـهواتها، من آفاتها وآثامها، من الرغبة والرهبة، من الرغبة فى الحياة ذاتها، ومن الرهبة من

(1) نقلًا عن د. عثمان أمين، المرجع السابق، ص247.
(2) ريكس وورنر، المرجع السابق، ص215 وما بعدها.

الموت ذاته، لقد سأل أبكتيتوس أحد تلاميذه: «أيستطيع أحد أن يُكرهك على تصديق ما ليس بصدق؟ قال: يستطيع ذلك إذا هددنى بالموت أو الحبس، قال: فإذا لم تبال أنت بالموت أو الحبس، أيستطيع إكراهك بمثل ذلك الوعيد؟ قال: لا، قال: أفلا تستطيع أن تحتقر الموت؟ قال: بلى، فقال أبكتيتوس: أنت حينئذٍ حر»[1].

قد يظن البعض أن تلك فلسفة سلبية، لا تعبأ بالموت، ومن لا يعبأ بالموت لا يعبأ بالحياة... ولكنها ليست كذلك أبدًا... هذا فهم مغلوط... إنها تمثل قمة حرية الإرادة، قمة التحرر من كل ما يخيف النفس ويقلقها، حتى لو كان هو الموت... فليتحرر إذن من الموت ذاته، لأنه لا يمثل شيئًا بالنسبة للحكيم، حتى يمكنه التخلص من كل أهواء النفس ومخاوفها، يقول أبكتيتوس: «يمكنك ألا تُقهر إذا لم تدخل مطلقًا فى نزاع يكون النصر فيه ليس تحت سيطرتك، فعندما ترى شخصًا ما يفضُلك فى الإحترام، أو يكون مالكًا لسلطة أعلى منك أو متمتعًا من نواح أخرى بسمعة، فاحذر خشية ومخافة أن ينقلك الإنطباع الخارجى بعيداً - فى أى وقت - وتحسبه سعيدًا، لأنه إذا كانت الطبيعة الحقيقية للخير تكون فى أحد الأشياء التى هى تحت سيطرتنا، فلن يكون هناك مكان للحسد أو لغيره، ولن ترغب أنت نفسك فى أن تصبح بريتور أو سيناتور أو قنصلاً، بل سترغب فى أن تكون إنسانًا حرًا، الآن لا يوجد سوى طريق واحد يقود لهذا، هو أن تحتقر الأشياء التى لا تقع تحت سيطرتنا»[2]... التحرر من الأشياء ذاتها... من أى رغبة فى أى

(1) نقلًا عن د. عثمان أمين، ص246.

(2) أبكتيتوس، المختصر، الترجمة العربية ضمن كتاب الفلسفة العملية عند ابكتيتوس الرواقى، ص202.

شيء، وهو ما يؤكده فى نصٍ آخر.. «ألا يمكن أن تكون رغبتى إذن فى طلب الصحة؟ كلا، على الإطلاق، ولا فى طلب أى شيء غيرها لا يخصكم، لأن ذلك الشيء الذى ليس فى استطاعتكم أن تحصلوا عليه أو تحتفظوا به ليس شيئًا يخصكم، ابتعدوا عنه، لا تكفوا أيديكم عنه فحسب، بل قبل كل شيء كفوا عن رغبتكم فيه، وإلا جررتم أنفسكم إلى العبودية وأحنيتم رقابكم للأعباء»[1].

هذا التحرر من الخضوع للأعباء أو لسطوة الأشياء لن يكون إلا بتوافر إرادة حرة لأجل أن يكون الإنسان سيد مصيره، متحكم فى إرادته، متخلص من كافة المشاعر أيًا كانت... ويعقب وورنر على هذا المبدأ بالقول: «ورغم قسوة هذا المبدأ إلا أنه اقترن بتسامح عجيب لهفوات الغير، وفى حالته الشخصية كانت مقرونة لديه بمرحٍ طيب رغم حزنه وغمه»[2].

حرية الإرادة الداخلية للنفس الإنسانية هى التى تمنحها التحرر الخارجى من كل شيء... «لا يستطيع فرد أن يُرغمكم على أن توافقوا على ما هو زيف، أليس كذلك؟... لا أحد... حسن، إذن فى نطاق الموافقة، أنتم أحرار مما يعوقكم ومن الإحجام - هذا أمر مُسلَّم به - تعالوا، هل يستطيع أى فرد أن يُرغمكم على أن تختاروا شيئًا لا تريدونه؟.. يمكنه، لأنه عندما يهددنى بالموت أو أن أُكبل بالأغلال، يرغمنى على أن أختار، ومع ذلك... لو أنكم استخففتم بالموت والأغلال، هل تعيرونه أدنى اهتمام بعد ذلك؟ كلا، هل هو إذن واجب من واجباتكم أن تستخفوا بالموت،

(1) نقلًا عن ريكس وورنر، المرجع السابق، ص223.
(2) نفسه، ص212.

أم أنه ليس واجبًا من واجباتكم؟ إنه واجبى، إذن فمن واجبكم الشخصى أن تختاروا»[1].

□□□

أخـذ معـنى الحرية منحنى آخـر لدى أبكتيتـوس، إذ تطـرق إلى واجب النفـس فى الإيمـان بالقدر حتـى لا تنزعج مـن أحداث الحيـاة مهما كانت، وحتـى لا تتأثر بالنوازل مهـما كان حجمها... هذا الرضـا مبعث لإطمئنان النفس وهدوئها... إنه قد يصل بالإنسان إلى مرتبة الآلهة... «ولكن عليك لو بقيت وحدك أن تسمى ذلك راحة بال وحرية، وأن تتطلع إلى نفسك كما لو كنت على شـاكلة الآلهة... و إذا كنـت فى صحبة زمرة من الناس، فلا ينبغى لـك أن تدعو تلك الزمرة دهماء ولا ضوضاء، ولا شـيئًا يثير التقزز، بل ادعها وليمة واحتفالاً، ومن ثمَّ تقبَّل كل الأشياء فى رضا»[2].

ثـم يوضح تمـام الرضا بمُر القـدر... «لا تقـل مطلقًا عـن أى شىء «إننى فقدتـه» بـل قل فقط «إننى رددتـه»، هل مات ابنك؟ لقـد رددته، هل ماتت زوجتـك؟ لقد رددتها... «لقد سُـلبت منى مزرعتى» حسـنًا جدًا، هذه أيضًا قـد رُدت وأعيـدت - غـير أن الوغد الوضيع هو من سـلبها - لكن ما شـأنك أنت بالوسيلة التى استدعى بها الواهب عطيته وهبته؟ ما دام قد وهبك إياها فحافـظ عليها كالشىء الذى لا يخصك، مثلما يتعامل المسـافر مع نُزله الذى ينزل فيه لفترة»[3]... بل إنه على المسـتوى الشـخصى... مسـتوى الجسد يقبل

(1) نقلًا عن ريكس وورنر، المرجع نفسه، ص222.
(2) نقلًا عن وورنر، المرجع نفسه، ص218.
(3) المختصر، أبكتيتوس، الترجمة العربية، ص200.

كل ما يحدث له... «واأسفاه... أن تصيح إحدى قدميَّ عرجاء... أيها العبد، أمن أجل قدم مصابة إذن تلوم القدر؟ ألا تعبترها هدية خالصة فى المجموع؟ ألا تسلم بها؟ ألا تستسلم فى غبطة لما جاد به المعطى؟ وهل ستكون ضجرًا وبرمًا بقوانين زيوس التى حددها ورتبها مع الأقدار التى حاكت فى حضرته خيوط مصيرك؟ ألا تعلم مدى ضآلتك إذا ما قورنت بالمجموع؟ هذا فيما يختص بالجسم، أما فيما يتصل بالعقل فأنت لست دون الآلهة، ولا أقل منها لأن عظمة العقل لا يحددها لا طول ولا ارتفاع بل أحكام إرادته»[1].

تلك هى أخلاق النفس الإنسانية التى يؤكدها أبكتيتوس... يُصر عليها... حرية الإرادة... حرية النفس من أهوائها... الرضا بالقدر مهما كان، حتى تخلص النفس من كافة مخاوفها وتتحرر من كل مسببات الألم... لذا نراه مخاطبًا تلك النفس بقوله: «أرونى شخصًا رغم مرضه فهو سعيد، وبرغم أنه قد حُكم عليه بالنفى فهو سعيد، وبرغم أنه فى خطر فهو سعيد، وبرغم أنه يموت فهو سعيد، وبرغم أنه سئ السمعة فهو سعيد، أرونيه! بحق الآلهة إننى لأتوق إلى رؤية رواقى»[2].

وإذا ما حققت النفس تلك الأخلاق الذاتية انتقل خيرها إلى بنى البشر لتأتى أعظم ثمرة من ثمار حرية الإرادة وتحرير النفس ممثلة فى الدعوة إلى الإخاء والوحدة بين بنى البشر.

❐❐❐

لم يكن أبكتيتوس أول الداعين إلى الوحدة العالمية على أسس طبيعية

(1) نقلًا عن ريكس وورنر، المرجع السابق، ص219.
(2) المرجع السابق، ص220.

تغذيها فى المقام الأول الوحدة بين الله والبشر... السماء والأرض... الواقعى والمفارق... فقد سبقه كثيرون، كما تبعه أيضًا فى ذات النداء كثيرون، ولكن لهذه المعانى عبق داخل النفس الإنسانية السماوية، كما أن تلك الدعوة هى أحد أهم أوجه ملائكية أبكتيتوس... نعم... تحدث معاصروه من الرواقيين عن الوحدة بين البشر، كما تحدث السابقون عليه أيضًا فى اليونان مثل ديوجينس وفى الفكر الشرقى مثل بوذا وإخناتون وبعض مفكرى الشرق الآخرين، لكن تلك الدعوة كما أسلفت لها أثير... تجذب النفس لأنها دعوة أخلاقية فى الصميم... دعوة إلى السلم والسلام والأمن الذى أنعم الله به على هذا المخلوق الذى تمرد على نعم الله سبحانه، يقول سينيكا: «إننا أعضاء هيئة واحدة عظيمة ومع ذلك لا يخجل الناس من إظهار الفرح إذا ما سفك بعضهم دم بعض، ومن إشعال نار الحرب ومن توريث أبنائنا مزيدًا من الحروب، بينما تعيش الحيوانات الخرساء فى سلام مع أنواعها، أما الإنسان، وهو الشىء المقدس لأخيه الإنسان فإنه يُذبح علنًا»[1].

ذاك هو أثير مثل تلك الدعوات الذى لا يقاوم... أثير محبب إلى النفس... نفى الشر، صد الإعتداءات بالحسنى... الترسيخ للسلام، وهذا كله ما أيده أبكتيتوس فى دعوته، إذ ارتبطت لديه بتسامح لا حدَّ له، تسامح مع الأشخاص ومع المؤسسات، تسامح مع النفس... ومع الجميع، فيقول: «لو أن شخصًا ما نقل إليك كلامًا بأن «فلان وعلان» تحدثا عنك حديثًا سيئًا، فلا تدافع عن نفسك ضد ما قيل، بل لتكن الإجابة «بلى»، هو

(1) دليل بيرنز، المثل السياسية، ترجمة لويس اسكندر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة 1964م، ص93.

لا يعلـم فى الواقـع بقية عيـوبى التى تلازمنى وتلتصق بى، فلـو علم هذه لما اكتفى فقط بما ذكره»[1].

هو تسـامح لا محدود، يضعـه أبكتيتوس كأحد أهم دعائـم الوحدة بين البشر، حيث تبدأ بالتسامح، على مستوى الأفراد أولاً، أولئكم الذين يمجدون إلهًا واحدًا، ويتوجهون بالدعاء إليه سبحانه... «إذا كنتم أيها الناس جمهورًا بليـدًا أعمـى، أفلا يحق أن يقوم مـن بينكم رجل يغنى للجميع أنشـودة الله؟ ومـاذا عسـاى أن أصنع وأنا رجل مسـن أعرج، إلا أن أترنـم وأن أُكبر الله، لـو كنت عندليبًا لقمت بمهنة العندليب، لكـنى كائن عاقل، فينبغى أن أقوم مسـبحًا لله، حامـدًا له أفضاله، تلك مهنتى، وأنا مؤديهـا، ولا أتنحى عنها ما حييت، وأنا أهيب بكم جميعًا أن تغنوا معى أنشودة الله»[2].

مـن تلك العلاقـة بـين السـماء والأرض تولد الوحـدة بين مـن يقطنون الأرض... «إذا كان ما يقوله الفلاسـفة فيما يتعلق بالقرابة بين الإله والناس حقيقيًا، فأى مسـار آخر يبقى للناس سوى ما اتخذه سقراط عندما سُئل: إلى أى الأقطار ينتمى؟ فلم يقل أبدًا (أنا آثينى) أو (أنا كورنيثى)، بل قال: أنا من مواطنى العالم»[3].

إذن هـى وحدة عالمية تقوم على أسـاس الإخاء والمـودة بين البشر جميعًا، إنها أشـبه بالمدينة السماوية التى تحدث عنها أوغسطين فيما بعد... «إن هذه

(1) أبكتيتوس، المختصر، ص211.

(2) نقلًا عن د. عثمان أمين، الفلسفة الرواقية، ص253.

(3) Epictetus: The Discourses withan Enghish, translated by old father (W.A), London: William Heinemann, New York: G.P. Putnams sons, Book(1), chapter IX, p.63.

الدولة السماوية تقبل مواطنيها من كل الأجناس، وتتألف جماعة الحجاج إليها من أناس يتحدثون كل لغة، فهى لا تأبه باختلاف العادات أو القوانين أو نظام الحكم، وبهذا تحقق السلام على الأرض أو تحافظ عليه، وهى لا تلغى هذه الأشياء أو تقض عليها، بل تُبقيها وتسمح باتباعها، لأن هذا الخليط من القبائل المختلفة إنما يتجهون نحو غاية واحدة هى السلام الدنيوى»[1].

إنها دولة أرضية، لكنها تقوم على دعائم سماوية، فقيم الإخاء والمودة والسلام هى من أجَّل القيم السماوية التى يمكن إقامة مدينة عالمية على أسسها، يقول أبكتيتوس: «حينما يتبين الإنسان وجود حكومة عالمية يترابط ويتحد فيها الله مع البشر، تلك التى تشارك فى المجتمع الإلهى بواسطة العقل، فما المانع الذى يجعله يُعد نفسه مواطنًا من مواطنى العالم وإبنًا من أبناء الله، ولماذا يخاف من أى شىء يمكن أن يحدث له بين بنى البشر»[2].

إنها وحدة طالما راودت أحلام الملائكيون وصحوهم... طالما عملوا لأجلها وسعوا لتحقيقها، لكن تبقى المصالح الذاتية والأنانية والتسلطية والديكتاتوريات والإمبرياليات السياسية عقبة كؤود فى وجه الملائكيين ولو إلى حين.

(1) نقلًا عن دليل بيرنز، المثل السياسية، ص95، 94.

(2) Epictetus: Discourses, op.cit.p.158.

الفصل الرابع

ماركوس أوريليوس...

فى ليلة من ليالى الصيف، فى عام 1778م فى إحدى ضواحى فرنسا، يجلس فيلسوف ملائكى اسمه فولتير وسط أبنائه ومريديه وطلابه، يجلسون ليستمعوا إلى الفيلسوف... ليأخذوا الحكمة من معينها الصافى... يتحدث عن الحكومات... يتوجه إليه أحد التلاميذ بسؤال: هل الحكومة الملكية هى أفضل أنواع الحكومات؟ ليجيب فولتير دون تفكير... «شريطة أن يكون ماركوس أوريليوس هو الملك»[1].

فمن يكون ماركوس أوريليوس الذى يريده فولتير ملكًا ويمدحه؟!

ولد أوريليوس فى روما عام 121م ومات أبوه وهو صبى فكفلته أمه وقامت على تربيته إلى أن تبناه الإمبراطور «أنطونينوس» بأمر الإمبراطور «أدريانوس» عام 138م فأصبح ماركوس أوريليوس من أمراء الرومان... ولمَّا توفى «أنطونينوس» عام 161م أصبح أوريليوس إمبراطورًا لبلاد الرومان وهو لم يتجاوز الأربعون من عمره.

(1) ول يورانت، قصة الفلسفة، ترجمة د.محمد فتح الله المشعشع، منشورات مكتبة المعارف، ط4، بيروت، 1979م، ص304.

ويُعد أوريليوس آخر ممثلي الرواقية في العصور القديمة، وعادةً ما يُلقب بـ«الفيلسوف على العرش» ولقد جعله القدر إمبراطورًا فيلسوفًا، فلم ينس واجبات الإمبراطور، كما لم تفارقه لحظة شيمة الفيلسوف، كان رجلاً بسيطًا في مظهره... طيب القلب... حسن السريرة... لم يدَّخر وسعًا في لزوم جانب الحكمة في تفكيره وتصرفاته... وكان يُسلم وجهه لإرادة الله، فلم يقل ما يخالف الحق، ولم يفعل ما ينافي العدل[1].

ولكن الأقدار دومًا ما تثقل الإمتحان على الأصفياء والأنقياء... إذ كان الرجل يتوق إلى السلام... فتُفرض عليه الحرب، فقد امتلأت أيام حكمه بالإضطرابات والفتن، إذ كانت الدولة الرومانية ذاتها مهددة بالغزو، فاضطر الإمبراطور الفيلسوف إلى تعبئة الجيوش وإعداد عدة الحرب، وقام بنفسه على رأس الجيش الروماني الذي سار لصد هجمات البرابرة الذين قدموا من جهة نهر الدانوب، واضطر أيضًا إلى بيع كل ما يملك من حُلي وجواهر ليدفع من ثمنها أجور الجند حتى لا يضطر إلى فرض ضرائب جديدة ولأنه يرفض الحرب كلاً وجزءًا، حتى المسمى... نراه يخلو بنفسه... يلومها... يُسائل ضميره، يبدو له أن كل شيء باطل، وبأن الحرب التي استبسل فيها قليلة الجدوى، عديمة الإنسانية، فاقدة لكل سبل الرحمة والقيم الإنسانوية... يعبر عن كمٍّ لامتناهي من مشاعر الحزن... يسمى قادة الحروب لصوص... يُحملهم المسئولية الأخلاقية عن بناء الإنسان لا هدمه، حياته لا موته، فنراه يقول: «العنكبوت فخور حين يأخذ ذبابة، وهذا الرجل فخور حين يأخذ أرنبًا صغيرًا، وذاك فخور حين يستولي على بلاد غير بلاده، والجميع من حيث المبدأ لصوص»[2].

(1) د. عثمان أمين، الفلسفة الراوقية، ص257.
(2) نقلًا عن د. عثمان أمين، ص256.

وظـل الإمبراطور الفيلسـوف فى حالة من الـصراع لا تُضاهيها حالة... صراع نفـسى وآخر فعلى... لا يقبل الحرب ولكنهـا تُفرض عليه... يتوق إلى السـلام ولا يجد إليه سبيلاً... يشتاق إلى الأخلاق الحسنة فى تمامها فلا يجد إلا سفاسـفها ورذائلها... وظل فى حالة من الصراع بـين الواقع والمثال، الكائن والمفـترض... إلى أن أدركه الموت فى فيينا عـام 180م متأثرًا بمرض الطاعون، دون أن يبلغ سن الستين.

❐❐❐

تقـوم ملائكية أوريليوس على دعامتين رئيسـتين، تمثل الأولى الدعوة إلى التسامح وكمال الأخلاق عبر وصايا تلوذ بالجانب الإنسانى والضمائرى، وتمثل الثانيـة الدعوة إلى الوحدة العالمية... إذ تمثل هاتان الدعامتان محور فلسـفته ومنـاط أمله... ولكنهما ينطلقان من عدة دعائم رئيسـية، لعل أولها يقينه فى وجـود الله سـبحانه ومفارقته لعالمنا وقدرته على كل شىء فيه، فهو سـبحانه سر النظـام ولو لم يوجد إله لكان ثمة فـوضى: «واحدة من اثنتين، إما فوضى واختلاط وتشـتت، و إما وحدة ونظام وعناية، فعلى الفرض الأول لم أرغب فى أن يطول مقامى بين هذا الحشد المدفوع إلى المصادفة والإختلاط؟!!ولماذا أعـنى نفسى بشىء آخر غير تحـول «التراب إلى الـتراب»؟ وفيم يخالج نفسى إضطـراب؟ إن التناثر سـيصيبنى إذن مهما فعلت! وعلى الفـرض الثانى أقدم إجلالى واقفًا ثابتًا لا أتزعزع، متوكلاً على من بيده تصريف الأمور»[1].

ثـم يوجه الأنظـار إلى ذات المعنى... الله موجود، ويعتنى بشـئون البشر فيقـول: «ليكن كل فعـل من أفعالـك... وكل كلمـة... وكل تفكير... هى

(1) نقلًا عن المرجع السابق، ص261.

أفعال وكلمات وتفكير شخص أعدَّ نفسه فى أية لحظة من اللحظات لأن يترك هـذه الحيـاة، لأنه لو كان للإله وجود، فإن تـرك زمالة البشر ليس ورائه من مخاوف، لأن الطبيعة المقدسـة عاجزة عـن أن تزج بك فى الشر، ولكن لو لم يكـن للإله وجود، أو كان له وجود، ولا يُعير اهتمامًا بالبشر، فما الذى يجنى مـن العيش فى كـون لا إله فيه ولا نفس؟ ولكن الله موجـود، ويهتم بأمورنا لأنه قد وضعها كلها فى مقدور الإنسـان ليؤكد أنه لا يتردى فى شىء يُعد شرًا فى الواقع، وإذا كان فى بقية الأشـياء هناك أى شىء له من الشر نصيب، فإن هذا أيضًا لابد وقد تنبأ به الإله وأتاح لنا جميعًا أن نتجنبه»[1].

هذا الإعتقاد بوجود إله يقود النفس إلى حسن العمل وحسن الخلق وتقدير الذات الإلهية وتقديسـها ومراقبتها فى كل فعل... «ليكن اهتمامك الدائم أن تعمـل بحزم ما ينبغى على يـدك أن تفعله بما يليق بأى إنسـان وبأى رومانى، فى عنايـة، وبكرامة خالصة، وبإنسـانية خالصة، ومـع حرية خالصة، ومع عدل خالص، خلص نفسـك من تأثير كافة الأفكار الأخرى، لأنك ستخلص نفسـك لو فعلت كل فعـل كما لو كان آخر فعل لـك فى حياتك، بلا طيش، بلا إنحراف عاطفى عما يمليه العقل، بلا تملق، بلا حب للذات، بلا ثورة على القدر»[2].

هـذه الأخلاق فى مجملها أخلاق المؤمنـين بوجود آلهة... وإلا فما الداعى إلى الصـلاة والنذور حال عدم وجودهم... «إذا صح أن الآلهة لا تهتم بشىء ولا تفكـر فى شىء - ومثل هذا الإعتقـاد زيغ» وضلال - فلنترك إذن الضحايا

(1) ريكس وورنر، المرجع السابق، ص231.
(2) نقلًا عن وورنر، ص229.

والصلـوات والنذور والشـعائر الأخـرى التى نتمثل بهـا فى أذهاننا حضور الآلهة وقربها من حياتنا»[1]...

إذن لا منـاص مـن وجود آلهة، تحدث عنها أوريليـوس بالتوحيد فأثبت وجـود إلـه واحد فى السـماء متحكم فى كل مـا يجرى عـلى الأرض... إذ أن أحداثهـا ينوء بها أى إنسـان... «انتظـر بإطمئنان... إما أن تمـوت، وإما أن تنتقل إلى مكان آخر... وإلى أن تحين السـاعة فماذا عسى أن تكون سيرتك؟ أن تمجـد الآلهة وتحمدهم، وأن تصنع الخير والمعروف، وأن تتحمل وتتزهَّد، وأن تذكر أن جميع ما يقع فى حدود الجسم والحياة ليس ملكًا لك، ولا هو فى مقدور إنسان»[2].

ولأن الله يُقدر على الإنسان كل شىء فعليه أن يستغل كل لحظة فى عمره ويغتنـم الفـرص التـى تمنحها له السـماء... «فكر كم تأخـرت فى فعل هذه الأشياء، كم عدد الأيام التى فتحتها لك السماء السمحاء وتغافلت أنت عنها، واليـوم هو الوقت الـذى تتعلَّم فيه فى النهاية ما هى طبيعة الكون الذى أنت جزء منه، وما هى القوة التى تحكم الكون الذى نشأت أنت منه، لاتنس أنه قد حُدد لك عمرك، فإذا لم تسـتخدمه أنت حتى تصفو نفسك فلن يلبث أن يذهب حالاً، وأنت معه، ولن يعود مرة أخرى»[3]..

هـذه الفكـرة... وجـود الله وتحكمـه فى العالم وسـيطرته عليـه، تؤدى بأوريليـوس مباشرة إلى فكرة تكاد تكـون منبثقة عنها، وهى التذكر الدائم

(1) نقلًا عن. عثمان أمين، الفلسفة الرواقية، ص261 وما بعدها.
(2) نقلًا عن د. عثمان أمين، المرجع نفسه، ص268.
(3) نقلًا عن ريكس وورنر، المرجع السابق، ص229.

للموت، فالموت ضد الحياة... وهو ملك" لله وحده، ليس من حقك أن تسلب حياتك بإرادتك، بل تخضع لإرادة الله فيك «إن الإله هو الذى يقرر متى سينتهى أجلك، إنه هو الذى كان يومًا ما باعثك إلى الوجود، وهو اليوم الذى بيده زوالك، ولكن لا جرم لك فى كلا الأمرين... لا فى الوجود ولا فى الزوال... إذن فارق الدنيا وأنت فى وئام مع الناس، لأن الله الذى يسمح لك بالرحيل عن هذا العالم هو فى وئامٍ معكَ»[1]..

ولأن الحياة حق لله وحده فى وهبها أو سلبها فعلى الحكيم أن يتفكر فى مصيره بعد الموت والذى سيكون مرهونًا حتمًا بما قدمه فى حياته... «سرعان ما يجتاح التغيير والفناء كل الأشياء! فى الكون يفنى جوهر أجسامنا، وفى الوقت المحدد تفنى نفس ذاكرتنا، تطلّع إلى الأشياء ذات الحواس بوجهٍ عام، بصورة خاصة إغراءات البهجة ومخاوف الألم، كل أفكار الزهو والخيلاء كل منهما جميعًا رخيص وحقير، خسيس وفاسد، ميت وعفن! هذه أمور لأولى النهى ليتفكروا فيها وليتساءلوا، على مديح من يعتمدون، وعلى أهواء شهرة من يعتمدون، وليتساءلوا عما بعد الموت، وليتفكروا فى أنه لو أننا نظرنا نظرة واحدة فقط إلى طبيعته، وحللنا الفكرة فى ذاتها وتجردنا من رهبة الموقف التى تكسو تصورنا لاتضح أنها ليست شيئًا سوى وظيفة الطبيعة، وأن هذا أمر لا يخشاه إلا طفل»[2].

ولأن الموت حد كلى لا استثناء منه، فالواجب على الحكيم أن يكون دائم الاستعداد له... «ما أجمل النفس التى تكون مستعدة إذا اقتضى الأمر

(1) نقلًا عن المرجع السابق ص242.
(2) نفسه، ص232.

أن تفارق البدن لساعتها لكى تفنى أو تتناثر أو تبقى بعد البدن! ولكن ليكن ذلك الإستعداد ثمرة لاعتقاد، واقتناع، لا لمجرد الرغبة فى المعارضة ومخالفة المألوف، وليكن إستعدادًا متعقلاً جادًا صادقًا طبيعيًا، خاليًا من الوقفات المصنوعة والأوضاع المسرحية»[1].

وينصح أوريليوس بالتذكر الدائم للموت حتى تحسن أعمال الناس وأخلاقهم فيقول... «إذا تملكك الغضب البالغ والجزع الشديد، تذرَّع بالقول القائل بأن حياة المرء ليست إلا لبرهة، وبعدها سيكون مآلنا جميعًا تحت الثرى»[2] فالموت هو أمر طبيعى جدًا، لا يستحق الجزع أو الخوف.. «الرجل الذى ألف التفكير والتعقل لا يجزع من الموت، ولا يبتئس له، ولا ينفر منه، ولا يزدريه، بل ينتظره كما ينتظر فعلاً من الأفعال الطبيعية»[3].

ومن فكرة الموت إلى فكرة الفطرة أو الطبيعة، تلك التى أقرت مبادئ لا سبيل إلى إنكارها... الحاجة إلى الجماعة... التعاون البشرى... الحياة... الموت... كلها مفاهيم طبيعية أقرتها الطبيعة... إنها نواميس علينا أن نتعايش فى وفاق معها... «والحياة ذاتها حرب، أو إقامة مؤقتة فى بلدٍ غريب، إذن من سيكون دليلنا ورفيقنا وحامينا؟ شىء واحد، وواحد فقط، الفلسفة، والفلسفة الحقة هى ملاحظة الجانب القدسى داخل أنفسنا، والحفاظ عليه مصونًا سالمًا، فوق قوة الألم والبهجة، لا نفعل شيئًا زائفًا، ولا شيئًا فيه تملق، لا نُعير اهتمامًا بما إذا كان إنسان آخر يفعل هذا أو ذاك أو لا يفعله، متقبلين

(1) نقلًا عن د.عثمان أمين، المرجع السابق ص267.
(2) نقلًا عن وورنر، المرجع السابق، ص240.
(3) د. عثمان أمين، ص267.

كل تغيـير، وكل نامـوس، على أنـه آتٍ من ذلك المكان الـذى كان هو مقره الذاتى، و ينتظر دائمًا الموت بإبتهاج، مع إدراك تام بأنه ليس إلا تحللاً للعناصر التـى تتركب منها كل حيـاة، إذ أنه فيما يختص بالعناصر ذاتها، فإنه ليسـت هنـاك كارثة فى أنها تتبدل دائمًا من حالة إلى أخرى، فلم إذن سـنخشى تغييرًا وتحللاً شـاملاً؟ إنها فى تناسـق مع الطبيعة، ولا يمكن لما هو شر أن يكون فى تناسق مع الطبيعة»[1].

والإنسـان السـوى هو الذى يرضخ لإرادة الطبيعة ولا يخـرج عليها، بل يتقبـل كل شىء تقره الطبيعـة... «ما الظلم إلا عدم تقوى، لأننا لو تدبرنا أن الطبيعـة الكونية قد خلقـت كل الكائنات العاقلة لتحقيـق خدمة متبادلة، أعـنى أن تجلب خـيرًا لإخوانها من البشر وفقًا لما يسـتحقونه، وألا تلحق بهم ضررًا فى أيـة حالة من الحالات، فإنه واضح أن الشـخص الذى يخالف إرادة الطبيعة مذنب بإمتهان كرامة أكبر الآلهة، واقتراف نفس الخطيئة إزاء نفس الإله لا يقترفها إلا كاذب»[2].

يخلـص أوريليـوس مـن ذلـك إلى أن الحياة وفقًـا للطبيعة هـى أحد أهم دعائـم الكمال الأخلاقى والوحدة العالميـة، فمن وجود الله إلى تذكر الموت إلى الحيـاة وفقًـا للطبيعة إلى أصول الخـير والشر فى النفس الإنسـانية، كلها تمثـل دعائم الملائكية عنـد أوريليوس، ففى المحطة الأخـيرة يذهب إلى أن النفس هى محط كل شىء ومنبع كل شىء.. «إنهم يبحثون عن أماكن العزلة، و يفتشـون عن الريف، و يرتادون الجبال وشـواطئ البحار، ولكنهم فى هذا

(1) نقلًا عن وورنر، ص234.
(2) نفسه، ص237.

كله يجاوزون الصواب، إذا شئت أن تجد مكانًا منيعًا فاطلبه فى نفسك التى بين جنبيك، فليس فى العالم موضع أهدأ ولا أبعد عن السآمة مما يجد المرء حين يخلو إلى نفسه»[1].

ثم يؤكد ذات المعنى أيضًا بالقول: «لتعلم أن نفسك منبع الخيرات جميعًا، هى منبع لا ينضب على شرط أن تزيده كل يوم تعميقًا»[2].. فالشرور داخلية كما أن الخيرات أيضًا داخلية... كل شىء ينبع من داخلك أنت... من إرادتك... ويا له من مبدأ حق عظيم.

تسجل لنا النصوص التى نقلها إلى العربية ريكس وورنر والمرحوم د. عثمان أمين، فلسفة أخلاقية من طراز رفيع ذات محاور عدة... فأوريليوس يحث على الحياة الأخلاقية الكاملة، إذ لا مناص من الإجتماع البشرى، ومن ثمَّ تفرض الأخلاق والقيم الإنسانية نفسها عن التجمع البشرى الذى يُفرض على البشر، فنراه يقول: «ولا يغيبن عنك أن الناس جميعًا متساوون، وأن لهم من العقل أنصبة متساوية وهم من أجل هذا يحبون الإجتماع، ذلك أن الموجودات كلما إرتفعت فى المنزلة زاد إئتلافها و إنجذابها بعضها إلى بعض، فينبغى على الناس أن يتحابوا وأن يتواصلوا، وهم مندوبون إلى أن يتعاونوا أوثق تعاون فى سبيل العمل الشامل والخير العام»[3].

وتبدأ الأخلاق الحسنة من وجود إرادة نفسية داخلية ذاتية لدى الفرد، إنها الإرادة الحرة التى تقتنع بمبادئ لا يمكن تغييرها... مبادئ تنبع من

(1) نقلًا عن د. عثمان أمين، ص263.
(2) نفسه، ص263.
(3) نقلًا عن د. عثمان أمين، المرجع السابق، ص268.

الـذات... «اتجه أنت بحريتك إلى هذه المدينـة الملجأ، لتخلق من جديد، واغرس داخل نفسـك بضع مبادئ موجزة وأساسـية كتلك التى سـتكفى إذا ما اسـترجعتها، لإزالة كل ألم، وتتيح لك أن تفارق الدنيا فى سـلام، ولا تتذمَّر من الأشـياء التى تعود إليها، لأنه ما هو الشر الذى يُغضبك؟ شرور قبل إنسـانٍ ما؟ تذكر المبـدأ الذى يقول أن كل الكائنـات العاقلة خُلقت مـن أجل بعضها البعض، وأن الإحتـمال والصبر جزء من العدالة، وخطايا الناس ليسـت خطايا الإرادة، فكرَّ كم كثيرون قبلك قد عاشـوا فى عداوة وشـك وكراهيـة ونزاع ثم ماتـوا وانتهى بهم الأمر إلى رمـاد، فكر فى هذا وكن مرتاح البال»[1].

حـين نقرأ هذه النصـوص يُخيل إلينا أننـا نقرأ للسـادة الصوفية فى القرن الخامس والسـادس الهجريين... ويكأن تلك من تلـك... نصوص التصوف الإسلامى الخالصة ذات منابع وجذور عند ماركوس أوريليوس، لا يعنى هذا تأثر التصوف بأوريليوس أو غيره، فقناعتى أن التصوف مبنى إسلامى خالص المنبع والمصب، ولكنه يعنى نقاء الفطرة وتشابه القلوب الملائكية، تلك التى تعفـو وتصفح... تتجاوز مرحلة البشرية وتنعـم بمرحلة الملائكية... يدعو أصحابها على الدوام إلى سـلامة الفطرة وطهارة القلوب ونقاء السريرة، وهذا مـا نلمسـه فى كل نصوص أوريليوس... «لتبق بسـيطًا طيبًـا، نقى السريرة، جادًا، عـدوًا للزهو والجاه، صديقًا للعدل والحكمة، متدينًا، رفيقًا، إنسـانيًا، مستمسـكًا بأداء الواجب... ولتجاهد نفسك لكى تبقى كما أرادتك الفلسفة أن تكون... ولتسـبح الله، ولتكن دائماً فى عـون الناس، فالحياة قصيرة، وثمرة

(1) نقلًا عن ريكس وورنر، ص234 - 235.

وجودك على الأرض أن تصون نفسك مطهَّرة، وأن تفعل ما يعود بالخير على الجماعة»[1].

ويمض الفيلسوف فى تسامحه وكرمه، نازعًا دائمًا إلى فعل الخير لأجل الخير... دون أن ينتظر من الناس اعترافًا بالجميل... وهو يريد أن يكون فعله على حد تعبيره: «كشجرة الكرم تؤتى ثمارها كل عام، ولا تنتظر بعد ذلك إلا حلول الفصل الجديد، لكى تهدى إلى الناس عنقودًا جديدًا»[2].

ولن يتسنى للإنسان الوصول إلى قمة التسامح إلا حال توافر إرادة نقية للذات الإنسانية... وحال قضائها تمامًا على مشاعل الغضب... «وفى غضبك، ليكن الرأى الذى يحضرك دائمًا هو أن الغضب ليس صورة من صور البسالة، بل إن الوداعة والرقة ليسا أكثر إنسانية فحسب، بل أيضًا أكثر شهامة، وإن من يمتلك هاتين الصفتين يمتلك القوة والتحكم فى أعصابه، ويمتلك الشجاعة ولا يمتلكها الشخص الغاضب البرم، لأنه كلما اقترب الصبر من الرزانة، كلما اقترب من القوة، وكما أن الألم خاصة من خصائص الضعف فكذلك الغضب، لأن ضحاياهما قد تلقوا جراحهما واستسلموا لها»[3].

لقد تمثَّلت الأخلاق الرواقية فى حياة أوريليوس خير تمثيل، بل كان هو منبعها ودعامتها الكبرى، فلم يُغيره كرسى الملك ولا صولجانه، بل ظل زاهدًا مؤمنًا بالمبادئ الرواقية الأصيلة، بل زاد تواضعه وحبه للجنس البشرى، وزاد إشفاقة على الناس ونصحه لهم، إنه يدعو إلى التسامح... العفو... التماس

(1) نقلًا عن د. عثمان أمين، المرجع السابق ص264.
(2) نقلًا عن د. عثمان أمين، المرجع السابق، ص264.
(3) نقلًا عن ريكس وورنر، ص241.

الأعذار للمخطئين ذلك أن الرفق ذو أثر قوى فى النفوس، شريطة ألا يشوبه عبوس أو نفاق، وأن الواجب هو النصح بروح الأخوة لا بروح الأستاذ مع التلميذ، فلابد وأن نأتى الخير، وأن نتجاوز عمن يفعل الشر أو يسئ إلينا... «إن الناس إذا كانوا يأتون الشر و يسيئون إلى غيرهم فذلك فى الحقيقة على الرغم منهم، ولأنهم يخطئون فواجب علينا أن نبين لهم خطأهم أو نتحمل إساءتهم»... بل إن الإنسان ذو الأخلاق الراقية يبادل المسئ عطفًا وشفقة وحنانًا... «لو أساء إليك إنسان، ليكن أول تفكير لك هو: بأى مفهوم للخير والشر إقترف هو هذه الإساءة؟ إذا اتضح لك هذا، فإن الدهشة والغضب ستحل محلهما الشفقة، لأنه إذا كان مفهومك عن الخير لازال متوائمًا مع أو مماثلاً لمفهومه، فمن واجبك أن تغفر له، ولكن لو كنت جاوزت المرحلة التى تبدو فيها هذه الأشياء إما خيرًا أو شرًا، فستكون أكثر استعدادًا لأن تُظهر إشفاقك على شخص لا زال فى ظلام»[1].

وتستمر روعة المبادئ الأخلاقية عند أوريليوس عبر نصوصه كلها، إذ يوصى الإنسان بتذكر إنسانيته... تلك المبادئ الراسخة التى تجعله يخفض جناحه لبنى جنسه، بل لكل شيء فى الكون، لنقرأ وصية عجيبة فى التسامح والرفق والمبادئ الإنسانية فى إطلاقها... إنه عن علاقة الجيرة... يقول أوريليوس: «عندما يخطئ جارك فى حقك، فكر أولاً فى علاقتك بالبشرية، آخذاً فى اعتبارك أننا جميعًا خُلقنا ليخدم بعضنا بعضًا... وأن عملك فى الحياة بصورة خاصة هو أن تدافع عن أقرانك من البشر كما يدافع الثور عن قطيعه والكبش عن سربه... مرة أخرى، تناول الموضوع من المبدأ الأول، وهو أنه

(1) نفسه، ص236.

إذا كانت النظرية الذرية باطلة، فالطبيعة يجب أن تكون القوة التى تحكم الكون، وفى هذه الحالة، السئ قد خلق من أجل خير الأفضل، والأفضل من أجل خير بعضه بعضًا.

ثانيًا: تذكر أى سلوك للبشر هو سلوك هؤلاء الآثمين على موائدهم، وفى مضاجعهم وبقية حياتهم، أهم من ذلك كله، تذكر مختلف صور الضغط التى تفرضها عليهم مبادئهم والكبرياء الأحمق الذى توحى لهم به نفس خطاياهم.

ثالثًا: تذكر أنه إذا كانت أفعالهم هذه سليمة، فليس من واجبك أن تستاء منهم، فى حين أنهم إذا كانوا مخطئين، فواضح أنهم يخطئون عن جهل، لا بمحض إرادتهم، لأنه ما دامت أية نفس ليست على استعداد بأن تكون مجردة عن الصدق، فهى ليست على استعداد كذلك لأن تجرد من سلطة معاملة كل فرد وفقًا لمواهبه، ومن ذلك نخلص إلى أنه لا شىء يؤلم المرء أكثر من أن يوصف بأنه ظالم، قاسى... بخيل... أو باختصار بأنه جار سئ.

رابعًا: تذكر أنت أنه كفى ما بك من رذائل شخصية، وأنك آثم مع بقية الآثمين، صحيح أنك تترفع عن أخطاء معينة، ولكن مع ذلك فإن شخصيتك عُرضه للتردى فيها، برغم أن الجبن وحب الشهرة، أو أى دافع حقير مماثل قد ينقذك من اقتراف مثل هذا العمل الفاضح»[1].

هذه الأخلاق لا شك تركت آثارًا غير خافية على فلاسفة الإسلام، بل وعلى العصر الوسيط فى الفكر المسيحى... فالمبادئ الإنسانية ملك

(1) نقلًا عن ريكس وورنر، ص 240-239.

للإنسانية فى كل زمان ومكان، ليست حكرًا على أحد ولن تكون، لكن يبقى أصحابها هم أهل الإحسان... هم أبناء الإنسانية الحقيقيين، هم أهل المبادئ الملائكية... وهم أهل المعروف فى الدنيا و الآخرة.

❐❐❐

كانت تلك الأخلاق والدعامات الإنسانية للمبادئ والقيم الإنسانية أحد أهم وأعظم رافد عند أوريليوس للدعوة إلى وحدة الجنس البشرى، حتى ولو لم يترك نصوصًا صريحة إلى حدٍ كبير فى هذا الإطار، و إذ لم يشرح الآلية والكيفية التى بها تتحقق تلك الوحدة، إلا أنك تكاد تستقرئ ما يريد أن يقوله من بين السطور... ثم تستقرئ ما ينوى عليه و يتمناه من سمو نفسه ورقى أخلاقه... إنه بحد تعبير وورنر: «كما أنه كان يتمنى، لا أن يتحرر فحسب من متاع الحياة الدنيا، بل و يتخلى عنها تخليًا وضعيًا»[1]، لأنها لا تمثل لديه شيء، وهذا جانب كبير من الزهد لدى الفيلسوف الإمبراطور، قاده فى النهاية إلى أخلاق التسامح الراقية كما أسلفنا، ثم إلى الدعوة إلى الوحدة بين جميع أبناء الجنس البشرى، حيث يرتبط أبناؤه بعضهم ببعض برباطٍ مقدس، بحيث يتعاونون و يتسامحون و ينتفع بعضهم من بعض... «إننا قد خلقنا جميعًا لنعمل معًا، كأعضاء جسم واحد، قدمان... يدان... جفنان... أو أسنان علوية وسفلية... وعليه فإن عمل فرد عملاً مضادًا لآخر، فهو مجاف للطبيعة، بل إن هذا هو نفس جوهر الغضب والكراهية»[2].

و يثور أوريليوس ضد الداعين إلى التمييز بين البشر على أسس عنصرية

(1) وورنر، المرجع السابق، ص226.
(2) نفسه، ص228.

وضعية لم تعرف إليها الفطرة السليمة سبيلاً، مذكرًا لهم على الدوام بوحدة المصير والقدر على جميع أبناء الجنس البشرى فيقول لهم... «أنظروا إلى الأشياء التى تحدث والتى تنمو، كيف تحمل وكيف تختفى بسرعة، فالهوة لم تزل فاغرة هنا على مقربة منا، واللامتناهى سواء فى الماضى أو فى المستقبل لا يفتؤ يتربص الدوائر بالأشياء جميعًا، يريد إبتلاعها، أليس بأحمق من يعيش فى وسط هذا كله، ثم تُحدثه نفسه بأن يزهو أو يتكبر و يصخب»[1]... ثم يذكرهم بالأصل الواحد للجميع... لتقتنع النفس أن أى تمييز بين البشر غير عادل... وغير سوى... ولا تقبله العقول القويمة... «الكل سواء... فى الخبرة عاديون... وفى الزمن زائلون... وفى المادة ضنينون، وكل من فى زماننا موجود مثل من كانوا من زمنٍ مضى ووارياهم التراب»[2].

وتقوم الوحدة البشرية التى يريدها أوريليوس ونريدها معه عالمية على أسس المساواة والترابط بين الجميع... فالخلق كلهم عيال الله... - بحد تعبير السيد المسيح - ليطالعنا أوريليوس بالقول: «الأشياء جميعًا متسلسلة.. متشابكة.. وكأنما قد رُبطت برباط مقدس وثيق، ويمكن أن نقول ألا شىء هو غريب عن الأشياء الأخرى، لأنها جميعها قد رتبت معًا، وهى تتعاون على تحقيق ما فى العالم الواحد من حسن نظام، ذلك أن العالم المؤلف من جميع الأشياء واحد، والمادة والكون واحد، والقانون واحد، والعقل الشائع فى جميع الموجودات العاقلة واحد، وكذلك العقيدة واحدة، لأن الحقيقة هى كمال الموجودات التى هى من أسرة واحدة والتى منحت عقلاً واحدًا»[3]...

(1) نقلًا عن د. عثمان أمين، ص251.
(2) نقلًا عن وورنر، ص238.
(3) نقلًا عن د. عثمان أمين، ص260.

وبنـاءً عليه يصيح أوريليوس قائلاً: «إن مدينتى ووطنى هى روما بمقدار ما أنا أنطونيتوس، أما باعتبارى إنسانًا فمدنيتى ووطنى هما العالم»[1]..

تلـك هى أحد أهم أوجه ملائكية وإنسـانية ماركوس أوريليوس... أن غنى نشـيدًا للسـلام العالمى... وضع لبنـة فى البناء المبـارك... إلى أن يأتى كل إنسـان مخلص من أبناء الإنسـانية ويضع لبنة فوق لبنـة، حتى يكتمل النباء، هكذا أراده الله... وهكذا سعى إليه الملائكيون.

(1) M.Aurlius: The Meditation, Trans by , J.coviar, the walter scott publishing, co , LTD, London, 1922, B.II.P.109.

الفصل الخامس

الفارابى...

الإسلام كدين يرسى دعائم الإنسانية ويرسخ لكل ما يؤدى إليها من قولٍ أو فعل، فهو دين التسامح والرحمة والإخاء، الدين الذى دعا أبناء الإنسانية جميعاً إلى الوحدة والتعاون والسلام، دين الرسالة السماوية الإنسانوية، مهما أبى الكذبة والمغرضون وذووا النزعات المشبوهة، إنه دين السلام، دين الأمة الواحدة، ذات الأصول الواحدة، الفارق الوحيد بين بنى البشر عند الله بطهارة القلوب وإخلاصها، وصلاح الأعمال وصفائها، ... ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات: 13]... دين المساواة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [النحل: 90].. دين الموضوعية لا المحسوبية أو الأهواء ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ﴾ [المائدة: 8].

تلك هى التعاليم الإنسانية، قبس من مشكاة الإسلام المضيئة التى لا يبهت نورها أو يخفت ضوئها، تلك الشجرة المباركة الزيتونة التى لم تكن يوماً ما شرقية أو غربية، بل كانت إسلامية العقيدة إنسانية النزعة خالصة الإنسانوية وقيمها النبيلة.

وعلى ضوء تلك القيم خرجت الفلسفة الإسلامية، ابتعدت أحياناً وشطت أحايين بفعل العوامل السياسية، لكن تبقى فيها آثار الإنسانوية، ينبض بروح الملائكية، لا تخفت أو تنطفئ نيرانها المقدسة.

ولعل أبو نصر الفارابي من أعظم أولئك المفكرين الذين استمدوا جذور فكرهم من تلك الشجرة المباركة ذات الأصول الإنسانية والثمرات الملائكية، فأخرج لنا مدينة فاضلة بمثابة مزيج من العقل والدين، النظر والعمل... النص والاجتهاد... إنها مدينة إنسانية إلى حدٍ كبير في العديد من جوانبها، ملائكية إلى حدٍ أكبر في كثيرٍ مما تحمله من قيم.

❐❐❐

ولد أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الشهير بالفارابي حوالى عام 259هـ (872م) بولاية فاراب من بلاد الترك وإليها يُنسب كعادة العلماء والفلاسفة والمؤرخين آنذاك، وقد عاش أبو نصر طفولة تكاد تكون مجهولة بالنسبة للمؤرخين، إلا أن بعض المصادر تؤكد عكوفه منذ الصغر على الدراسة والتحصيل، حيث درس العلوم والفلسفة واللغات المختلفة خاصة التركية والفارسية والعربية واليونانية لدرجة أنه قد أُشيع عنه إجادته لسبعين لغة، وهو ما يخالف كل الحقائق.

وقد عاش أبو نصر الفارابي متنقلاً بين البلدان الإسلامية حتى استقر به المقام في العراق حيث أتم دراساته العلمية والفلسفية واللغوية، ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى ذيع صيته في تلك العلوم كافة لدرجة أنه لُقب بالمعلم الثاني، وإن كان في هذا اللقب مبالغة كبيرة حقاً، كون تراثه يكاد يكون

محـدوداً إلى جوار عمالقة الفكر الإسـلامى الآخريـن، إلا أن لذلك دلالات كثـيرة على مدى جديتـه وأصالته وروعة مـا جاء به من فكـر أثرى الحياة الثقافية فى حياته وعلى مدار العصور التالية.

وكشـأن المفكرين الكبار على الدوام أثيرت حول الفارابى العديد من الإشـكالات والإتهامات، من ذلـك مثلاً ما أثاره البعض من كونه أسـيراً للفكـر اليونانى شرحـاً وتأليفاً، فهو فى المنطق مجرد شـارح لآرسـطو[1]، وفى السياسـة تابـع لأفلاطـون، صاحـب «الجمهورية» التى رسـم فيها معـالم المدينـة المثاليـة، والتى حاكاهـا الفـارابى فى «أراء أهـل المدينة الفاضلة»[2]..

ولا شـك أن هذه النظـرة فيها شىء من الصواب، ولكنهـا لا تمثل الحقيقة كاملـة، فالفارابى حقاً قد تأثر بالفلسـفة اليونانية، بـل إنه يعترف كثيراً بهذا التأثـير ولا يجـد حرجاً فى الشـهادة لتلك الفلسـفة أو الأخـذ عنها صراحة، ويكفـى فى ذلك شـهادته.. «والفلسـفة إنما تـأدت إلينا مـن اليونانيين، عن أفلاطـون، وعن آرسـطو طاليس، وليـس واحد منهما أعطانا الفلسـفة دون أن يعطينـا مع ذلـك الطرق إليها والطرق إلى إنشـائها، متى جادت أو بادت، ونحن نبتدئ أولاً بذكر فلسـفة أفلاطون، ثم نرتب شـيئاً فشـيئاً من فلسفته حتـى نأتى على آخرهـا، ونفعل مثل ذلك فى الفلسـفة التى أعطاناها آرسـطو طاليس، فنبتدئ من أول أجزاء فلسفته فنبين من ذلك أن غرضهما بما أعطياه

(1) ماجد فخرى، تاريخ الفلسفة الإسلامية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، سنة 1974م، ص157.

(2) د. فؤاد شبل، الفكر السياسى، جـ1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1974م، ص243.

غرض واحد، و إنهما إنما التمسا إعطاء فلسفة واحدة بعينها، فلسفة أفلاطون وأجزاؤها ومراتب أجزائها من أولها إلى أخرها»[1].

من هذه الزاوية يكون الفارابى متأثراً إلى حدٍ كبير بالفكر اليونانى خاصة لدى أفلاطون وآرسطو، ولكنه ليس مقلدًا لهما، بل إن الكثير من المؤرخين يرون فيما كتبه الفارابى توفيقاً بين الإسلام واليونان، وهذا ليس فيه أدنى درجات الصواب، بل وجب على أصحاب هذا الإتجاه أن يعيدوا النظر فى أمثال تلك المقولات، إذ كان الفارابى صاحب رؤية فلسفية حتى و إن أعلنها باسم التوفيق فى كتابه الشهير «التوفيق بين رأيى الحكيمين أفلاطون وآرسطو»، فالفارابى لم يكن موفقاً بقدر ما كان مجدداً ومبدعًا ومضيفًا رونقًا خاصًا بعقله وفكره على ما ينقل، يقول د. حسن حنفى: «لقد قام الفارابى بدور حضارى عظيم، فما ظنه المستشرقون ومقلدوهم توفيقاً، قد يكون قمة الفكر بحثًا عن الشامل و إتجاهًا إلى المحور و إعادة التوازن بين أطراف الموقف الفلسفى وتجاوزًا لأحادية الطرف»[2].

ولن يستمر دفاعى طويلاً عن الفارابى فى تلك القضية، إذ أنه بدا متأثراً فى الكثير من الآراء بالفلسفة اليونانية، وهذا مما لا مرية فيه ولا سبيل إلى إنكاره، ولكنه فى ذات الوقت كان مجددًا أكثر منه مقلدًا، مبدعًا أكثر منه ناقلاً، هذا فقط ما أراه يمثل الحقيقة فى هذا الإتهام.

(1) الفارابى، تحصيل السعادة، تقديم وشرح د. على بوملحم، دار الهلال، بيروت، ط1، سنة 1995م، ص86.

(2) د. حسن حنفى، دراسات إسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص169 وما بعدها.

أما على المستوى الإنسانى البنذاتى، فقد عُرف الفارابى بالزهد والتعفف واشتُهر بهما، على الرغم مما أتيح له من طيبات الحياة ورغد العيش فى كنف سيف الدولة الحمدانى، وما أغدقه عليه الأخير من عطايا وهبات وسلطة روحية نافذة فى جنبات الدولة كافة، فلم يعبأ الفارابى بأيٍ من ذلك، بل عاش فى كنف سيف الدولة منقطعًا للدراسة والتأليف مؤثرًا للوحدة والتأمل بعد أن قضى فترة طويلة فى التنقل بين العراق ومصر والشام، إلى أن وافته المنية فى دمشق عام 339هـ (950م) وصلى عليه سيف الدولة الحمدانى مع خمسة عشر من خواصه ودُفن بدمشق[1].

وعلى الرغم مما تمتع به الفارابى من مكانة لدى البلاط آنذاك، إلا أنه آثر التصوف والزهد ومارسه عمليًا، ولعل تلك النظرة تتضح عبر العديد من أقواله منها قوله: «وأما الخشوع فهو أن يقال إن إلهًا يدير العالم، و إن الروحانيين مدبرون مشرفون على جميع الأفعال، واستعمال تعظيم الإله والصلوات والتسابيح والتقاديس، وأن الإنسان إذا فعل هذه وترك كثيرًا من الخيرات المتشوفة فى هذه الحياة، وواظب على ذلك عُوض عن ذلك وكوفئ بخيرات عظيمة يصل إليها بعد موته، و إن هو لم يتمسك بشىء من هذه وأخذ الخيرات فى حياته، عوقب عليها بعد موته بشرور عظيمة ينالها فى الآخرة[2]... وكم تمتلى كتابات الفارابى بأمثال هذه النصوص التى تدل على شخصية زاهدة رغم ما أتيح لها من فرص النعيم واهتبالات الحظوظ.

❐❐❐

(1) د. على عبد الواحد وافى، المدينة الفاضلة للفارابى، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، سنة 1984م، ص16 ومابعدها.

(2) الفارابى، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق مراد وافى، بيروت، سنة 1986م، ص44.

ينظر الفارابى إلى الإنسان النظرة الفلسفية ذات القوام الشرعى والأسس المنطقيـة، كون الإنسـان حيوان اجتماعـى، يحتاج فى حياتـه إلى الآخرين ولا يمكنـه الإسـتغناء عنهم، فالحياة الإنسـانية لا تتم أو تكتمـل إلا فى إطار اجتماعى يتـم بالتعاون بين أفـراده، يقول الفـارابى: «وكل واحد من الناس مفطـور على أنه محتاج فى قوامه وفى أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشـياء كثيرة لا يمكنـه أن يقوم بها كلها وحـده، بل يحتاج إلى قومٍ يقوم له كل واحدٍ منهم بـشىء مما يحتاج إليه، وكل واحدٍ من كل واحـد بهذه الحال، فلذلك لا يمكن أن ينال الإنسان الكمال الذى لأجله جعلت الفطرة الطبيعية إلا باجتماعات جماعـة كثيرة متعاونين يقوم كل واحدٍ ببعـض ما يحتاج إليه فى قوامه، ولهذا كثرت أشـخاص الإنسـان فحصلوا فى المعمـورة مـن الأراضى فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية»[1]..

لأجل هذه الحاجة يتم الاجتماع والتعاون بين أفراد النوع الإنسـانى جلبًا للمصالح ودفعًا للمفاسد كما أقرت بذلك الشريعة الإسلامية، يقول الفارابى: «والإنسـان من الأنواع التـى لا يمكن أن يتم لها الـضرورى من أمورها ولا تنال الأفضل من أحوالها إلا باجتماع جماعات منها كثيرة فى مسـكن واحد، والجماعـات الإنسـانية منها عظمى ومنها وسـطى ومنها صغـرى، والجماعة العظمـى هـى جماعة أمـم كثـيرة تجتمع وتتعـاون، والوسـطى هـى الأمة، والصغرى هى التى تحوزها المدينة»[2].

(1) الفارابى، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص30.

(2) الفارابى، السياسة المدنية، تحقيق على مطعون، الدار البيضاء للنشر، المغرب، 1999م، ص18.

ثـم يميز الفـارابى بـين المجتمعات على أسـاس الكمال والنقـص: «ومنها الكاملـة ومنها غـير الكاملـة، والكاملة ثلاث، عظمى ووسـطى وصغرى، فالعظمـى اجتـماع الجماعـة كلهـا فى المعمـورة، والوسـطى اجتـماع أمة، والصغـرى اجتـماع أهل المدينـة فى جزء من مسـكن أمة، وغـير الكاملة، اجتـماع القريـة وأهل المحلـة، ثم اجتماع فى سـكة ثم فى منـزل، والمحلة والقرية همـا جميعًا لأهل المدينة إلا أن القريـة للمدينة خادمة لها، والمحلة للمدينة على أنها جزؤها، والسكة جزء من المحلة، والمنزل جزء من السكة، والمدينة جزء من مسكن أمة، والأمة جزء جملة أهل المعمورة»[1].

وتقسـيم الفارابى هـذا يدل على أن المجتمعات الكاملة بأقسـامها الثلاث هـى ما يتحقق فيها التعاون الإجتماعى بوجه كامل، كما أن المجتمعات غير الكاملة لا تسـتطيع أن تكفى بنفسها، ومن ثمّ فهى لا تحقق التعاون البشرى بصورة كاملة[2].

وينظـر الفـارابى إلى هـذا التعـاون فى أنضج صوره، فهو يشـبه الجسـد الإنسـانى الذى إذا اشـتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، ومن ثمّ كان قيام هذا المجتمع بمثابة ظاهرة طبيعية وليس شيئًا مصطنعاً يقوم عـلى القهر والغلبة والإسـتبداد، بل هو مجتمع متناسـق يشـبه إلى حدٍ كبير أعضاء البدن الواحد، إلا أن الفارابى يفرق بين تعاون الأعضاء وتعاون البشر قائـلاً: «غير أن الأعضاء، أعضاء البدن طبيعية والهيئات التى لها قوة طبيعية

(1) الفارابى، آراء أهل المدينة الفاضلة ص45.

(2) د. مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2015م، ص185.

وأعضاء المدينة وإن كانوا غير طبيعيين فإن الهيئات والملكات التى يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية، بل إرادية»[1].

ويلاحظ المتعمق فى رؤية الفارابى أنه يقدم النموذج الأتم والأكمل للإجتماع البشرى الذى يقوم على التعاون والتعاضد والإخاء، إنه الاتحاد العالمى أو المدينة العالمية التى تضم أشتات البشر فى منظومةٍ واحدة... «فأما المدينة الجماعية فهى المدينة التى كل واحد من أهلها مطلق مخلى لنفسه يعمل ما يشاء، وأهلها متساوون وتكون سنتهم أن لا فضل لإنسان على إنسان فى شىء أصلاً، ويكون أهلها أحراراً يعملون ما شاءوا، ولا يكون لأحدٍ على أحدٍ منهم ولا من غيرهم سلطان إلا أن يعمل ما تزول به حريتهم، ويكون من يرأسهم إنما يرأسهم بإرادة المرؤسين ويكون رؤساؤهم على هوى المرؤسين، وإذا استقصى أمرهم لم يكن فيهم فى الحقيقة لا رئيس ولا مرؤوس»[2].

تلك هى المدينة العالمية التى تتم من خلال اجتماع العالم كله فى دولة واحدة لها رئيس واحد وحكومة واحدة، وهذا أكمل الإجتماعات البشرية الممكنة[3] أما إذا تعذر إقامة تلك المدينة العالمية فلا سبيل أمامنا إلا انتهاج الطريق الأصعب، المسلك الأشق، مسلك أفضل النظم المحلية وجودًا، حيث المدينة الفاضلة.

❐❐❐

(1) الفارابى، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق ألبير نصرى نادر، بيروت سنة 1959م، ص98.

(2) الفارابى، السياسة المدنية، ص31.

(3) د. مصطفى النشار، المرجع السابق، ص1985.

ينظر الفـارابى إلى المدينة الفاضلـة التى ينبغى أن تسـوس الناس، حياتهم ومعادهم، على أنه النظام الأسـمى حال توفره، تلك المدينة التى تشـبه أعضاء الجسـد البشرى مـن ناحية، ويحكمهـا أعقل وأعظـم أبنائها صفاتًـا وأخلاقًا وحكمة من ناحية أخرى، ومن ثمّ تتولد اهتمامات الفارابى بهذين الجانبين دون غيرهمـا، ليطالعنـا بنصوص عديدة تدور فى هذا الفلـك... «والمدينة الفاضلة تشـبه البدن الصحيح الـذى تتعاون أعضـاءه كلها على تتميم حيـاة الحيوان، وعلى حفظهـا عليه، وكما أن البدن أعضاؤه مختلفـة متفاضلة الفطرة والقوى، ومنهـا واحد رئيس هو القلب وأعضائـه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس، وكل واحـد منها جُعلت فيـه بالطبع قوة يفعل بها فعله ابتغاء لمـا هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيسى، وأعضاء آخر فيها قوة تفعل أفعالها على حسـب أغراض هذه التى ليس بينها وبين الرئيس واسطة، فهذه فى الرتبة الثانية، وأعضاء أخر تفعـل الأفعال على حسـب أغراض هؤلاء الذين هم فى هـذه الرتبة الثانية، ثم هكذا إلى أن تنتهى إلى أعضاء تخدم ولا ترأس أصلاً، كذلك المدينة، أجزاؤها مختلفة الفطرة، متفاضلة الهيئات، وفيها إنسـان هو رئيس وآخر تقرب مراتبها مـن الرئيس، وفى كل واحد منها هيئة وملكة يفعـل بها فعلاً يقتضى به ما هو مقصـود ذلك الرئيـس، وهؤلاء هـم أولـوا المراتـب الأولى، ودون هؤلاء قوم يفعلـون الأفعال على حسـب أغراض هؤلاء، وهؤلاء فى المرتبـة الثانية، ودون هـؤلاء أيضًا مـن يفعل الأفعال على حسـب أغراض هؤلاء، ثـم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهى إلى آخر ما يفعلون أفعالهم على حسـب أغراضهم، فيكون هؤلاء الذين يخدمون ولا يُخدمون، ويكونون فى أدنى المراتب»[1]..

(1) كمال اليازجى، نصوص فلسفية من تراث العرب الفكرى، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، سنة 1968م، ص76.

وقد يظن البعض عن هذا التقسيم العنصرية عند الفارابى كشأن دولة أفلاطون التى يميز فيها بين المواطنين الأحرار، والأجانب، ثم العبيد فى الدرجة الأخيرة، وليس لأحد الحق فى قيم المواطنة سوى المواطنين الأحرار فقط، ولكن هذا التقسيم لم يرد فى بال الفارابى قط، بل يمكن فهمنا لتقسيمه ذاك على أنه تمايز المراتب العقلية بين مواطنى الدولة لا أكثر، فالأكثر عقلاً فى المرتبة الأولى ويليه الأدنى فالأدنى، حتى الوصول إلى أدنى المراتب العقلية، كل ذلك على أساس التمايزات الفكرية والقدرات العقلية لا أكثر، إذ كثيرًا ما نجد تأكيد الفارابى على الناحية الفكرية، خاصة فيما يتعلق بأمر الرئاسة، فالحكمة أحد أهم شرائط الرياسة، ذاك الشرط الذى إن خلت منه الرئاسة لم تكن فاضلة بأى وجه من الوجوه، يقول الفارابى: «متى اتفق فى وقتٍ ما أن لم تكن الحكمة جزء الرئاسة وكانت فيها سائر الشرائط بقيت المدينة الفاضلة بلا ملك، وكان الرئيس القائم بأمر المدينة ليس بملك وكانت المدينة تعرض للهلاك»[1].

وطالما كانت الحكمة جزء من الرئاسة، فالتعاون سمة رئيسية بين أفراد تلك الدولة التى سبق وأن شبهها بأعضاء الجسد الإنسانى، إلا أن الفارابى يعود ليدرك أن أعضاء البدن تؤدى أعمالها بقوى فطرية طبيعية فى حين أن أفراد المدنية وإن كانوا طبيعيين لأنهم من خلق الله، إلا أن القوى التى تهيئهم لأداء وظائفهم قوى إرادية مكتسبة وليست فطرية، ومن هنا يأتى تمايز أدوار البشر فى مدينتهم حيث أن كلاً منهم يتجه بقواه الفطرية وبإرادته المكتسبة نحو أداء العمل الذى يصلح له بحيث يتكامل أداء الأدوار فى المدنية فتصبح مثالية وفاضلة[2].

(1) الفارابى، السياسة المدنية، ص32.
(2) د. مصطفى النشار، المرجع السابق، ص188.

ثمـة ملاحظة أخرى تبرز شـجاعة الفـارابى وعمق رؤيتـه، حيث تقوم الرئاسـة عنده على القدرات المكتسـبة وليس على الوارثـة التى تنقلب ملكًا عضوضًا، بل على مؤهلات الشـخص ذاته الفطرية والمكتسبة على السواء.. «ليس يمكن أن يكون أى إنسان اتفق لأن الرياسة إنما تكون شيئين، أحدهما يكون بالفطرة والطبع معدًا لها، والثانى بالهيئة الإرادية معدًا لها»[1].

وقـد يكون مقصد الفارابى أن الحاكم إما أن يكون بمؤهلاته الروحية نبيًـا، أو بمؤهلاتـه العقليـة فيلسـوفًا على غـرار الحاكم الفيلسـوف عند أفلاطـون، ولعل تلك كانت أعظم أمنيـات الفارابى، إذ يكون الحاكم هو أكمـل أعضاء المدينـة وأفضلهم عقـلاً وأعظمهم رأيًا، وهـذا هو الإتجاه الذى يؤثره الفارابى ويسـير فيه إلى منتهـاه .. «وكما أن العضو الرئيسى فى البدن هو بالطبع أكمل أعضائه وأتمها فى نفسه وفيما يخصه، ودونه أعضاء أخرى رئيسـة لما دونها ورياستها دون رياسـة الأول، وهى تحت رياسة الأول تـرأس وتُرأس، كذلك رئيس المدينة هـو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصه، وله من كل ما شـارك فيه غيره أفضله، ودونه قوم مرؤوسـون منه ويرأسون آخرين»[2].

إنها دولة الإستبداد إذن، ولكنه الإستبداد العقلى والفكرى، حيث يصل الحاكم إلى الحكم بمؤهلاته العقلية لا بمؤهلات الحسـب والنسـب كشأن الخلفـاء المتعاقبـون منذ بدايـات الدولـة الأموية وحتى سـقوط الخلافة الإسـلامية فى تركيا على يد مصطفى كمال أتاتورك، هذا الإستبداد العقلى

(1) كمال اليازجى، المرجع السابق، ص59.
(2) نفس المرجع، ص59.

يتجلى فى كل حرف نطق به الفارابى أو خطه، ولعله يتجلى فى تلك الصفات التـى طالما أكد عليها الفارابى فى شـخص الرئيـس، إذ لابد من اثنتى عشرة خصلة...

أحدها أن يكون تـام الأعضاء، قواها مؤاتية أعضائها على الأعمال التى شأنها أن تكون بها.

أن يكون بالطبع جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له .

أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه و يسمعه.

أن يكون جيد الفطنة ذكيًا .

أن يكون حسن العبارة، محبًا للتعليم والإستفادة، منقادًا له، سهل القبول، لا يؤلمه تعب التعليم، ولا يؤذيه كده .

أن يكـون غير شره عـلى المأكول والمشروب والمنكـوح وأن يكون محبًا للصدق وأهله، مبغضًا للكذب وأهله .

أن يكون كبير النفس محبًا للكرامة.

أن يكون الدرهم والدنيار وسائر أعراض الدنيا هنية عنده .

أن يكـون بالطبع محبًـا للعدل وأهلـه، مبغضاً للجور والظلـم وأهلهما، يعطـى النصفة من أهلـه ومن غيره، و يؤتى من حل به الجـور مؤاتيًا لكل ما يراه حسنًا وجميلاً.

أن يكـون عـدلاً غير صعـب القيـاد، ولا جموحًا ولا لجوجًـا إذا دُعى إلى العدل، بل صعب القياد إذا دُعى إلى الجود و إلى القبيح .

أن يكون قوى العزيمة على الشيء الذى يرى أنه ينبغى أن يُفعل، جسورًا عليه، مقدامًا غير خائف، ولا ضعيف النفس[1].

إنهـا صفات تمثل العقـل والفضيلة معًا، كـما أن أيًا منهـا لم يكن متوفرًا فى الدولة التى ادَّعت الخلافة باسـم الإسـلام ردحًا مـن الزمن، بما يعنى تفوق الفارابى على كل ذى نزعة شريرة أو نفسٍ أمارة بالسوء، وصدوعه بالحق رغم كونه أحـد أرباب البلاط الحاكـم، رغم كونه الظل الـوارف لذاك البلاط، ينعم بحمايته و يستمد قوة من سلطته، إلا أن مآثر العقل لا تزال هى المطلب الرئيس فى عمق كل نفسٍ سامية، وفى يقين كل وجدان متصالح مع نفسه، لا ينافق حاكم، ولا يداهن أمير، بل يصدع بالحق، ويجهر بالموضوعية، فى ضوء مراعاة رقيب واحد، هو الضمير.

ولكـن ما أصعب تلك الصفات حقًا، حيـث لاحظ الفارابى أن اجتماعها فى شخص واحد أمر عسـير ونادر، فإن وجد هذا الشخص الذى يتمتع بتلك المؤهلات العقلية والنفسية والأخلاقية، فهو الرئيس الفاضل دون مرية، أما إذا حالت الأقدار - وكثيرًا ما تحول لحكمة يعملها الله وحده - دون وجوده، أخـذت الشرائع والسـنن التى شرعهـا هذا الرئيـس الأول وأمثالـه، وعُهد بالرياسـة إلى الرئيـس الثانى الذى يخلف الأول وهو الذى يشـترط له سـت شروط، مستمدة من مشـكاة أنوار صفات الحاكم الفاضل أيضًا، أحدها أن يكـون حيكمًا، والثانى أن يكون عالمًا حافظًا للشرائع والسـنن والسـير الى دبرهـا الأولون للمدينة، والثالث أن يكون له جودة اسـتنباط فيما لا يُحفظ عن السـلف فيـه شريعة، والرابع أن يكـون له جودة روية وقوة اسـتنباط

(1) الفارابى، آراء أهل المدنية الفاضلة، ص26.

ويكون متحريًا بما يستنبطه صلاح حال الأمة، والخامس أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين وإلى التى استنبطت بعدهم مما احتذى فيه حذوهم، والسادس أن يكون له جودة ثبات ببدنه فى مباشرة أعمال الحرب، وذلك أن يكون معه الصناعات الحربية الخادمة والرئيسية[1]..

هذه من تلك، كل ما هنالك أنه يقلص حجم المطلوب فى القائد أو الرئيس حتى يتيسر وجوده، ومع ذلك فاجتماع مثل هذه الصفات فى شخص أمر عزيز المثال، ومن ثمّ نلمح النزعة التجديدية التى تتفتق عن مرونة ووعى وبصيرة لدى الفارابى فى دعوته لما يمكن تسميته بالمجلس الرئاسى للمدينة الفاضلة، حيث يرى أنه إذا لم تتوافر هذه الشرائط الستة فى شخص واحد وتوزعت فى أكثر من فرد فيمكن أن يكونوا جميعًا هم الرؤساء الأفاضل، فإن تفرقت هذه الصفات فى جماعة فكانت الحكمة فى واحد، والعلم فى ثان، والاستنباط فى ثالث وهكذا، كانوا هم جميعاً الرؤساء الأفاضل[2].

ولعل هذا الرأى يذكرنا بأفلاطون، حيث الحاكم الفيلسوف، فإن لم يتسنى وجوده فحكم القوانين، على أن يكون على رأس الدولة مجلس العشرة الذين يسميه «مجلس حراس القوانين» ليكون هو المسئول عن تنفيذ وحماية القوانين، وهو ما يؤكد تأثر الفارابى بالفلسفة اليونانية إلى حدٍ بعيد.

❐❐❐

تأبى النفس البشرية إتمام أى عملية تتسم بالموضوعية يرتئيها العقل السامى ذو النفس السامية لأغراض تبدو معلنة أحيانًا ومبهمة أحايين، تلك

(1) الفارابى، السياسة المدنية، صـ31.
(2) الفارابى، السياسة المدنية، ص31.

سُنة كونية، إذ يدفع الله سبحانه الناس بعضهم ببعض لأجل أن تكون الحياة الدنيـا، ولأجل أن يُعرف النقص بالتمام.. والجهـل بالعلم.. والصحة بالعلة.. ولأجل أن تستمر الحياة و يزداد الذين آمنوا إيمانًا.

والفـارابى عندما وضع رؤيته للمدينة العالمية باعتبارها أسـمى ما تطمح إليه النفس الملائكية كان يعلم صعوبة تحقيقها، بل واسـتحالة ذاك التحقيق فوضع المدينة البديلة التى هى أعظم ما يكون بديلاً للمدينة العالمية وأسماها المدينة الفاضلة، ثم وضع لها بديلاً فى القيادة، ثم وزع القيادة فى مجلس يمكننا أن نطلق عليه لفظ «مجلس الحكماء»، ومع كل هذه التنازلات إلا أنه يرى ما ينخر فى عمق النفس الإنسانية من سوس وما يستشرى فيها من فساد، فحذر من عواقـب ذلك على أحوال المدينة الفاضلة، حيـث تأتى مضاداتها لتقوض ما شـيده أبناء العقل فى مدينتهم الفاضلة، وتـأتى تلك المدن المضادة فى أربعة أنواع أسـماهم الفـارابى «المدينة الجاهلـة» و«المدينة الفاسـقة» و«المدينة المبدلة» و«المدينة الضالة»...

أما المدينة الجاهلة فهى التى لم يعرف أهلها السـعادة ولا خطرت ببالهم، إن أرشدوا إليها لم يقيموها ولم يعتقدوها، و يوضح الفارابى صور هذا الجهل بمعـنى السـعادة لأبناء المدينة - غـير الفاضلة - من خلال قسـمتها إلى جماعة مـن المدن منها المدينـة الضرورية التى يقتصر أهلها عـلى الضروريات من قـوام الأبدان، والمدينـة البدالة وهى التى قصد أهلهـا أن يتعاونوا على بلوغ اليسـار والثروة على أن يكون اليسار هو أقصى غاية عندهم، ومدينة الخسة والشقوة وهى التى قصد أهلها التمتع باللذة الحسية واللهو واللعب، ثم مدينة الكرامـة، تلك التـى قصد أهلهـا أن يتعاونوا على الصـبر مكرمين ممدوحين

مذكورين مشهورين بين الأمم، ومدينة التغلُّب، وهى التى قصد أهلها أن يكونوا الممتنعين على غيرهم ويكون هدفهم اللذه التى تنالهم من الغلبة والإنتصار على غيرهم، والمدينة الجماعية هى التى قصد أهلها أن يكونوا أحرارًا يفعلون ما يريدون[1].

ثم يشرع الفارابى فى توضيح بقية المدن، فالمدينة الفاسقة هى التى يقول أهلها ما لا يفعلون، ومع أنهم يعتقدون فى جميع ما يعتقده أهل المدينة الفاضلة إلا أنهم يسلكون طريق الرذيلة حيث تتماثل أفعالهم مع أفعال أهل المدينة الجاهلة.

أما المدينة المبدَّلة فهى التى تحمل ذات آراء وفعال المدينة الفاضلة فى سابق عهدها، إلا أنها تبدَّلت فدخلت فيها آراء غير الآراء وأفعال غير الأفعال، أما المدينة الضالة فهى التى تظن امتلاك السعادة ولكنها حادت عن الطريق حيث يتوهم رئيسها الأول أنه يوحى إليه وهو غير صادق فى تلك الإدعاءات، بل إنه يزيف وعى أهلها ويحاول إيهام الناس بوسائل التموية والمخادعة.

ولعل الفارابى بما يقدمه من وصف تفصيلى لمضادات المدينة الفاضلة إنما يُوصف وضعًا حقيقًياً عاشه ورآه، وضع ادّعى الخلافة والحكم باسم الإسلام صوريًا، ثم أعمل السيوف والقتل والحيل، ووجد من يبرر له جرائمه باسم الدين[2]، بل وتسابق الفقهاء على تبرير أفعال السلطان، فسيّسوا الدين بدلًا من تديين السياسة، أخضعوا الدين للسلطان بدلاً من أن يُخضعوا السلطان

(1) الفارابى، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص31.
(2) انظر كتابى الإسلام المحرّف، روابط للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 2017م.

للدين، والأعجب من ذلك أن تلك الجرائم تمت باسم الدين، وبدعاة الدين، وفى غياب الدين، والدين من كل ذلك براء.

ثمة ملمح آخر نراه لدى الفارابى، إذ أن الحكم يكون صالحًا أو طالحًا بحسب قدرته على تحقيق سعادة المواطنين، إذ السعادة هى الغاية من وراء أى حكم سياسى أو اجتماع بشرى: «السعادة هى الخير المطلوب لذاته، وليست تطلب أصلاً، ولا فى وقتٍ من الأوقات، لينال بها شىء آخر، وليس ورائها شىء آخر يمكن أن يناله الإنسان أعظم منها»... «إن السعادة تؤثر لأجل ذاتها، ولا تؤثر فى وقتٍ من الأوقات لأجل غيرها»[1].

فالسعادة من هذا المنظور غاية، هذه الغاية لا يمكن تحقيقها إلا فى مدينة فاضلة لا مضاداتها.. مدينة الخير لا الشرور.. «وبلوغ السعادة إنما يكون بزوال الشرور عن المدن وعن الأمم، ليست الإرادية منها فقط بل والطبيعية، وأن تحصل لها الخيرات كلها، الطبيعية والإرادية، ومدير المدينة وهو الملك، إنما فعله أن يدبر المدن تدبيرًا ترتبط به أجزاء المدينة بعضها ببعض، وتأتلف وترتب ترتيبًا يتعاونون به على إزالة الشرور وتحصيل الخيرات»[2] ومن ثم فإن صلاح المدينة وتحقيقها لأعلى درجات السعادة مرتبط بالشرطين الرئيسيين للمدينة الفاضلة وهما تعاون أهلها اولاً، ثم توافر الحاكم ذو المواصفات الخاصة ثانيًا، وهما بدورهما لن يتحققا إلا فى مدينة فاضلة، تضمن العدل والمساواة والتعاون بين جميع أبنائها من ناحية، وتضمن

(1) الفارابى، فصول منتزعة، حققه وقدم له وعلق عليه د. فوزى مترى نجار، دار المشرق، بيروت، لبنان، سنة 1971م، ص80.
(2) الفارابى، السياسة المدنية، ص25.

كذلـك وصول أميز الناس عقلاً وفكرًا ووجدانًا إلى منصة الحكم ثانيًا، هذا هو فقـط مناط تحقيق تلك الأمنيات، والسـبيل الأوحد لإقامة مجتمع أقرب إلى الملائكيـة منـه إلى البشرية على أرضٍ شـهدت على مدار تاريخها سـفكًا للدماء وهتكًا لأعراض القيم.

الفصل السادس

لوك...

ولد جون لوك فى التاسع والعشرين من أغسطس عام 1632م فى رينجتون بإقليم سمرست لأب يعمل محاميًا، وكان أبوه صاحب رأى ويشارك فى الحياة السياسية لبلاده.

بدأ لوك حياته التعليمية فى مدرسة وستمنستر، وقد أرهقه فيها التعليم المدرسى باللغات اللاتينية واليونانية والعبرية والعربية، ولعل أهم الأحداث التى عاصرها فى تلك الفترة وتركت أثرًا عظيمًا عليه هى إعدام شارل الأول فى عام 1649م. وعاصر لوك الحرب الأهلية فى إنجلترا عام 1652م وما بعدها، وتركت عليه آثارًا شكلت وعيه ومبادئه إلى حدٍ كبير، فلعل تلك الحروب كانت الدافع الرئيسى له لإنشاق شجرة وارفة الظل اسمها التسامح.

ورغم أن لوك قد درس الطب، إلا أنه لم يُثنه عن عشق لا محدود للفلسفة والفكر الحر والذى قذف به إلى معترك السياسة ما بين شد وجذب بين الحكام الذين أيدهم لوك وأعدائهم تأدت به إلى نفى إختيارى إلى هولندا، حيث كوَّن صداقات عديدة كما ألفّ عدة رسائل أيضًا، إلى أن استقرت الأمور السياسية فعاد إلى إنجلترا فى عام 1689م، وسرعان ما إحتل مكانة

كبرى أهلته لتولى عدة مناصب رسمية كمفوض الإستئناف عام 1690م ومفوض التجارة عام 1696م وترك لوك عظيم الأثر على الوعى الإنسانى عامة، والإنجليزى خاصة، حيث إذداد وعى الشعوب بأن الوظيفة الرئيسية للدولة تتمثل فى حماية الثروة والحرية، كما أكد على ضرورة التسامح بين المختلفين فكريًا وعقائديًا، وعلى أسس من هذين المبدأين، الحرية والتسامح، قامت فلسفة لوك، حيث ناضل لأجلهما، إلى أن وافته المنية فى الثامن والعشرين من أكتوبر عام 1704م بأسكس بإنجلترا.

يمكننا القول بأن تأثير لوك السياسى قد تعدّى الحياة الفكرية والعملية فى إنجلترا إلى بقية أنحاء العالم، فقد أثرت آراؤه تأثيرًا شديدًا فى فولتير و إنتقلت معه إلى فرنسا، وكذلك إعتنقها مونتسكيو أثناء زيارته لإنجلترا ما بين عامىّ 1729 - 1731م، وكان لها صداها عند روسو قبل الثورة الفرنسية وأثنائها، وبرز تأثيره فى أجلى صوره فى «إعلان حقوق الإنسان» الذى أصدرته الجمعية التأسيسية عام 1789م وعندما ثار مستعمرو أمريكا فى وجه الملك جورج الثالث حين إستعاد قوة الملك وسلطانه نراهم قد إقتبسوا آراء لوك وأفكاره، بل إستخدموا ألفاظه ذاتها تقريبًا فى «إعلان الإستقلال» الذى أصدروه، كما أن الحقوق التى أثبتها لوك فى فلسفة أصبحت «وثيقة الحقوق» فى التنقيحات العشرة الأولى للدستور الأمريكى، وأثرت مقالاته عن التسامح فى الآباء المؤسسين فى فصل الكنيسة عن الدولة و إقرار الحرية الدينية[1]..

❐❐❐

(1) د. مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، ص324 وما بعدها.

يبدأ لوك فلسفته من لدن إقرار الجماعة الإنسانية وبناء أول تجمع إنسانى عُرفى عن طريق العقد الإجتماعى، قانون الطبيعة بمثل ما سبق ونادى روسو،... «وعلى هذا الأساس يقول ذلك القانون الطبيعى العظيم... من أراق دماء إنسان أراق دماءه إنسان... إن قابيل كان مقتنعًا تمام الإقتناع بأن لكل شخص الحق فى القضاء على مثل هذا المجرم حتى إنه بعد إذ قتل أخاه يصيح... «إن كل إنسان سيعثر علىّ سيقتلنى»... إنه قانون كُتب بوضوح لا خفاء فيه على قلوب الجنس البشرى كله»[1]... هذه القوانين الفطرية مما فُطر فى النفوس البشرية... «إن الصدق والوفاء بالعهد من شأن الناس بوصفهم ناسًا وليس بوصفهم أعضاء فى مجتمع»[2]..

وما أن يتم الإجتماع حتى يصير هذا المجتمع ملتزمًا أفراده بعضهم تجاه البعض الآخر بحماية أنفسهم من شرور الآخرين وخضوع الجميع للإتفاق على ألا ضرر ولا ضرار، بحيث ينعم الجميع بالأمان ويكف الجميع شره عن الآخرين... فى حالة مساواة طبيعية... «وحتى يمكن كبح جماح جميع الناس من الإعتداء على حقوق الآخرين، ومن إلحاق الضرر الواحد منهم بالآخر، ولضمان مراعاة قانون الطبيعة الذى يرمى إلى السلام والمحافظة على الجنس البشرى كله، وُضع تنفيذ قانون الطبيعة فى تلك الحالة فى يد كل إنسان، بحيث إن كل شخص له الحق فى معاقبة المعتدين على هذا القانون إلى درجة تحول دون خرقه، لأن قانون الطبيعة مثل كل القوانين الأخرى التى تتصل بالآدميين فى هذه الدنيا، يكون عديم الجدوى إذا لم يكن هناك فى

(1) لوك، العقد الاجتماعى، فصل2، ص251.
(2) المصدر السابق، ف2، ص253.

حالة الطبيعة من لديه القوة لتنفيذ هذا القانون، وبذلك يحافظ على الأبرياء ويكبح جماح المعتدين، وإذا كان لأى واحد فى حالة الطبيعة أن يعاقب آخر لأى شر فعله فلكل إنسان أن يفعل ذلك، ففى حالة المساواة الكاملة حيث لا سيادة ولا سلطة لشخص على آخر بصورة طبيعية، لابد أن يكون لكل شخص الحق فى أن يفعل ما يفعله أى واحد فى تنفيذ ذلك القانون»[1]..

ومن ثمّ، وفقًا لهذا التعاقد حر الإرادة يصبح منوطًا بكل شخص حماية هذا العقد... «فإن لكل شخص على هذا الأساس بما لديه من حق فى المحافظة على الجنس البشرى عامة، أن يكبح - وأن يدمر إذا لزم الحال - الأشياء التى تُلحق بالناس الأذى، ومن ثمّ له أن يصب على كل من يخرق هذا القانون ذلك القدر من الشر الذى يجعله يندم على عمله، وبذلك يمنعه من إرتكاب إثم مماثل كما يمنع غيره بأمثولته، وفى هذه الحالة، وعلى هذا الأساس، لكل إنسان الحق فى معاقبة المعتدى وفى أن يكون منفذًا لقانون الطبيعة»[2]..

كما ينبغى أيضًا حماية المجتمع من المعتدين الآثمين... «حيث إنه من المعقول ومن العدل أن يكون لى الحق فى القضاء على ما يهددنى بالقضاء علىّ، إذ أنه لمّا كان القانون الأساسى للطبيعة يقضى بالمحافظة على الجنس البشرى فإنه يجب وضع المحافظة على سلامة البرئ فى المكان الأول بقدر الإمكان عندما يكون من غير الممكن المحافظة عللى الجميع، وللمرء أن يقضى على الشخص الذى يعلن عليه الحرب أو الذى إكتشف فيه عداءًا لكيانه، لنفس السبب الذى يعطيه الحق فى قتل ذئب أو أسد، لأن مثل هؤلاء الناس

(1) نفسه، ف2، ص248.
(2) المصدر نفسه، ف2، ص249.

لا تضمهم روابط قانون العقل الذى يشترك فيه وليس لهم من شريعة سوى القوة والعنف، ومن ثمّ ينبغى معاملتهم مثل الوحوش المفترسة، تلك المخلوقات الخطرة الضارة التى لابد أنها تقضى على من يقع بين براثنها»[1]..

هذه الحالة الطبيعية الأولى تفرض المساواة بين الجميع، إلتزامًا متبادلاً منهم تجاه بعضهم البعض... «إن هذه المساواة بين الناس بالطبيعة يعتبرها «هوكر» الحكيم من الوضوح بذاتها، ولا تقبل جدلاً، بحيث جعلها أساس ذلك الإلتزام بالحب المتبادل بين الناس الذى يُبنى عليه الواجبات التى يدين بها كل منا للآخر، والذى يستمد منه المبادئ الكبرى للعدالة والرحمة»[2]..

إنها مساواة فطرية، رغم أن لوك يكسبها بُعدًا دينيًا حيث خضوع المخلوقات كافة لإلهٍ واحد خلق الجميع، إلا أنه ليس بعدًا أيديولوجيًا، ليس فيه تفرقة بين دين ودين، أو عقيدة وأخرى، ولكن فيه لفت الأنظار إلى الدين الطبيعى الذى يفرض على الجميع تلك المساواة... «لأن الناس، وهم جميعًا من صنع صانع واحد لا حدود لقدرته أو لحكمته، ولمّا كانوا جميعًا خدمًا لسيد واحد هو صاحب الأمر، أرسلوا إلى الأرض بأمره ولحكمته، فإنهم جميعًا ملك له، ذلك الذى صنعهم، و يظلون على قيد الحياة ما شاء هو، لا ما شاء غيره، ولمّا كنا أيضًا قد وُهبنا نفس القدرات ونشترك جميعًا فى مجتمع طبيعى واحد، لا يمكن أن يُفترض هناك خضوع بيننا يسمح للواحد منا بتدمير الآخر كما لو كنا قد خُلقنا لخدمة بعضنا البعض مثلما وُجدت المخلوقات الدنيا لخدمتنا، وكما أن كل إنسانٍ مضطر إلى المحافظة على نفسه وعدم التسليم فى وضعه

(1) نفسه، ف3، ص255.

(2) لوك، العقد الإجتماعى، ف2، ص246.

طواعية، فلنفس السبب يجب عليه أن يبذل كل ما فى وسعه فى المحافظة على بقية الجنس البشرى، إذا لم تكن المحافظة على نفسه ذاتها موضوع منافسة، وألا ينتزع حياة شخص آخر أو يُعرضها للضرر، أو أن يلحق الضرر بما يعتمد عليه الآخرون فى المحافظة على حياتهم أو حريتهم أو صحتهم أو ما يملكون، إلا إذا كان ذلك بقصد تطبيق العدالة ضد من إرتكب جُرمًا»[1]..

هذه الأفكار جميعها... العقد الإجتماعى... حالة الطبيعة... المساواة المطلقة بين الجميع... القرب بين السماء والأرض... الترابط بين جميع البشر... كلها مقدمات لأفكار إنسانية رائعة لدى لوك يبدئها من دور الدولة فى توفير رفاهية رعاياها وحمايتهم وتوفير مستلزمات الحياة الكريمة، وتتجلى فى أروع ثمارها فيما بعد فى ضدية الحرب والنداء بالسلام ثم النداء بالتسامح بين كافة الطوائف والأديان فى آراء ناصعة البياض... تخرج من جوف الملائكية لا البشرية.

يؤمن لوك بأن السلطة لا تكون إلا لخير الناس لا ضدهم، لنفعهم لا للوقوف ضد مصالحهم ورفاهيتهم وحياتهم وأمنهم... تنجح السلطة فى تحقيق أهدافها لخير الجميع كلما كانت قوانينها أقرب إلى قوانين الطبيعة... «إن السلطة فى أقصى ما تصل إليه محدودة بالخير العام للمجتمع، فهى سلطة لا هدف آخر لها سوى المحافظة على الرعايا، ومن ثمّ لا يمكن أبدًا أن يكون لها الحق فى أن تقضى عليهم أو تستعبدهم أو تعمل قاصدًة على إفقارهم... فالتزامات قانون الطبيعة لا تنتهى فى المجتمع، ولكنها فى كثيرٍ من الأحوال تصير فقط أقرب ولها عقوبات معروفة تترتب عليها لفرض تنفيذها بوساطة

(1) نفسه، ف2، ص248.

القوانين البشرية، وهكذا فإن قانون الطبيعة يظل قاعدة أبدية بالنسبة لجميع الناس، المشرعين مثل غيرهم... ويجب أن تكون القواعد التى يضعونها لسلوك الناس مطابقة لقانون الطبيعة، وكذلك يجب أن يكون سلوكهم وسلوك غيرهم، أى أن تكون مطابقة لإرادة الله التى يُعتبر هذا القانون معبرًا عنها، كما أنه لمّا كان قانون الطبيعة الأساسى هو المحافظة على الجنس البشرى، فإنه ما من إجازة بشرية تكون سليمة أو مشروعة إذا كانت مناقضة لها»[1]...

ويمتدح لوك خطاب الملك جميس الأول إلى البرلمان الإنجليزى عام 1603م حيث جاء فيه... «سأفضل دائمًا أبدًا خير الشعب والمجتمع كله، فى وضع قوانين ودساتير جيدة، على أى أهداف شخصية خاصة بى، معتبرًا دائمًا رخاء المجتمع وخيره أعظم خير لى وأكبر سعادة دنيوية، وهذه هى النقطة التى يختلف فيها الملك الشرعى مباشرة عن الطاغية، لأنى أعترف أن أهم نقطة خاصة فى الإختلاف بين ملك شرعى وغاصب طاغية هى أنه بينما يعتقد الطاغية الطماع المتكبر أن مملكته وشعبه إنما وجدا لإشباع رغباته وشهواته التى لا يوافق عليها العقل، يعتبر الملك الصالح العادل نفسه على النقيض من ذلك، إنما نصب لتحقيق الرخاء والثراء لشعبه»[2].

بل يذهب لوك إلى أبعد من ذلك، حيث لا يحق لحاكم معاقبة أحد على توجهاته الفكرية أو الأيديولوجية أوالعقائدية، فليس له أن يعاقب إلا فى أمور الدنيا فقط، أما أمور الآخرة فكلها من شأن الله والحساب الأخروى...

(1) لوك، فى الحكم المدنى، ف11، ص235.
(2) نفسه، ف18، ص379.

«وقـد يقال إن الوثنية خطيئة، ومن ثمّ لن تكون موضوع تسـامح، فإذا قيل بعد ذلك إنه ينبغى تجنبها فالإستدلال سليم، ولكن لا يلزم من كونها خطيئة أن يكـون العقاب من مهمة الحاكم، لأنه ليس من مهمته إسـتعمال السـيف لإنزال العقاب على المسائل التى يعتقد حياديًا أنها خطيئة ضد الله»[1]..

وتاليًا فثمة فصل تام بين سـلطة الحاكم وعلاقة الإنسان بالله: «إن سلطة الحكـم المدنى تتعلق فقط بالخيرات المدنية للبشر، وتقوم على حماية الأشـياء المتعلقـة بهذا العالم ولا تُمت بأية صلة إلى العالم الآخر»[2] ويعقب على ذلك أيضًا بالقول... «ولهذا ينبغى ألا يُحرم أى إنسـان من متع الحياة الدنيا بسبب دينه، حتى الأمر يكان الذين يحكمهم أمير مسـيحى ينبغى ألا يُعاقبوا عقابًا يمس أبدانهم، أو خيراتهم، لمجرد أنهم لا يعتنقون إيماننا وعبادتنا، و إذا إقتنعوا بأنهـم يرضون الله عندما يمارسـون طقـوس بلادهم، وأنهم ينالون السـعادة بفضل هذه الممارسة... فعلينا أن نتركهم لله ولأنفسهم»[3]..

لكن إذا شـب الصراع بين الحاكم وشـعبه، فمن الذى يفصل بينهما حال الصدام، هنا يجيب لـوك بالقول... «جوابى... هو الله وحده، لأنه لا يوجد قـاضى على وجه المعمورة يحكم بـين الحاكم الأعلى والشـعب، أقول إن الله فى هـذه الحالـة هو القـاضى الوحيد الذى يعاقب كل إنسـان يوم الحسـاب، حسبما يستحق، أى حسب إخلاصه و إستقامته فى تنمية التقوى والخير العام وسلامة البشرية، ولكن ماذا يمكن أن يكون عليه الوضع قبل يوم الحساب؟

(1) لوك، رسالة فى التسامح، ص47.
(2) المصدر نفسه، ص27.
(3) لوك، التسامح، ص46.

جوابي على النحو التالي: العناية الأساسية والرئيسية لكل إنسان ينبغي أن تكون موجهة لروحه أولاً، وللسلام العام ثانياً، على الرغم من أن قلة من الناس تعتقد أن السلام هو كل شيء»[1]..

العناية الأساسية بالروح... بالوجدان... بالسلام... والسلام كل شيء، هكذا يفكر لوك، وهكذا نطق... فقط بقيت أمامه معضلة... ماذا يفعل أمام الطغاة الذين لا يقرون بحقوق الشعوب، والذين هم عقبة كؤود في وجه السلام، وفي وجه الروح، وفي وجه الوجدان... وفي وجه الحياة، وفي وجه كل ما هو إنساني؟!!

في البداية تجد تحذير لوك من الظلم والقهر لأنهما يدفعان إلى إحداث الفتن والفوران.. «قد يتحد البعض من أجل التجارة والربح، وقد يتجمَّع آخرون في نوادي الخمور بسبب البطالة... إن الجوار يجمع البعض، والدين يجمع آخرين، ولكن ثمة عامل يوحّد الناس لإثارة الفتنة، وهو القهر»[2]..

والعنف والقهر ليسا من سمات الحكومات الصالحة، المعتدلة... «إن الحكومات العادلة والمعتدلة في كل مكان، هي حكومات تنعم بالسكينة، أما القهر فإنه يُفضي إلى الحروب، الأمر الذي يدفع الناس إلى النضال من أجل التخلص من طوق العذاب والقهر، وأنا أعرف أن الفتن غالبًا ما تحدث باسم الدين، ولكن ما هو حق أن الرعايا بسبب الدين غالبًا ما يُساء معاملتها وتحيا في بؤسٍ وشقاء... صدقوني القول، إن الفورات لا تنشأ بسبب مزاج خاص بهذه الكنيسة أو تلك أو بسبب مجتمع ديني ولكن من إستعداد البشرية في

(1) نفسه، ص55.
(2) نفسه، ص60.

محاولـة التخلص بالفطرة مـن الطوق الذى يحز على رقبتهـا عندما تئن من أى حملٍ ثقيل»[1]..

و يبـدأ الطغيان مـن إنتهاء القانـون، أو من السـلطة التحكمية المطلقة، هكـذا قال لوك... «إن السـلطة التحكمية المطلقـة أو الحكم بدون قوانين مستقرة قائمة، لا يمكن أن يتفق أى منهما مع أهداف المجتمع والحكم اللذين مـا كان الناس ليهجروا حرية حالة الطبيعة من أجلها و يقيدوا أنفسـهم فى ظلهـما إلا للمحافظة على حياتهم وحرياتهم وثرواتهم وتوفير الأمن والهدوء لهم بواسـطة قواعد مقررة للحـق والملكية»[2]... «و إذا إنتهـى القانون بدأ الطغيـان، إذا حدث إعتداء على القانون بقصد إيذاء شـخص آخر، وكل من يتجاوز السلطة التى يمنحها إياه القانون، من بين من بيدهم السلطة و يستغل القوة التى وضعت تحت تصرفه فى أن يفرض على أحد الرعايا ما لا يسـمح به القانون، لا يعود حاكمًا و يكون تصرفه غير مشروع، ومن ثمَّ يحق للمرء أن يعارضه مثل أى شخص آخر يعتدى بالقوة على حق غيره»[3]..

هذا الكلام يؤكد رفض لوك التام لحكم الطغاة... لكافة أشكاله وصوره... إنه يمثل الصورة اللآدمية، اللإنسـانية، التى كثيرًا ما يتورط فيها بعض البشر ممـن تجردوا عن إنسـانيتهم ولطختهم مشـارب الأنانية والغطرسـة وعبودية الذات... يقول لوك: « كما أن الإغتصاب هو ممارسـة سـلطة لشـخص آخر الحق فيها، كذلك الطغيان هو ممارسـة سلطة تتجاوز الحق، وهو الأمر الذى

(1) نفسه، ص60.
(2) لوك، العقد الاجتماعى، ف11، ص337-336.
(3) نفسه، ف18، ص381.

لا يحق لأحد أن يفعله، وذلك هو إستغلال أى شخص للسلطة التى فى يديه، لا لمصلحة أولئك الذين يخضعون لها، ولكن لمصلحته هو الخاصة المنفصلة، ويكون ذلك عندما يجعل الحاكم أيًا كان سنده، إرادته بديلاً للقانون، هى القاعدة، وتكون أوامره وتصرفاته موجهة لإرضاء أطماعه و إنتقامه وجشعه أو أى مطمع غير سليم، وليس للمحافظة على ممتلكات شعبه»[1]..

هذه الصفات، البعد عن القانون... إتباع الأهواء الشخصية للحاكم... العمل للمصلحة الخاصة... إغتصاب السلطة... الزيف والخداع والمخاتلة، كلها صفات للطغاة، ومن ثمَّ ينبغى الثورة ضد أنظمة الطغيان، يقول لوك: «ولكن إذا امتد تصرف من هذه التصرفات غير القانونية إلى غالبية الشعب أو إذا أصاب الضرر والإضطهاد بضعة أشخاص فلا عمل، ولكن فى حالة بدا منها من السوابق والنتائج تهديد للجميع و إقتنعوا فى ضمائرهم أن قوانينهم ومعها ممتلكاتهم وحرياتهم وحياتهم معرَّضة للخطر، وكذلك ربما دينهم أيضًا، فإنى أعترف بأن هذا من المساوئ التى تصاحب كل الحكومات أيًا كان نوعها، عندما يؤدى تصرف الحكام إلى أزمة، بحيث يصيرون موضع ريبة شعوبهم عامة، وهم غير جديرين بأسفنا فى هذه الحالة، لأنه من اليسير عليهم تمامًا تجنبها، حيث إنه من المستحيل على الحاكم إذا كان يقصد حقيقة خير شعبه والمحافظة عليه وعلى قوانينه معًا، ألا يجعل الناس تدرك ذلك وتشعر به، كما يستحيل على رب عائلة ألا يدع أطفاله يرون أنه يحبهم ويعنى بهم»[2]... أما إذا وصل الحاكم إلى منتهى الحد الذى تسقط عنده كل

(1) نفسه، ف18، ص379.

(2) لوك، العقد الإجتماعى، ف18، ص385.

ثقـة فيه، فالثورة تصبـح واجبة... «ومن هذا يتضح أن التخلص من سـلطة فرضتها القوة ولم يفرضها الحق على أى إنسان، ليس جُرمًا أمام الله، رغم أنه قد يُسمى تمردًا، بل إنه يسمح به و يرضى عنه»[1]..

لكـن لوك ليس مؤيدًا للثورة على إطلاقها، إذ لا تزال نظريته السياسـية تحمل غُصة فى جانب الثـورة تجعلها غير واضحة تمامًا للناظرين... فهو على الرغـم مـن تأييده للثورة ضـد الطغاة والظالمـين والمغتصبـين، إلا أنه يوصى الشـعوب بتحمُل إسـاءات الحـكام فى مواضـع أخرى، كما يُحمل الشـعب الثائـر نتيجة ما قد يحدث من إنفلات أمنى، وهـو فى ذلك متفق مع الشريعة الإسلامية التى تُحرم الخروج على الحاكم طبقًا لقاعدة «دفع المضار مقدم على جلـب المصالح»... إنها نفس روح الخوف عـلى الأنفس من أن تراق الدماء الحـرام... يقول لوك: «بيد أنى على ثقة مـن شىء واحد، هو أنه أيًا كان من يحاول من الحكام أو الرعية استعمال القوة فى الإعتداء على حقوق الشعب أو الأمير، و يعمل ما من شأنه قلب دستور أية حكومة عادلة أو تغيير صورتها، فإنه يكون مسـئولاً عن أفظع جريمة يمكن أن يرتكبها إنسان... فهو مسئول عـن جميع الأضرار التى تترتب على سـفك الدماء والإغتصاب والشـقاء، مما يلحـق البلاد نتيجـة لإنهيار الحكومـات، ومن يفعل ذلك يعتـبر بحق عدوًا للجنس البشرى ووباءً يهدده، وينبغى معاملته على هذا الأساس»[2]..

❐❐❐

تمثل فلسـفة القانون لـدى لوك عمق النظـرة الإنسـانية والبعد الملائكى

(1) نفسه، ف16، ص377.
(2) نفسه، ف18، ص400.

عنـده، إذ أن رفضه للطغاة قام على أسـاس إنتهاكهـم للقوانين، و إذ أن العقد الإجتماعى الأولى قام أيضًا على فكرة العلاقة التضامنية والترابطية بين أفراد المجتمـع والتى يحدد أطرها ويحميها القانـون... ومن ثمَّ كان للقانون أهمية كبرى فى الحفاظ على سلامة المجتمع... وحماية حقوق أفراده و إلزام الجميع بما عليهم من واجبات.

لكن ما يلفت للنظر عند لوك أنه إنتصر للقانون الطبيعى، إنتصر للحرية الإنسـانية التى تحميهـا الطبيعة، ومن ثـمَّ فإن «حرية الإنسـان الطبيعية هى ألا يكـون خاضعًـا لأية قوة عليا عـلى الأرض، وألا يقع تحت إرادة إنسـان أو سـلطته التشريعيـة، وألا يكون لديه سـوى قانون الطبيعة قاعـدة يعمل بها، وحرية الإنسـان فى المجتمع ألا يخضع لأية سـلطة تشريعية سـوى تلك التى تقوم على الرضا بين أفراد الجماعة، وألا يقع تحت سـيطرة أية إرادة أو أى قيد قانونى سـوى ما يضعه المشرِّع طبقًا للأمانة التـى عُهد بها إليه»[1]... هذا ليس معناه اللاقانون... ولكـن معناه توخى المبادئ العظمى للقانون الطبيعى الذى لا يتعـارض أبـدًا مع الحرية الشـخصية لأحد، كما وأنه موجـه وواقى وليس أبـدًا قيدًا على أحـد... «إن القانون فى فكرته الصحيحة ليـس تقييدًا بقدر ما هـو توجيه للفرد الحر العاقل نحو مصلحته الخاصة، ولا يتعدى ما هو الصالح العام لمن يخضعون له، ولو إسـتطاعوا أن يكونوا أكثر سـعادة من غير القانون لاختفى القانون من تلقاء ذاته بوصفه شيئًا لا فائدة منه، إنما تقتصر فائدته على أنه يحول بيننا وبين الوقوع فى هوة أو مستنقع غير جدير بأن يعتبر قيدًا»[2]..

(1) المصدر السابق، ف4، ص260.
(2) نفسه، ف6، ص280.

ثـم يضع لـوك أطرًا واضحة المعـالم للقانون، أطر لا خـلاف حولها على مـدار تاريخ فلسـفة القانـون... «إن من بيده السـلطة التشريعيـة أو العليا فى أى مجتمـع منظم مرغم عـلى أن يحكم طبقًا لقوانين مقـررة قائمة تعلن على الناس ويعرفونها، وليس طبقًا لأوامر مرتجلة، وبواسطة قضاة مستقيمين غير متحيزين يحكمون فيما يثور من خلافات بمقتضى هذه القوانين، وألا يستعمل قوة المجتمع فى الداخل إلا فى تنفيذ مثل هذه القوانين، ولا يستعملها فى الخارج إلا فى صنـع إيذاء خـارج ى أو رده وتأمين المجتمع من الغزو والغارات، وألا يكون الهدف من كل ذلك إلا سلامة الناس وأمنهم وخيرهم العام»[1]..

ويُجمـل لـوك أهـداف القانون الـذى يمكن تسـميته قانونًا بحـق فيقول: «فيجـب على المـشرَّع أولاً أن يحكم بواسـطة قوانين مقررة ومعلـن عنها، لا تختلف بإختلاف القضايا، بل تنطوى على قاعدة واحدة للغنى والفقير، لصاحب الحظـوة فى البلاط وللفلاح الذى يعمل فى حقله... وثانيًا: يجب ألا يكون لهذه القوانين هدف فى النهاية سـوى خير الشـعب... وثالثًـا: يجب على المشرَّع ألا يفـرض الضرائب على ممتلـكات الناس إلا برضـا الناس يمنحونه بأنفسـهم أو بواسـطة مندوبيهم، وهذا لا يخص سـوى الحكومات التى تكون فيها السلطة التشريعيـة دائمة الإنعقاد، أو على الأقل فى النظم التى لم يحتفظ الشـعب فيها بأى جزء من السلطة التشريعية لمندوبين يختارهم بين الحين والحين... ورابعًا: يجب على المشرَّع أولاً، بل هو لا يسـتطيع، أن ينقل سـلطة سن القوانين إلى أى شخص آخر أو أن يضعها فى أية هيئة غير تلك التى حددها الشعب»[2]..

(1) نفسه، ف9، ص330.

(2) نفسه، ف11، ص340 - 341.

تلـك هى الـشروط العامـة للقانون التـى لا يمكن الإختـلاف عليها بين عصريـن، ولا بـين ظرفين... لا يوجد شيء اسـمه قوانين إسـتثنائية، بل هى بلطجـة باسـم القانون... عنف باسـم القضاء على العنف، يا لهـا من مفارقة عجيبـة، ثـار ضدها العقل قديمًـا وحديثًا، ورفضها لوك عـلى طول الخط... «إنه حيثما يُسـتعمل العنف و يلحق أذى بالناس، حتى ولو كان ذلك على يد أولئك الذين عُينوا للمحافظة على العدالة، يظل العنف عنفًا، والأذى أذىً، أيًا كان ما يُضفى عليهما من أسـماء أو من صور القانون، لأن الهدف هو حماية البرئ وتعو يضه بتطبيق القانون تطبيقًا لا تحيُز فيه على كل من يخضعون له، وحيثـما لا يتحقق ذلك دون خداع يكـون ذلك بمثابة إعلان الحرب على من وقع عليهم الضرر، الذى لا يعود أمامهم من سبيل فى هذه الحالة، وقد حُرموا من الإلتجاء إلى من يرفعه عنهم فى الأرض، سوى الإلتجاء إلى السماء»[1]..

وكأن لـوك يتحدث عـن عالمنا العربى... وكأنه يصف مغتصبوا السـلطة عـبر طول الوطن العربى وعرضه الذين تاجـروا بدماء البشر وحرياتهم من ناحية، والذين تاجروا بالدين وباسم الله من ناحية ثانية... والذين تاجروا بالديموقراطيـة ولعبوا عـلى أوتار البروليتاريـا كثيرًا من ناحيـة ثالثة... وما أفلـح أحد فيهم، فكلهم فى النهاية مغتصبون، كلهم كانوا يتربصون بعضهم ببعـض... كلهم بحثوا عن مصالـح ذاتية لا عامة... الأنا لا الآخر... فخاب مسـعاهم وضل سـعيهم... وغرقت الأوطان فى أنهار من الدمـاء، وأنهارٍ من العنـف... وبحور من الفوضى والسـلبية، كل ذلك فى غيـاب تام لموضوعية القانون... لعدالة القانون... أو بالأحرى لغياب القانون ذاته.

(1) لوك، العقد الإجتماعى، ف3، ص258.

يبدو لوك بندائه بقانون الطبيعة والإلتزام بمبادئه الفطرية من موضوعية وعمومية وتجريد ملائكيًا إلى حدٍ كبير، قادته تلك الملائكية إلى إنكار الحروب والوقوف ضد الأطماع البشرية فى غزو الأقوى للأضعف، وتحكم الأغنى فى الأفقر.. والأكبر فى الأصغر، تحكمات لم تقرها الطبيعة، ولا يقبلها العقل... ولا يؤمن بها أى دين...

ومن ثمَّ وقف لوك ضد الحرب التى يراها تنشأ بسبب سوء إستعمال القوة... «إن الإستعمال غير العادل للقوة هو الذى يثير الحرب، لأن من يدخل منزلى عنوة ويُخرجنى منه بالعنف، أو من يدخل بطريقة سلمية ثم يستعمل القوة فى إبقائى خارجه إنما يفعلان فى الواقع نفس الشىء»[1]..

ويوجه اللوم إلى الغزاة الذين يستبيحون ما للمهزومين من ثروات، بل ويستعبدونهم، فيقول: «إن كون المعتدى الذى يضع نفسه فى حالة حرب مع آخر وينتهك حق الآخر ظلمًا لا يمكن أبدًا بمقتضى هذه الحرب الظالمة أن يكتسب حقًا على المهزوم، أمر يتفق فيه بسهولة جميع الناس الذين لا يعتقدون أن قطاع الطرق والقراصنة لهم حق الحكم على كل من يستطيعون السيطرة عليهم بالقوة، أو يعتقدون أن الناس تقيد بوعود يجبرون على بذلها بالقوة غير المشروعة، فإذا دخل لص منزلى وبيده خنجر مسلّط على عنقى، وجعلنى أوقع على وثيقة أنقل بها ممتلكات إليه، هل يعطيه هذا أى سند؟ إن سندًا كهذا هو كل ما لدى الفاتح الظالم الذى يرغمنى بسيفه على الخضوع له... إن الجريمة واحدة، والضرر متساو، سواء إرتكبها لابس تاج أو لص دنئ... فلقب المعتدى وعدد أتباعه لا يغيران من العدوان، اللهم إلا يجعله

(1) نفسه، ف16، ص368.

أشـد، والفرق الوحيد هو أن كبـار قطاع الطرق يعاقبـون صغارهم ليظلوا عـلى طاعتهم لهـم... ولكن قطـاع الطرق الكبـار يكافئـون بأكاليل الغار والإنتصارات لأنهم أكبر من يد العدالة الضعيفة فى هذه الدنيا، وهم يملكون القـوة التى ينبغى أن تعاقـب المعتدين، وكيف أتـصرّف حيال لص إغتصب طريقـه داخـل منزلى؟ أألجـأ إلى القانون طالبًـا للعدالة، ولكـن ربما لا أجد عدالة، أو ربما كنت كسيحًا ولا أستطيع حراكًا، سُرقت وليست لدىّ وسيلة لرد الإعتداء، إذا كان الله قد حرمنى من جميع وسائل رد الإعتداء، لا يبقى لى شىء بعد ذلك سوى الصبر»[1]..

يُعد هذا مسلك المستضعفين... أو عالم الغاب، وليس عالم القانون الذى أراده لـوك من قبل... فالبشرية إن فقدت آليـات تحقيق العدالة بين أفرادها فقدت أخص خصوصيات حياتها... أو بالأحرى فقدت وجودها ذاته، ولكن هـذا يـدل على إنعدام الثقة لدى لـوك فى العقل البشرى الـذى يقدم الأهواء عـلى الحقائـق... الأطماع الشريـرة على القيـم النبيلة... ليعود لـوك متلطفًا بعـد حين، ومتحدثًا عن أخلاقيات الحرب العادلـة... «إن الغازى إذا كانت قضيته عادلة، له حق إسـتبدادى على أشـخاص جميع من عاونوا واشتركوا فى الحرب ضده، وحق فى التعويض عما لحقه من أضرار ونفقة يأخذه من عملهم وممتلكاتهـم، بحيث لا يوقع ضررًا بحق أى شـخص آخـر... أما فيما يتعلق ببقيـة الناس، إذا كان هناك من لم يوافق على الحرب وكذلك أطفال الأسرى أنفسـهم وممتلكات كل من هؤلاء، فليس له قبلهم أى حق، ومن ثمَّ لا يمكن أن يكون له سـند مشروع بمقتضى الغزو فى السـيطرة عليهـم هو أو ذريته،

(1) لوك، العقد الإجتماعى، ف16، ص364 - 365.

ولكنــه يُعد معتديًا و يضع نفســه فى حالة حرب معهــم، ولا حق ولاية له أو لأيٍ مــن خلفائه عليهم»[1].. و يؤكد ذات المعنى مــرة أخرى: «إنه لّما كانت ســلطة الغازى على حياة المهزومين لا ســبب لها ســوى أنهم إســتعملوا القوة لإيقــاع الظلم أو الإبقاء عليه، فإنه لا يكتســب هذه الســلطة إلا على أولئك الذين إشــتركوا فى هــذا العمل، أما الباقى فهم جميعًــا أبرياء، ولا حق له على شــعب هذه البلاد ممن لم يســيئوا إليــه، ومن ثمَّ لم يهــدروا حياتهم أكثر مما له على أى شــعب آخر عاش معه على أســس عادلة دون إساءة أو إثارة... إن الســلطة التى يكتبها الغازى على أولئك الذين ينتصر عليهم فى حربٍ عادلة، ســلطة إستبدادية تمامًا، فإن له ســلطة مطلقة على حياة أولئك الذين أهدروا حياتهــم بأن وضعوا أنفســهم فى حالة حرب، ولكن ليــس له بمقتضى ذلك أى حق على ممتلكاتهم»[2].

مقصود لوك من هذا كله حماية الضعفاء والذود عنهم... حماية حرياتهم وأمنهــم وكرامتهم مــن أى إغتصاب أو إهدار أو إعتداء... ليرســخ بعد ذلك للســلام الذى يضم شــتات البشر، و ينعم فى ظله الجميع، يبدئه لوك بتوجيه النقــد اللاذع لأولئــك الذين يدَّعون أنهم دعاة الســلام فى حين أنهم جلادين ومتعطشين للدماء... «و إذا زعم إنسان أنه مبشر بكلمة الله و بإنجيل السلام وعلَّــم بخلاف ذلك، فإمــا أنه جاهل بما يُعلَّم و إما أنــه غير مكترث بما يبشر به وسيحاســبه يومًا ما أمير السلام»[3]... ولكن القانون الإلهى يضمن السلام بين الجميع، وضعه الله أساسًــا للســلام بــين بنى البشر لا للعــدوان أو للغزو

(1) نفسه، ف16، ص376.
(2) نفسه، ف16، ص367.
(3) لوك، التسامح، ص37.

والتسلط... «فإن الإله الضابط للكل، الذى نتضرَّع إليه يضمن التبشير بإنجيل السلام، وأن الحكام المدنيين الذين هم أكثر إهتمامًا بإحداث التوافق بين ضمائرهم والقانون الإلهى، وأقل حرصًا على ربط ضمائر البشر بالقوانين البشرية يمكنهم، على غرار آبائهم، توجيه إجتماعاتهم ومحاولاتهم لتنمية الرفاهية المدنية لجميع الأطفال إلا الذين يتسمون بالعناد وعدم الإنصياع وإحداث الأذى لأقرانهم، وأن رجال الكنيسة الذين يتباهون بأنهم خلفاء الرسل ويسيرون فى أعقابهم بسلام وتواضع من غير تدخل فى شئون الدولة يمكنهم أن يتفرغوا تمامًا لخلاص النفوس»[1]... بل أبعد من ذلك، فإن السلام مطلب إلهى عقدى دينى... «إن السلام والعدالة والصداقة أمور ينبغى أن تراعيها كل كنيسة مثلما يراعيها الأفراد، من غير ادعاء بالتعالى»[2]..

❐❐❐

لعل قيمة التسامح هى الثمرة العظمى فى فلسفة لوك الإنسانوية، فهو يدعو إلى التسامح اللامشروط... اللامحدود... التسامح بين المختلفين فكريًا... والمختلفين أيديولوجيًا... والمختلفين عقائديًا... والمختلفين فى الجنس أو اللون... التسامح الذى يقوم على ثلاثة دعائم رئيسية، الأولى تتمثل فى فهم الدين الحق... «أما وظيفة الدين الحق فهى مختلفة تمامًا، فالدين الحق لم يتأسس من أجل ممارسة القهر، ولكن من أجل تنظيم حياة البشر إستنادًا إلى قواعد الفضيلة والتقوى، فكل إنسان يحمل شعار المسيح ينبغى عليه أولاً وقبل كل شىء أن يشن حربًا على شهواته ورذائله، وذلك لأنه من

(1) نفسه، ص65.

(2) نفسه، ص33.

العبث أن تكون مسيحيًا دون أن تكون حياتك مقدسة وأن يكون سلوكك طاهرًا وأن تكون رقيقًا ومتواضعًا»[1]..

والثانية تتمثل فى أخلاقيات التراحم... «فالبعض يتباهى بقدم الأماكن والألقاب، أو بعظمة الطقوس، والبعض يزهو بصلاح إيمانه، بينما يتفاخر الجميع بما يعتقدون أنه الإيمان الحق الذى لا يشاركهم فيه أحد، هذه كلها وغيرها مما على شاكلتها إنما هى علامات على شهوة البشر فى تسلط كل منهم على الآخر أكثر مما هى علامات على حب كنيسة الله... فلتسلم بأن لكل فرد الحق فى التوجه نحو كل هذه الأمور، لكنه إذا تجرد من المحبة والتواضع وإرادة الخير للبشرية بمن فيها من غير المسيحيين، فإنه فى هذه الحالة لا يمكن أن يكون مسيحيًا حقًا»[2]... « ليس كافيًا أن يمتنع رجال الكنيسة عن العنف والنهب وكل أساليب الإضطهاد، فمن يزعم أنه خليفة الرسل وأنه مكلف بالتعليم فإنه ملزم أيضًا بتذكير مستمعيه بإلتزامات السلام والإرادة الخيِّرة تجاه البشر، وتجاه الضالين كما هو تجاه مستقيم الإيمان، وتجاه الذين يخالفونه فى الإيمان والعبادة، كما هو تجاه الذين يوافقونه، ثم إن عليه أن يجهد نفسه فى حثَّ البشر، سواء كانوا جنودًا أو حكامًا، إن كان فى كنيسته أحد من هؤلاء، على المحبة والوداعة والتسامح، وأن يحاول فى دأب تليين الحمية والكراهية التى تشعلها غيرته على ملته، أو خبث الآخرين»[3]..

(1) نفسه، ص19.
(2) لوك، التسامح، ص19.
(3) نفسه، ص36 - 37.

على هذه الأخلاقيات قام الدين... أى دين... لتنبعث الأخلاق من جوهر الدين، وليوقد الدين من مشكاة الأخلاق.

أما الدعامة الثالثة فهى التسامح على أساس ضرورة الإختلاف العقدى، لأن الله كفل حرية الإختلاف، إذ لا إكراه فى الدين، فالحرية مكفولة للجميع للتوجه العقدى حيثما شاءت إرادة كل فرد... «أما فيما يختص بالعبادات الظاهرية فأقول أولاً إنه ليس من سلطان الحاكم أن يفرض طقوسًا معينة لعبادة الله بقوة القانون سواء فى كنيسته أو فى أية كنيسة أخرى، وسبب ذلك ليس مردودًا فقط إلى أن هذه الكنائس مجتمعات حرة وإنما هو مردود أيضًا إلى أن الممارسات الخاصة بعبادة الله ليس لها من تبرير سوى أن أصحابها يعتقدون أنها مقبولة لدى الله. ولهذا فإن العبادة التى تخلو من الإيمان ليست حسنة فى ذاتها وليست مقبولة من الله، ومن ثمَّ فإن فرض مثل هذه العبادة على شعب يرى أنها مناقضة لمعتقداته يعنى إجبار هذا الشعب على الإساءة إلى الله، وهذا النوع من العبث تعجز اللغة عن التعبير عنه لسبب بسيط وهو أن الغاية من أى دين هى إرضاء الله، وأن الحرية ضرورة لتحقيق تلك الغاية»[1]... وطالما أن الحرية مقصد دينى وعقدى بالأساس فإن الذين يضطهدون المخالفين لهم باسم الدين، أو باسم الدفاع عن العقيدة هم منتهكون لهذا الدين الذى ادَّعوا الذب عنه... «والآن أنا أسأل ضمائر أولئك الذين يضطهدون ويعذبون ويدمرون ويقتلون بحجة الدفاع عن الدين، هل هم يفعلون كل ذلك وقلوبهم مملوءة بالصداقة والطيبة؟ وإذا كان جوابهم بالإيجاب فأنا لن أعترف بذلك إلا

(1) نفسه، ص44.

عندما أرى أولئك المتعصبين الشرسين يقومون أصدقائهم ومعارفهم عندما يعصون قواعد البشارة، و إلا عندما أراهم يحاربون بالنار والسيف أعضاء ملتهم الذين تلوثوا بالرذائل، والذين هم معرَّضون للعقاب الأبدى بسبب عدم طهارتهم، و إلا عندما أراهم يُعبرون عن حبهم ورغبتهم فى خلاص نفوسهم وتحملهم لآلامهم وتحملهم لجميع ألوان القسوة، فإذا كانوا يزعمون أنهم يجردونهم من ممتلكاتهم و يذيقونهم العذاب والجوع فى سجون قميئة و يقتلونهم فى نهاية المطاف، كل ذلك إستنادًا إلى مبدأ المحبة و إلى محبتهم لأرواح هؤلاء، أقول إنهم إذا كانوا يفعلون كل ذلك من أجل أن يكونوا مسيحيين وأن يطمئنوا على خلاصهم ليس إلا، لماذا إذن يمارسون الدعارة والإختلاس و إيذاء الآخرين وكل ألوان الشرور، بحيث إستمرئوا إرتكاب الإثم الشيطانى لكى يسيطروا على رعاياهم وشعوبهم، فمثل هذه الأمور وما شابهها مناقضة تمامًا لمجد الله ولطهارة الكنيسة و إخلاص النفوس، بل إن تناقضها أشد من تناقضها مع الإنشقاق على أى قرار كنى أو مع الإنفصال عن العبادة الجماعية حتى ولو كان أسلوب الحياة تقيًا، لماذا إذن هذه الحمية المشتعلة تجاه الله والكنيسة وخلاص النفوس؟»[1]... و يستمر لوك فى توجيه النقد ذاته والتأكيد على جوهر القيم المفترض تحقيقها بدلاً من إنتهاك الدين باسم الدين فيقول: «وتأسيسًا على ذلك فلا الأفراد ولا الكنائس ولا الدولة لديها أى مبرر للإعتداء على الحقوق المدنية والخيرات الدنيوية بدعوى الدين، أما الذين لا يرون هذا الرأى فإن عليهم أن يتأملوا أنفسهم وهى تزرع فى البشرية بذور النزاع والحرب... وتثير الكراهية والنهب والسلب

(1) لوك، التسامح، ص20.

بلا حدود، فلا السلام ولا الأمان ولا الصداقة بين الناس ممكنة ومصانة طالما ساد الرأى القائل بأن الهيمنة مؤسسة على اللطف الإلهى وأن الدين لا ينتشر إلا بقوة السلاح»[1]..

بهذه الدعائم الثلاث... أخلاق التراحم... مقاصد الدين الحقيقية و إهتمامها بالإنسان أولاً وأخيرًا... الحرية الكاملة للإعتقاد... قامت دعوة لوك إلى التسامح العقائدى اللامحدود... التسامح الذى يجمع بين شتات الجميع تحت مظلة واحدة خالية من عصبية الدين أو التوجه... إنها مظلة الإنسانية.

إن التسامح يمثل جوهر الدين... بل هو فريضة الدين الحقيقية... «إن التسامح بين أولئك الذين يعتقدون عقائد مختلفة فى أمور الدين يتسق تمامًا مع العهد الجديد الذى أتى به السيد المسيح... كما يتمشى مع مقتضيات العمل الإنسانى الحق، حتى إنه لأمر غريب عند الناس أن يكون المرء أعمى إلى الدرجة التى لا يرى فيها ضرورة التسامح ومزاياه فى ضوء ساطع كهذا، وأنا هنا لا أنشد إستثارة كبرياء البعض ولا طموح البعض الآخر، كما أننى لا أطمع فى إثارة شهوة البعض وحميتهم غير المتصفة بالإحسان، فهذه أخطاء ربما لا يمكن إستئصالها من الأمور الإنسانية، كما أنه لا يمكن لأى إنسان أن يتسم بها دون أن يُغلفها بإطار ملون جذاب لكى ينال الثناء، فى حين أنهم محكومون بشهواتهم الجامحة، لكن من أجل ألا يدّعى هؤلاء الذين يمارسون الإضطهاد والقسوة، والذين لا ينتمون إلى المسيحية فى شىء، أنهم يقومون بهذه الأفعال من أجل الصالح العام وتنفيذ القانون، ومن أجل ألا يسعى

(1) نفسه، ص35.

آخرون بدعوى الدين، إلى أن يجدوا فى الدين خلاصًا لما يرتكبونه من إباحية و إنحـلال، ومن أجل ألا يفرض أحد على نفسـه أو عـلى غيره أى شىء تحت دعـاوى الولاء والطاعـة للأمير، أو الإخلاص والوفاء فى عبـادة الله... أقول إنـه من أجل هذا كله ينبغـى التمييز بدقة ووضوح بـين مهام الحكم المدنى وبين الدين، وتأسـيس الحدود الفاصلـة والعادلة بينهـما، و إذا لم نفعل هذا فلـن تكون هنـاك نهاية للخلافات التى ستنشـأ على الـدوام بين من يملكون الإهتـمام بصالح نفوس البشر من جهة، ومن يهتمون بصالح الدولة من جهة أخرى»[1]..

إنه يضع حدودًا أمام تدخل الكنيسـة أو غيرها من التوجهات الدينية فى شئون الدولة بحيث يمنحون صكوك الغفران.. أو صكوك الجنة والنار.. أو صكوك الوطنية والعمالـة.. كل هذا مرفوض عقلاً وشرعًا وفكرًا، فلا أحد يملك الجنة أو النار، ولا أحد يملك الوطنية أو العمالة مثلما يدَّعى علمانيوا مصر وبعض الدول العربية، ولا أحد يملك التحدث على الأرض باسم السماء... لا يوجد متحدث باسـم الله... ولا نائب عـن النبى ﷺ.. فقط توجد دولة... يوجـد قانون... توجد حرية فى الإعتقاد، لا دخل للدولة فى العقيدة... لكن تدخلهـا الرئيس والثورى فقط إذا مـا انتُهك القانون... إذا ما هددت الدولة مخاطر خارجية أو داخلية يتفق عليها العقلاء والموضوعيون، وليسـت محض إجتهـادات لفقهاء السـلطان وأصحاب هتافـات الموكب... لـذا يضع لوك خطًا مستقيمًا لا ينبغى لأحد تخطيه... خط الحرية الدينية... «و إن كان فى إمكاننا الحديث بصراحة ووجهًا لوجه فيجب ألا تُسـلب الحقوق المدنية فى

(1) لوك، التسامح، ص23.

الدولة من أى إنسان بسبب ديانته»[1]... «إنه لا يحق لأى إنسان مهما تكن رتبته الكنسية، أن يحرم إنسانًا آخر ليس عضوًا فى كنيسته وليس منتسبًا إلى إيمانه، من الحرية أو من أى جزء من خيراته الدنيوية بحجة أنه متباين عنه دينيًا، لأن ما هو غير مشروع للكنسية لا يمكن أن يصبح مشروعًا لأى عضو من أعضائها إستنادًا إلى أى حق كنسى»[2]..

وعلى الكنيسة أن تحمى تلك الفرضية، حرية الإعتقاد، عليها أن تذود عنها بإعتبارها أحد مقاصد الله... أحد شرائط العلاقة بين السماء والأرض، لتحمى الضعفاء من أذى الأقوياء بسبب العقيدة، لنرى لوك متسائلاً: «إلى أى مدى يمتد واجب التسامح؟ وما الذى يتطلبه هذا الواجب من كل إنسان؟» ويجيب بالقول: «أولاً: أعتقد أن أى كنيسة ليست مكلفة بحكم واجب التسامح بالإحتفاظ بأى إنسان فى حضنها، يصر - رغم التنبيهات - على الخروج على قوانين المجتمع لأن هذه القوانين هى أساس الرباط الاجتماعى، فإذا سُمح بانتهاكها من غير عقاب، فإن المجتمع سرعان ما يتفكك، ومع ذلك فإنه فى مثل هذه الحالة يجب ألا يُضاف إلى الحرم (الطرد من الكنيسة) أى خدش سواء بالكلمة أو بالفعل، مما يترتب عليه إحداث ضرر فى بدنه أو فى ممتلكاته، لأن استخدام القوة من إختصاص الحاكم وحده، كما أنه لا يحق لأى إنسان، فى أى وقت، استخدام القوة إلا للدفاع عن النفس ضد أى عنف غير مشروع»[3]... ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى... من نواحى نفسية وأبعاد ذاتية تفرض التراحم والإحسان لا التنابذ والتقاطع فيقول: «ليس من

(1) نفسه، ص63.

(2) نفسه، ص36.

(3) لوك، التسامح، ص31.

حـق أى شـخص، بأى حال من الأحوال أن يحقد على شـخصٍ آخر فى شـأن متعه المدنية لا لسـبب إلا لأنه ينتمى إلى كنيسة أخرى أو يؤمن بدين آخر، فكل الحقوق والإمتيازات التى تخص هذا الشـخص من حيث هو إنسـان أو مـن حيث هو مواطن من اللازم أن تكون محفوظة له ودون أن تُنتهك، ذلك أن هـذه الحقـوق والإمتيـازات لا علاقة لها بالدين، ومن ثـمَّ يجب ألا يلحق هذا الشـخص أى عنف أو ضرر سـواء كان مسـيحيًا أو وثنيًا... نعم، يجب ألا نقنع بوضع معايير ضيقة للعدالة والمحبة والإحسـان، بل يجب أن نضيف أيضًا السـماحة، فهذه كلها يوصى بهـا الإنجيل، و ينصح بها العقل، ومطلوبة منا بحكم العلاقة الطبيعية بين الشـخص وزملائه الآخرين، فإذا ضلَّ إنسان الطريق السـوى فذلك من سـوء حظه، ولا يترتب على ذلك أى ضرر يلحق بـك، ومن ثمَّ فـلا يحق لك معاقبته فى أمـوره الدنيوية لمجرد أنـك تعتقد أنه سيكون بائسًا فيما يحدث له فى الحياة الآخرة»[1]..

و يبلـغ لوك بالتسـامح الـذروة فى طلبـه من الجميـع أن يتسـامحوا... إذ التسـامح قبس من نور الله... نسمة من نسائم روحه... «إنه مهما يبدو لك أن هـذا الرأى أو ذاك مسـتنبط من الكتاب المقـدس، فإنه لا يحق لك بالتالى أن تفرضـه عـلى الآخرين بدعوى أنه بنـد ضرورى من بنـود الإيمان إلا إذا كنـت عـلى قناعة بأن الآخر لديـه بند الحق فى أن يفرض عليـك آراءًا بنفس الأسلوب، وأن تضطر إلى تقبل جميع الآراء المتباينة والمتناقضة التى يؤمن بها اللوثريـون والكالفنيون واللواميون والمعمدانيون والطوائف الأخرى التى إعتاد مبتكـروا الرموز والمذاهـب والعقائد أن يعلنوهـا للآخرين على أنها

(1) نفسه، ص32.

إستناجات أصلية وضرورية من الكتاب المقدس، وأنا أعجب من هؤلاء الذين يسرفون فى عنادهم عندما يعتقدون أن فى إستطاعتهم شرح البنود اللازمة للخلاص بأسلوب أكثر وضوحًا من أسلوب الروح القدس الذى هو حكمة الله الأبدية واللامتناهية»[1].

ذاك هو التسامح اللامشروط... غير المرتبط بدين أو عقيدة أو توجه أو أيديولوجية، إنه تسامح لأجل الإنسان... لأجل المعانى الإنسانوية... لأجل المبادئ والقيم الإنسانية... ويا ليت إسلاميوا اليوم يسمعون أو يعقلون... التسامح فريضة أقرتها الأديان السماوية... فأين أولئك الذين سبوا عالم الإنسانية أحمد زويل ورموه بالكفر والزندقة من قيم هذا الدين؟ وأين الذين أفتوا بقتل المعارضين من سماحه وروعة إنسانية الأديان؟ وأين الذين حبسوا الإنسان خلف القضبان باسم الله...

الدين تسامح... رحمة... نور... ولكنهم حولوه إلى تعصب... قسوة... ظلام... الدين جاء لأجل الإنسان، وهم أبوا إلا جعل الإنسان ضحية للدين... حبسوا الرسالات فى ظاهر العبادات... مع أن الله لا يسكن المعبد... الله يسكن الإنسان... أمر بإحيائه... بمعاشه... يسر له كل شىء... وخلق لأجله كل شىء... وهم أبوا رحمة الله للإنسانية... فحولوا رحماته سبحانه إلى جحيم... إلى نار مستعرة... إلى قوة ضد الإنسانية لم يعهد لها الإنسانيون مثيلاً... ليستمر القتل والعبث بحياة الإنسان باسم الدين، وباسم القيم، بل والأعظم من ذلك... باسم الله ذاته.

(1) نفسه، ص69.

الفصل السابع

فولتير...

فى إحـدى ضواحى باريس مـن العام 1694م، تسـتقبل فرنسـا فتاها المشاغب... فرانسوا آريت... الذى اشتُهر فيـما بعد باسـم «فولتير»... وقـد ولد مريضًـا، ضعيف البنية، ينتمى والداه لأسرة من صغار النبلاء، فوالده كان يعمـل كأمـين صندوق فى ديوان المحاسـبات، ووالدته كانـت تنتمى لعائلة مـن صغار نبلاء مقاطعة بواتو، هذه التنشـئة تركت آثـرًا كبيرًا على توجهه الفكـرى، يقول د. مصطفى النشـار: «وهكذا جاء فولتـير إلى الحياة بصحة عليلة مكنته من العيش إلى سـن الثامنة والثمانين، و إن ظل يشكو منها دون إنقطاع، كما أن أصله البرجوازى و إن كان مرضيًا للكثيرين إلا أنه لم يكن مرضيًا لصاحبه، فقد كان يحرمه من الإمتيازات العديدة التى كانت مقصورة فى تلـك الفترة على طبقة النبلاء العليا، ممـا كان مصدرًا للقلق والإضطرابات لإنسان فى مثل طبيعته»[1].

ويُجمع المؤرخون على أن فولتير كان مختالاً، معجبًا بنفسه، فصيحًا بذيئًا،

(1) د.مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سنة 2014م، ص341.

وأحيانًا غادرًا وفاسقًا - بحسب شهادة ول ديورانت - لقد كان رجلاً يحمل أخطاء زمنه وعصره ومكانه، ومع ذلك فقد كان ينقلب أحيانًا و يصبح لطيفًا منصفًا، سخيًا مسرفًا فى تبديد نشاطه ومساعدة أصدقائه، وتحطيم أعدائه، وكان قادرًا على قتل عدوه بضربة قلم[1].. وهذه شهادة قرأتها عند اثنين أو ثلاثة ممن كتبوا عن فولتير، ولكن النفس لا تطمئن إليها ولو بالنذر اليسير، فهم أنفسهم شهدوا له بالكرم والعطف على المساكين والوقوف دائمًا فى صف الإنسانية، لقد ذكر معاصروه أنه كان طيب القلب، رقيق الشعور، كثير الإحسان... وأن من أحسن إليهم كانوا فى أغلب الأحيان يجهلون مصدر ذاك الإحسان... بل إن أحد أصدقائه مرض، ولم يكن مع فولتير مالاً إذ كان مغمورًا آنذاك، فباع أثاث بيته لإسعاف صديقه[2].

كما كان فولتير يكره منظر الدماء، حتى لو سالت بدون عمد... حتى لو كانت جروحًا طفيفة لم ترقى إلى العمق أو القتل... لقد سقط عاملان خلال إحدى الحفلات انكسرت أرجلهما... خُدشت أقدامهما وقطرت بعضًا من الدماء... يثور فولتير... يخرج على الجميع بكلمات بكائية... لا تصور صانعين شقيين يسقطان مضرجين بدمائهما... إن هذا المنظر الكئيب المؤلم قد أفسد على الجميع لذة أجمل يوم فى العالم»[3]..

ولكن فولتير لم يكن فيلسوفًا كأصحاب المذاهب الفلسفية المجردة، بل كان صاحب منهج فلسفى تغلغل فى كل كتاباته الأدبية، أضف إلى ذلك

(1) ول ديورانت، قصة الفلسفة، ص248.
(2) سليم سعده، فولتير، سلسلة اقرأ، دار المعارف، مصر، 1948م، ص26.
(3) المرجع نفسه، ص26 - 27.

تمتعه بذهنٍ متقد يتطلّع إلى كل شيء، لا يعرف الكل ولا الملل... تجذبه جميع البحوث الإنسانية... وجميع الفروض وجميع الأفكار المتشبعة فى العلوم المختلفة، مع التحرر التام فى دراسته لتلك العلوم هادمًا للصنمية الفكرية، وعابدًا لإله فكرى واحد اسمه (العقل)[1].

ويرى البعض أن هذه الصفات كلها، خيرها وشرها، صفات ثانوية لا تدل على حقيقة فولتير، لأن الشيء المدهش المثير فيه هو خصوبة وتألق عقله الذى لا ينضب أو يكل، لقد كتب فى حياته تسعة وتسعين كتابًا، تتألف كل صفحة من صفحاتها بنور الحكمة والفائدة، على الرغم من تنقلها من موضوع لآخر حول العالم، وامتاز بشجاعته وسعة إطلاعه وصراحته[2].

ودخل فولتير إلى رحاب الأدب فصار فيلسوفًا أديبًا يبز الأدباء فى عملقته ورقة أدبه وروعة أسلوبه، يقول د. طه حسين: «أنا أحد الألوف أو الملايين الذين يعجبون بأدب فولتير، وينتهى بهم الإعجاب إلى الفتنة فى كثيرٍ من الأحيان، لأن هذا الأدب لم يُكتب له الخلود فحسب، وإنما كُتب له الخلود والشباب جميعًا، أو قل كُتب له الخلود والشباب وملائمة الحياة الإنسانية على إختلاف العصور والبيئات والأجيال»[3]... إلا أن هذا الأدب لم يجر عليه سوى المتاعب بسبب نقده اللاذع للأوضاع التمييزية والتعسفية التى تحياها فرنسا، مما تسبب له فى السجن أكثر من مرة، ومما تسبب له فى النفى

(1) أندريه كريسون، فولتير، ترجمة د. صباح فخر الدين، منشورات عويدات، باريس، ط2، سنة 1984م، ص43 وما بعدها.

(2) ول ديوارنت، قصة الفلسفة، ص249.

(3) فولتير، القدر، ترجمة د.طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، 1960 م، المقدمة، ص7.

الإجبـارى إلى إنجلـترا مرة أخـرى لتكون حريتهـا نموذجًا محببًا إلى نفسـه يشـتاق تحقيقه لبلاده... لقـد أعجب بإنجلـترا بالغ العجـب... حريتها... معابدها... شـوارعها... كل شيء فيها يختلف عن فرنسا، تلك التى لا يوجد بهـا مكان لأحرار الفكر سـوى الباسـتيل... فكتب فى ذلك عدة رسـائل لم تكن إلا ندمًا وحزنًا وكمدًا على وطنه الفرنسى من ناحية، واستنهاضًا وتعجلاً لثورتهـا من ناحية أخرى، فكانت تلك الرسـائل بمثابـة نعيق الغراب الأول فى الثورة الفرنسـية... مما جعل فكتور هوجو يقول: «إن اسـم فولتير يصف القـرن الثامـن عشر كله، لقـد كان لإيطاليا نهضة، ولألمانيـا إصلاح، ولكن فرنسا كان لها فولتير، فقد كان لبلاده بمثابة النهضة والإصلاح، وكان نصف ثورتها»[1].

وعلى الرغم من تلك المتاعب التى مرت به، والسجن من ورائه سجن إلا أنه كوَّن علاقات طيبة ببعض رجال الحكم، وعلى رأسـهم الملك فريدريك، حيث عهد إليه بمهمة دبلوماسـية إلى برلين عام 1743م، ورغم عدم توفيقه فى تلـك المهمة إلا أن نجمه كان قد عـلا وازدهر، وحيث كان موضعًا للحفاوة والتكريـم، مكنتـه مـن نيـل لقب «مـؤرخ فرنسـا»... كما أصبـح عضوًا بالأكاديمية الفرنسية عام 1746م، رغم معارضة رجال الدين المترفين، والذين كان لهـم الأثـر الأكبر فى توجهاتـه ضدهم وفى دعوته إلى التسـامح لنبذ ما يرسخون له من تعصب.

هى إذن حياة مليئة بالعمل والجد والإجتهاد والصبر... رجل ولد عليلاً... دخل فى معارك فكرية... أودع السجن مرات متتالية... نُفى من وطنه... لم

(1) ول ديورانت، قصة الفلسفة، ص250.

تُثنه كل هذه الأحداث عن الكتابة وتوجيه النقد لبلده لأجل مستقبل أفضل، لدرجة أن كثيرًا من المؤرخين كانوا يعدونه وقود الثورة الفرنسية وأصلها ومبتعثها... هو من أثَّر فى الناس بتعاليمه وتنويره... هو الخالد عبر الزمان بدعوته إلى التسامح ونبذ التعصب... إقامة سلام عالمى... الوحدة بين جميع البشر، هى دعوات خالدة عبر الزمان... لها السلطة المطلقة بالمثل تمامًا كما كان لفولتير السلطة والنفوذ، يقول ديورانت: «لا تجد كاتبًا له من النفوذ فى حياته مثل فولتير، وعلى الرغم من النفى والسجن ومصادرة أتباع الكنيسة والدولة كل كتبه تقريبًا، فقد شق طريقه بجرأة وقوة لإعلان الحقيقة، إلى أن طلب الملوك والأباطرة والبابوات رضاه، واهتزت العروش أمامه، ووقف نصف العالم مصغيًا لسماع كلمةٍ منه»[1].

وظل فولتير شعلة من النشاط متوقدة، نارًا يتطاير شررها... تنبعث قوة ونورًا... ولكنه فى أواخر أيامه آثر العزلة فى عمق الريف... يزرع الأرض نهارًا، ويستدفئ بهوائها ليلاً... ويشبع وجدانه ببديع ألوانها وزهورها عصرًا، يلتقى بالناس ليفيض عليهم من عطفه ووجدانه... وجه عنايته بالفقراء المتهمين بسوء سلوكهم، وكان دائم السعى لدى السلطان للحصول على العفو عنهم، ويعمل بعد ذلك على تعيينهم فى أعمال شريفة، ويواصل فى الوقت ذاته مراقبتهم وإرشادهم ونصحهم... بلغ حدًا من التسامح العملى ينقطع نظيره... فعندما ركع أمام شابان صغيران طلبًا للعفو منه لأنهما سرقا بعضًا من أمواله، انحنى وأخذ بيديهما وأوقفهما وعفا عنهما... وقال لهما «إن الركوع لله وحده... ولا ينبغى لكما الركوع أمام أحد سوى الله»[2]..

(1) ديورانت، المرجع السابق، ص250.
(2) نفسه، ص211.

وظل فولتير فى أرضه ومزرعته فى ريف فرنسا... يشعر بالسعادة فى تلك الحياة البعيدة عن ماديات الناس... «أنا هنا كما تركتمونى، فلست بالغ الفرح ولا بالغ الترح، ولست بالغ اليسر ولا بالغ العسر، وأتمتع بصحة تامة، حائزًا كل ما يجعل الحياة طيبة خالية من الحب والطمع والحسد، وترونني أجرؤ على عدَّ نفسى سعيدة جدًا ما بقى هذا»[1]... ثم كتب إلى سكرتيره ما يشبه الوصية... «أموت على عبادة الله، ومحبة أصدقائى، وكراهية أعدائى، ومقتى للخرافات والأساطير الدخيلة على الدين»[2]..

وفى يوم الحادى والعشرين من مارس العام 1778م يرحل عن عالمنا فولتير، ليترك لنا فلسفة التسامح، باقية أبد الدهر، شاهدة على سمو روحه، وعظمة قيمة، وروعة مبادئه... لتسجله تلك الإنسانية الرائعة، فى مصاف الملائكيون...

□□□

تتسم فلسفة فولتير بالبعد الإنسانى العميق... يُشعر قارئه بأنه رسول الإنسانية، جاء لأجل خلاص الإنسان من ماديات الحياة وشهواتها وأدرانها ومتاعبها... تشعر ويكأنه صاحب رسالة سامية وهو كذلك بحق... فى كل تعبيراته تلمس البعد الإنسانى، فى أخلاقه... صفاته... حياته العملية... كل شىء عنده يأخذ بعدًا إنسانيًا يرقى لدرجة الملائكية... إسمع إلى إبتهاله إلى ربه... " إلهى... لم أعد إلى البشر أتوجه، بل إليك يا رب جميع الكائنات والعوالم والأزمات... فإن جاز لمخلوقات ضعيفة، تائهة فى فضاء العالم

(1) فولتير، الرسائل الفلسفية، ترجمة عادل زعيتر، مكتبة ومطبعة الغد، ط1، القاهرة، 2010م. ص138.

(2) ديورانت، المرجع السابق، ص312.

اللامحدود... وغير منظورة من قبل بقية الكون، أن تتجرأ فتطلب منك شيئًا... أنت يا من رسم كل شيء، ويا من قضاؤك ثابت سرمدى، فهو أن تتلطف وتنظر بعين الرحمة والشفقة إلى الأخطاء والضلالات المترتبة على طبيعتنا ولا تسمح بأن تكون هذه الأخطاء والضلالات سبب هلاكنا، إجعلنا نتآزر لنحمل عبء حياة صعبة وعابرة، ولا تسمح بأن تغدو الفوارق الطفيفة بين الملابس التى تغطى أجسادنا الواهنة، أو بين لغاتنا التى هى سواء فى عدم إكتمالها أو بين عاداتنا السخيفة، أو بين قوانيننا التى تشكو من ألف علة وعلة، أو بين آرائنا المغلوطة، أو بين شروط حياتنا الشديدة التفاوت فى نظرنا والمتساوية تمامًا فى نظرك... لا تسمح بأن تغدو كل هذه الفوارق الطفيفة، التى هى من السمات المميزة لتلك الذرات المسماه «بشرًا» علامات حقد وإضطهاد، ولجعل الذين يولعون الشموع فى رابعة النهار إكرامًا لك، يتحملون من يكتفى بنور شمسك، واجعل الذين يُغطون لباسهم بكتاب أبيض حين يدعون إلى محبتك يمتنعون عن كراهية من يقولون الشيء عينه وهم مرتدون معطفًا من الصوف الأسود، واجعل سواء فى نظرهم أن يتعبَّدوا لك برطانة متحدرة من لغة قديمة أو برطانة آتية من لغة أكثر حداثة، وإجعل أولئك الذين يرتدون لباسًا مصبوغًا بالأرجوان أو بالبنفسج، ممن يتبخترون فوق رقعة صغيرة من طين هذا العالم ويملكون بعض القطع المستديرة من معدن بعينه يتنعمون بلا عجرفة بما يسمونه «الثروة» و«الأبهة» واجعل الآخرين فى الوقت نفسه ينظرون إليهم بلا حسد، فأنت خير من يعلم أنه ليس فى هذه الأباطيل ما يدعو إلى الحسد أو إلى التباهى»[1].

(1) فولتير، رسالة فى التسامح، ترجمة هنرييت عبودى، دار بترا للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا الحرة، 2009م، ص169.

إبتهال أخلاقى... إنسانى... يحمل كافة القيم الإنسانوية... حب... تسامح... مساواة... نبذ لكل تعصب... وأى تعصب... تواضع... نبذ للثروات الزائدة عن الحد... للغنى المترف... للتبذير... أليست تلك تعاليم السماء فى كل قرنٍ وكل عصر؟! ألا تخرج تلك التعاليم الإنسانية من ذات مشكاة التعاليم السماوية... لتؤكد فى غير لبسٍ أن الإنسانية تتفق ومبادئ الديانات السماوية!!

اقرأ فولتير فى كل أحواله... رسائله... أدبه... كتبه... بل حتى شعره... كل ما كتب يتخذ بُعدًا إنسانيًا ملائكيًا...

«أنا جزء صغير من الكل الكبير... نعم، لقد حُكم على جميع الحيوانات بالحياة، لقد ولدت جميع المخلوقات بمقتضى القانون ذاته... وهى تتألم مثلى ومثلى تموت... يشد الصقر على فريسته الوجلة... ويطعن بمنسره الدامى أطرافها المرتعشة... ويبدو كل شىء على ما يرام فى عينيه لفترة... ويمزق النسر الصقر إلى قطع شر تمزيق... ويرشق الإنسان النسر بنباله ويقتله... ويسقط الإنسان فى غبار معارك الحروب... ويختلط دمه بدماء القتلى من رفاقه... ويصبح بدوره طعامًا للطيور الكاسرة، وهكذا كل شىء فى هذا العالم يئن ويتألم... لقد ولد الجميع للعذاب والموت... ومن فوق هذه الفوضى الشاحبة ستقول... ينزل الشر بواحد لخير الجميع... ما هو النعيم؟! عندما تصرخ فان يرثى له كل شىء حسن... إن الكون يناقضك، ويناقض قلبك... ويدحض مائة مرة أوهام عقلك... ما هو رأى هذا العقل الأوسع؟... صمتًا، إن كتاب القدر مغلق علينا... إن الإنسان غريب فى بحثه ولا يعرف من أين يجىء وإلى أين يذهب... ذرات معذبة فى فراش من طين يبتلعها الموت...

سخرية القدر... إن وجودنا ممزوج باللانهائى ولن نرى أنفسنا أو نعرفها أبدًا... إن هذا العالم مسرح للكبرياء والخطأ يعج بالمجانين المرضى الذين يتحدثون عن السعادة... لقد غنيت مرة بأنغام أقل كتابة وحزنًا بأن السرور المشرق هو الحكم العام، ولكن الوقت قد تغيَّر... وعلمنى تقدم العمر أن أشارك الناس فى إنكسارهم وأبحث عن ضوء وسط الظلام العميق... لا أقدر إلا أن أقاسى وأن أتذمر أو أتضجَّر»[1]..

كلمات تفيض رقة وحنانًا... تذوب فى عمق محيط الإنسانية... تفجر المبادئ الراقية تفجيرًا... تلعب على أوتار الفطرة السليمة... والقلوب النقية... إنها خير تعبير عن فولتير، فلا يوجد ما يدل على أى رجل أفضل من كلام الرجل نفسه، لقد صاغها سقراط من قبل «تكلم حتى أراك»... وفولتير الآن يتكلم... تشعر فى كلماته بالعذوبة... بأنك وجدت شيئًا تحن إليه... تهيج إليه مشاعرك... يطمئن إليه قلبك... تذوب عشقًا فيه أشواقك... تلكم هى المعانى الإنسانية التى يغمرها فولتير بعاطفته... يشبعها من قلبه... يترنم بها للقلوب والأفئدة الرقيقة، تأكيدًا منه على مقاصد الأديان السماوية فى حفظ النفس والحياة.. لا سلبها أو وأدها أو قتلها بأى أنواع القتل... ألم نسلف أن معانى الإنسانية مستمدة من قبس أنوار المشكاة الإلهية!!..

□□□

يثور البعض أحيانًا ويتساءلون... ألم يكن فولتير ملحدًا؟... ألم يكن لاأدريًا... أو لادينيًا... بمعنى أنه لا يؤمن بإله ولا بدين... أو بمعنى أكثر إتهامًا أنه كافر بالله، خالق الكون ومبدئه ومعيده؟!

(1) نقلًا عن ديورانت، قصة الفلسفة، ص281 - 282.

ولا أدرى كيف تمكن مصنفوا هذا الإتهام من تصنيفه؟! ظنى أنهم لم يقرئوا لفولتير ذاته... ربما قرئوا عنه ولكنهم لم يتطرقوا إلى ما كتب هو، وما أضلَّ ممن سمع عن ولم يسمع من!! كان يكفيهم أن يقرئوا وصيته التى أوردها ديورانت، والتى كانت آخر كلمات كتبها... وكان يكفى أن يقرئوا مناشداته المتتالية لله عبر كتاباته المختلفة... فكل ذلك دليل على عمق الإيمان... عمق التدين... عمق الإنسانية... لكن يبقى التساؤل أيضًا، متى خُيل لهؤلاء إلحاد فولتير وكيف؟!

وقبل الإجابة عن تلكم التساؤلات لابد من البحث عن علاقة فولتير بالله، أو بالسيد المسيح، أو بالرسالات السماوية، دون أن يمكننا أبدًا تجاوز نص كتبه ديورانت ملخصًا تلك القصة عند فولتير: «إن التفريق بين الخرافات والدين أمر أساسى بالنسبة لفولتير، فهو يُضفى على المسيح الصفات السامية والعظيمة التى لا تُضاهيها صفحات النشوة والغيبوبة المقدسة، ويصور المسيح بين الحكماء يبكى على الجرائم التى ارتكبها الناس باسمه، وقام فولتير أخيرًا ببناء كنيسة قال عنها أنها الكنيسة الوحيدة التى بُنيت فى أوروبا لعبادة الله، ويتجه إلى الله بصلاة جليلة، وفى مقاله «المؤمن بالله» نجده يعبر أخيرًا عن إيمانه بوضوح «إن المؤمن هو الإنسان المقتنع بوجود إله قوى وصالح خلق جميع الأشياء والكائنات، وهو يعاقب من غير قسوة على كل الذنوب، ويجزى بالخير على كل أعمال الفضيلة والخير، وهو لا ينضم إلى أى مذهب من المذاهب المختلفة التى تناقض بعضها بعضًا، إن دين الله هو أقدم الأديان وأكثرها إتساعًا، لأن عبادة الله البسيطة سبقت جميع الأنظمة فى العالم، وهو يتكلم لغة يفهمها كل الناس، بينما لا يفهم الناس بعضهم بعضًا، وهو صديق الحكماء، وليس الدين عنده ما جاء فى المتيافيزيقا من

آراء، ولا المظاهـر التافهة، ولكن فى العبادة والعـدل، وعمل الخير هو عبادة الله، والتسـليم له هو شريعته، وهو يغيث الملهـوف، ويُلبى المعوز ويحمى المظلوم»[1].

هذا النـص يلخص الإتهام والـبراءة... المحكمة والحكـم... إذ لم يكن فولتـير أبدًا ضـد الدين... ضد الإعتقاد... لم يكن مـن الملحدين... بل كان متشـككًا فى نوايا المتدينين... كان ضد السلطة الكنسية وليس الكنيسة... أدعياء الله وليس الله... الإمبريالية التسلطية أو الفاشية باسم الدين... كان يقدس الطبيعة النقية... التى تقر العدل وتقدس التسامح وتؤمن بالمساواة... كان يؤمـن بوجـود إله مفارق قـادر على كل شىء، صانـع، حكيم، ... «من الطبيعى أن يعترف الإنسـان بإلـه واحد عندما يفتح عينيـه... فالعمل يعلن عن العامـل، فتلك الكواكب التى ترقص حول الشـمس يحركها فنان عظيم مدهش، كـما أن الحيوانات، والنباتـات، والمعادن، منظمة بدقة ومسـتوفاة العدد والحركة... لن يشـك فرد أن المصورة أو الحيوانات المرسومة، من صنع فنـان ماهر، فهل يمكن أن تكون فى مثل هذا الذكاء دون أن تكون الأصول كذلـك»[2]... إنها ذات شـهادة الأعرابى الفج عن وجـود الله... «البعرة تدل عـلى البعير... والأثر يدل على المسـير... سـماء ذات أبـراج... وأرض ذات فجاج... ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير»...

إنهـا فطرة فُطر الناس عليهـا... إذ لا يعقل أحدًا وجـود خلق بلا خالق، صنعة بلا صانع، موجود بلا موجد... إن مجرد النظام والترتيب الدقيق لدليل

(1) ديورانت، قصة الفلسفة، ص302.
(2) نقلًا عن سليم سعده، فولتير، ص81.

كاف عـلى وجود إله مفـارق يرانا من حيث نراه، يقـول فولتير: «حين أرى النظام والآلية العظيمة والقوانين الميكانيكية والهندسـية التى تسود الكون والوسـائل والغايات التى لا عدد لها لجميع الأشـياء، يسـيطر علىَّ الإعجاب والإحـترام، وأرى حـالاً أنه إذا كانت أعمال البـشر وحتى أعمالى تضطرنى إلى أن أقر بوجود العقل فينا وجب علىَّ أن أقر بوجود عقل ذى نشـاط أكبر فى هـذه الآثـار التى لا حصر لها، وأقـر بوجود هذا العقـل الأعظم دون أن أخـشى أحـدًا بغير رأى، فليس مـن شىء يهز إعتقادى بهـذا المبدأ: كل عمل يثبت وجود عامل»[1].

إذن هـو مؤمـن بوجود إلـه... والإيمان عمـل قلبى محض لا يملـك أحدًا الكشـف عنـه، ولكن ما أكـثر أدلته عنـد فولتـير، فالإيمان ليـس أكثر من طهارة القلوب وحب الإنسـانية والعمل على توفـير الحياة لها، وما أكثر تلك المعانى الإنسـانية لدى فولتير، يقول د. النشـار: «لقد كان فولتير رسـولاً من رسـل الحرية الإنسـانية ومتعبدًا فى محرابها، ودعوته تلك للحرية الإنسـانية ولإطلاق طاقات العقل البشرية لم تكن معادية للدين على خطٍ مستقيم، بل كان مؤمنًا بوجود الله، مبرهنًا على وجوده بشتى البراهين العقلية»[2].

كل مـا فى الأمـر أنـه قد إنتقد مـا يفعله الكهنـوت الدينى باسـم الدين، الكنسـيون باسـم الكنيسـة... الحاكمون فى الأمر بأمر اللـه دون ولاية من الله... فالسقاوسـة والكهنة يسطرون علاقة مشبوهة بين الله وخلقه لأجل مصالح سياسـية دنيوية وليسـت دينية، بـل لا تمد إلى الدين بصلـة، فرأيناه

(1) فولتير، الرسائل الفلسفية، ص108.
(2) د. مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، ص360.

صارخًا في الشعب الفرنسي... «إنهم الكهنة الذين يعيشون على كدكم وتعبكم في راحةٍ وكسل، يثرون على حساب كدحكم وبؤسكم، ويتنافسون على شراء الذمم وإقتناء العبيد، ويوحون لكم بالتعصب المذموم، ليتمكنوا من سيادتكم والسيطرة عليكم، وينشرون بينكم الخرافات والأساطير، لا لتخافوا من الله، بل لتخافوهم وترهبوهم»[1].

يمكن فهم فولتير الحقيقي في هذا الإطار... الثورة ضد الكهنوت الديني المغتصب لسلطة الله والمتحدث باسمه... مع أن البشرية لم تعهد في تاريخ رسالاتها وسيطًا بين الله وخلقه، فكانت تلك الخزعبلات الكهنوتية لأجل مطالب محض دنيوية... منافع ذاتية خالصة عدَّها فولتير ظلمًا وطغيانًا... للدين من ناحية... وللإنسانية من ناحية أخرى، لأجل ذلك تحول من كاتب ساخر إلى مناضل حقيقي في الميدان، لأجل الحرية والكرامة الإنسانية، فغادرت الإبتسامة وجهه كما يقول: «كل ابتسامة أفلتت مني رغم إرادتي في ذلك الوقت كانت تثير في نفسي التبكيت وكأنها جريمة ارتكبتها»... وتبنى شعاره الشهير «اسحقوا العار»... وحرّك روح فرنسا ضد مظالم الكنيسة، لقد بدأ يصب نارًا فكرية أدت إلى تحطيم الرهبانية في فرنسا، وساعدت في قلب العرش، لقد أرسل دعوة إلى أصدقائه وأتباعه يدعوهم إلى المعركة... «وحدوا أنفسكم واقهروا التعصب والأوغاد، واقضوا على الخطب المضللة والسفسطة المخزية والتاريخ الكاذب، لا تتركوا الجهل يُخضع العلم، سيدين لنا الجيل الجديد بعقله وحريته»[2].

(1) ديورانت، قصة الفلسفة، ص298.
(2) نفسه، ص296.

لقد خـرج رجال الكنيسـة فى عهده عـن التعاليم الدينيـة الأصيلة التى بشَّر بها السـيد المسـيح، فما أكثر ما يناقضون بأفعالهم ما يؤمنون به وتردده ألسـنتهم، فلقد استنكر المسيح التفرقة بين الكهنة، ولكن الكنيسة تقوم على نظام الدرجات حيث الرؤسـاء يتمتعون بالسـلطة المطلقـة، وصغار الكهنة يحيـون حياة بائسـة، كما أن المسـيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد امتدح الخشـونة والتذلل والزهد فى العيش، ولكن الكنيسـة تضرب المثـل بالكبرياء والخيلاء والبذخ الفاضح، ... لقد اسـتنكر الجشـع... ولكن البابا وكبار الإكليروس يعيشون فى بحبوحـةٍ ورغد ولا يفكـرون إلا فى زيادة ثرواتهم... لقد حث المسـيح على الصفح والغفران... ولكن الكنيسـة اخترعت التعصب وزرعت بذور الفرقـة والخـلاف فى كل مكان... وشـنت الحرب على المنشـقين والهراطقة والبروتسـتانت واليهود والمفكرين الأحـرار وأذاقتهم الإضطهاد وأهلكت آلاف البشر، فكانت من أعظم المصائب التى عرفتها الإنسانية»[1]...

منتهـى التناقـض بـين تعاليـم السـماء و إقترافـات الأرض... المفروض والواقع... الحقيقة فرضًا والحقيقة أرضًا... فالمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جاء بالنور... ولكـن المتبعين حالـوه ظلامًا دامسًـا... أطفئوا سُرُج المسـيح المبشرة بالخير والرحمـة والسـكينة، قلبوها إلى حيث المصالح الشـخصية وشـهوات الدنيا وسـلطتها وزخـرف متاعها... تلـك المفارقة التى كانت دافعًـا كبيرًا لفولتير للبحث عن عـودة جديدة إلى حيث المنبع الأصيـل للدين الحقيقى... حيث ثمرة عظيمة أكدها الدين وأقرتها الفطرة... تلكم هى ثمرة التسامح.

الثورة الحقيقية لدى فولتير ضد التعصب الدينى الذى تزعمته الكنيسة...

(1) د. مصطفى النشار، المرجع السابق، ص348.

ضد الفاشية الدينية والإمبريالية التسلطية التى مارستها على الإنسانية باسم الله وعلى المسيحيين باسم المسيح، لنراه ناقدًا لتلك السلطة الكنسية وكل مقدمات التعصب باسم الدين قائلاً: «وقد تقولون أن جميع الديانات الأخرى من صنع البشر، بينما الكنيسة الكاثوليكية الرسولية والرومانية وحدها من صنع الله، ولكن عجبًا: ألأن ديانتنا إلهية يتعين عليها أن تسود بالحقد والعنف والنفى ومصادرة الممتلكات والسجون والتعذيب والإغتيالات، وبالحمد المرفوع إلى الله على هذه الجرائم؟ والحق أنه بقدر ما يكون الدين المسيحى إلهيًا، يتعين أن تكف يد الإنسان عن التحكم به... فما دام الله هو من صنعه، فالله هو من سيثبته و يصونه من دون عون أحد، أنتم تعلمون جيدًا أن التعصب لا يولد إلا المنافقين أو المتمردين، فياله من خيارٍ وخيم! وهل تبغون فى النهاية اللجوء إلى جلادين لدعم ديانة إله فتك به الجلادون، إله لم يدع إلا إلى الرفق والصبر»[1].. ولعل هذا النص ليس موجهًا إلى مسيحىَّ عصر فولتير فقط، ولكن أثره ممتد التوجه فى كل عصر... فلنوجهه إلى داعش اليوم... و إلى الجبهات المسلحة باسم الله... باسم الدين... باسم الكهنوت... فكلهم ممن يتاجرون بالله فى مزاد الدماء بجهلٍ أو بغاية... بقصد أو بغير قصد... إنهم المتاجرون بالإنسانية فى سوق الحيوانية... المقترفون لكل شر.

وكم ثار فولتير لمثل ذاك التعصب، كم نقده ووجه له الضرب فى الصميم، لقد وصف المسيحيون بالقتلة، القتلة باسم الدين... «أقولها مستفظعًا و إنما بصدق، نحن المسيحيون مَن مارسنا الإضطهاد، نحن كنا الجلادين والقتلى!

(1) فولتير، رسالة فى التسامح، ص85.

ومـن قتلنا؟ إخواننا... نحن الذين دمَّرنا مئة مدينة رافعين فى أيدينا الصليب أو الكتاب المقدس، نحن الذين لم نكف عن سـفك الدماء وعن إشـعال نار المحارق منذ عهد قسـطنطين... وحتى نوبات آكلى لحـوم البشر المقيمين فى جبال السيفين التى ما عادت تتكرر اليوم والحمد لله»[1].

تلـك هى حقيقة الله فى قلب فولتير... الدين... العقيدة... ثم الثورة ضد العنـف الذى يدَّعيه المعتقدون باسـم العقيدة... الأرضيون باسـم السـماء، لأجـل أن يبنى لبنة عظيمة طالما راودته فى حلمه ويقظته، إنها لبنة التسـامح اللامحدود... اللامشروط... التسامح بلا ضفاف.

❐❐❐

كان حلـم فولتـير الوصـول إلى مجتمع ملائـكى أخلاقيًـا... أو على الأقل مجتمـع يتمتع بالصفات الإنسـانية، هكذا تؤكد غالبيـة نصوصه التى وقعت عليهـا يديـى، حتـى النصـوص بلغتهـا الأصلية تؤكـد قيمة التسـامح والبر والإيمـان باللـه سـبحانه دون واسـطة وتفويـض السـلطة الكنسـية، فهذه الأفكار مما ملأت كيان فولتير، فنراه فى الرسـائل الفلسـفية وهو يقص علينا قصص الرحالة والمسـتعمرين والحروب الأهلية وغيرها من تلك الأحداث، يقـول عن أحـد تلك البلـدان: «ولم يكـد يُقيـم حكومته حتى جـاء هذه المسـتعمرة تجار كثيرون ليُعمروها، ويأنس أبناء البلاد الأصليون إلى هؤلاء الكويكريين المسـالمين رويدًا رويدًا، وذلك بدلاً مـن أن يفروا إلى الغاب، ويحب أبنـاء البلاد الأصليون هؤلاء القادمين الجـدد بمقدار مقتهم للنصارى الآخريـن الفاتحين لأمريكا والمخربين لها، ولم يمض غير زمن قليل حتى أتى

(1) فولتير، رسالة فى التسامح، ص85.

عدد كبير من هؤلاء المتوحشين المزعومين، الذين فُتنوا برفق هؤلاء الجيران، طالبين من وليم بن أن يقبلهم بين أتباعه، وكان من المناظر الجديدة أن يُرى أمير يخاطبه جميع الناس بصيغة المفرد، وأن يحادث والقبعة على الرأس، وأن تُرى حكومة بلا قساوسة وأمة بلا سلاح ومواطنون متساوون أمام القضاء وجيران بلا حسد»[1]..

وكم ثار فولتير ضد كل تعصب، خاصة التعصب باسم الدين، و يضرب لذلك العديد من الأمثال التى تمثل وصمة عار فى جبين الإنسانية، من ذلك أن فرقة دينية صغيرة من الدانمارك كان مبدؤها السعى وراء العالم الأفضل، فأتباع هذه النحلة كانوا يصبون إلى تأمين الخلاص الأبدى لأشقائهم من البشر، غير أن النتائج المترتبة على مبدئهم كانت فى منتهى الشذوذ، إذ كانوا يعتقدون أن الأطفال الذين يموتون قبل تلقيهم سر المعمودية محكوم عليهم بالهلاك الأبدى، فى حين أن الأطفال الذين يقضون بعد معموديتهم مباشرة ينعمون بالمجد السرمدى، لذلك كانوا يذبحون كل من صادفوا من أطفال حديثى المعمودية من كلا الجنسين يقينًا منهم لا ريب بأنهم يقدمون لهم الخير، ... إذ بقتلهم هؤلاء الأطفال يقونهم من الخطيئة وعذابات الدنيا والجحيم... و يرسلونهم بكل تأكيد إلى الجنة، ولكن ما فات أولئك الناس الخيِّرين أن يدركوه هو أنه لا يجوز اقتراف فعل شر صغير فى سبيل خير عظيم، وأنهم لا يملكون أى حق للتصرف بحياة أولئك الأطفال، وأن الآباء والأمهات هم من فصيلة البشر، وأن معظم البشر يفضلون أن يبقى أبناؤهم وبناتهم إلى جوارهم على أن يُذبحوا كيما يدخلون الجنة، ومن ثمَّ

(1) فولتير، الرسائل الفلسفية، ص 23

فالواجب على القاضى أن يعاقب على جريمة القتل حتى ولو اقتُرفت بنية حسنة[1].

أى قتل هذا الذى يؤدى بالقاتل والمقتول إلى الجنة!!.. قضية مقززة... ضد الفطرة... وضد كافة المعانى الإنسانية، حتى القتل الرحيم الذى ينص عليه الطب هو مرفوض من الأخلاق البيوتيقية، مرفوض من الفطرة السليمة... لا يوجد قتل أبدًا تقبله الفطرة إلا للقاتل فقط... من قتل يُقتل... أما غير ذلك فلا تقبله الفطرة، فكيف وهو يتم باسم الدين... ثم هل يقر القانون الإلهى القتل أم يزود عن الحياة؟! هل يؤمن بالتعصب أم يرسخ للتسامح... هنا تجد تساؤل فولتير: «إنى لأطرح الآن السؤال: هل من مستتبعات القانون الإلهى التعصب، أم بالعكس، التسامح؟ فإن شئتم أن تتشبَّهوا بالمسيح فكونوا شهداء لا جلادين»[2] المسيح كان متسامحًا لا متعصبًا... شهيدًا لا جلادًا... مفعولاً به لا فاعلاً... ومن ثمَّ يثور فولتير ضد كل تعصب... كل نصوصه ضد التعصب... «إن الحق فى التعصب حق عبثى وهمجى إذن، إنه حق النمور و إن فاقه بشاعة، فالنمور لا تمزق بأنيابها إلا لتأكل، أما نحن فقد أفنينا بعضنا بعضًا من أجل مقاطع وردت فى هذا النص أو ذاك»[3]... «العالم بأسره يقطع لنا الدليل على أنه لا جدوى من ممارسة التعصب ولا حتى من الدعوة إليه»[4]... «إن العنف المسعور الذى يدفع إليه

(1) فولتير، رسالة فى التسامح، ترجمة هنرييت عبودى، دار بنزا للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا، سنة 2009م، ص146.
(2) المصدر نفسه، ص129.
(3) نفسه، ص48.
(4) نفسه، ص38.

العقل اللاهوتى المغلق والغلو فى الدين المسيحى المساء فهمه، قد تسببا فى سفك الدماء وفى إنزال الكوارث بألمانيا و إنجلترا، بل حتى بهولندا، بقدر لا يقل عمَّا حدث فى فرنسا، ولكن على عكس واقع الحال فى فرنسا، فإن تباين الأديان ما عاد اليوم يتأدى إلى حدوث اضطرابات وقلاقل فى تلك الأقطار، فاليهودى والكاثوليكى والأرثوذوكسى واللوثرى والكالفنى، وسواهم، غدوا يعيشون بتآخٍ فى تلك الأقطار، و يساهمون على قدمٍ من المساواة فى خدمة مجتمعهم»[1]..

و يوجه النقد إلى كل تعصب أدى إلى التقاتل والتشاحن: «نحن نعلم كم هو باهظ الثمن الذى دُفع منذ أن راح المسيحيون يتشاحنون و يتقاتلون بسبب العقيدة، فمنذ القرن الرابع وحتى أيامنا هذه ما فتئت الدماء تُسفك بغزارة، إن على المحارق ومنصات الإعدام و إن فى ساحات الوغى»[2]..

وبعد أن يذكر فولتير آراءًا عديدة فى نبذ التعصب، وكيف أنه ضد التسامح، وضد السماء، وضد الدين، يذهب إلى أن العار كله بجانب أولئك الذين يحيدون عن قناعاتهم فيميلون ميلاً عظيمًا... «يوسعنا أن نصنف مجلدًا ضخمًا من مقتطفات كهذه، ذلك أن تواريخنا وخطبنا ومواعظنا ومؤلفاتنا الأخلاقية وكتب تعليمنا التى تستوحى جميعها فريضة التسامح المقدسة وتُجمع اليوم على تعليمها، أفهى لعنة القدر أن نكذِّب عمليًا نظرية ننادى بها يوميًا؟ الحق أنه عندما تناقض أفعالنا أخلاقنا، فليس لذلك من علة سوى إعتقادنا بأن لنا مصلحة فى فعل عكس ما ننادى به، ولكن من المؤكد أنه

(1) فولتير، رسالة فى التسامح، ، ص31.
(2) نفسه، ص22.

ليست لنا أى مصلحة فى إضطهاد من لا يشاركوننا رأينا وفى حملهم على بُغضنا، التعصب إذن، نعود فنكرر، عبثى ومجانب للعقل»[1]...

ثم يوجه فولتير النقد إلى أولئك الذين يظلمون سقراط... إذ يستشهد به المتعصبون... مع أنه كان مثالاً للتسامح، فيقول: «إن سقراط، الذى إرتقى إلى أعلى درجة ممكنة فى معرفة الخالق دفع ثمن ذلك، ومات شهيد القول بتسامى الألوهية، إنه الإنسان الوحيد الذى حكم عليه الإغريق بالموت بسبب آرائه، ولئن يكن ذلك فعلاً سبب إدانته، فهذا ما لا يُشرف التعصب لأن من انفرد بتمجيد الله قد عوقب أسوأ عقاب، بينما أُسبغت ضروب التكريم على العكس على كل من قدَّم عن الألوهية أحط المفاهيم... أحرى إذن بأعداء التسامح فى رأيى ألا يستشهدوا بالمثال الشائن الذى أعطاه قضاة سقراط»[2]..

يبقى التساؤل... هل يكون التسامح على طول الخط؟! لا مسئولية إزاء المخالفين، هنا يرد فولتير بالقول: «كيلا يكون من حق حكومة من الحكومات أن تعاقب أخطاء البشر يلزم ألا تكون هذه الأخطاء جرائم، وهى لا تغدو جرائم إلا عندما تُخل بأمن المجتمع، وهى تُخل بهذا الأمن عندما تُحرَّض على التعصب الدينى، فعلى البشر إذن أن يبدئوا بالتحرر من كل تعصب دينى كيما يستأهلوا معاملتهم بتسامح»[3]..

□□□

(1) نفسه، ص134.
(2) نفسه، ص50.
(3) نفسه، ص145.

وبعد أن يُفوِّض فولتير كل فرص التعصب ومسالكه يذهب إلى التأكيد على التسامح فيتساءل، ما التسامح؟ ويجيب «التسامح هو النتيجة الحتمية لإدراكنا أننا لسنا معصومين من الخطأ، البشر خطَّاءون، نحن نخطئ طوال الوقت... دعونا إذن نغفر لبعضنا الحماقات»[1]، ويقدم الفارق الدقيق بين التسامح والتعصب في نصوص رائعة... «إن التسامح في خلاصة القول لم يتسبب قط في إثارة الفتن والحروب الأهلية، في حين أن عدم التسامح قد عمَّم المذابح على وجه الأرض»[2]... «إن مصلحة الدولة بالذات تقضي بأن يعود الأبناء المهجَّرون إلى بيت أبيهم بدون ضجيج، المشاعر الإنسانية تطالب بذلك، والعقل ينصح به، أما السياسة فلا تجد في مثل هذه الخطوة ما يثير مخاوفها»[3]، كما يؤكد على أن التسامح سنة كونية قديمة فيقول: «إن الشعوب التي أورثنا تاريخها بعض المعلومات قد أجمعت على إعتبار دياناتها المختلفة وكأنها عُرى تربط بينها، كانت بمثابة رابطة للجنس البشري، وقد وُجد لديها ضرب من حق الضيافة بين الآلهة على غرار حق الضيافة بين البشر، فإذا ما وصل غريب إلى مدينة طفق يتعبَّد لآلهة البلد، حتى آلهة الأعداء كانت تُحترم وتُجل، فالطرواديون كانوا يرفعون صلواتهم إلى الآلهة عينها التي كانت تناصر الإغريق في قتالهم»[4].

ويتساءل فولتير، كيف للساسة ذوي العقول أن يُعرضوا عن التسامح الذي به تزداد رعاياهم ويكثر الخير وتعم الرفاهية، إذ أن التسامح يُعمَّر

(1) نقلًا عن كارل بوبر، المرجع السابق، ص231.
(2) فولتير، رسالة في التسامح، ص39.
(3) نفسه، ص45.
(4) نفسه، ص49

ولا يُخرب، يُقدم ولا يؤخر... «إنى لأجرؤ على الإفتراض بأن وزيرًا مستنيرًا وشهمًا أو أسقفًا إنسانيًا وحكيمًا أو عاهلاً يدرك أن مصلحته تكمن فى تعاظم عدد رعاياه، ومجده فى سعادتهم قد يتفضَّل بإلقاء نظرة على هذا النص المشوَّش والمشوب بالنواقص، فيضيف إليه من أفكاره النيِّرة ويحاور نفسه قائلاً... ماذا يُضيرنى لو رأيت الأرض تُزرع وتُزين بعدد أكبر من الأيدى الكادحة، والقبائل تتكاثر وتتضاعف والدولة تُعمر وتزدهر»[1]..

وكم بلغ إعجابه بالبلاد المتسامحة فيثنى عليها قائلاً: «ولو يمَّنا وجهنا شطر الهند أو بلاد فارس أو أرض التتار للمسنا التسامح عينه والطمأنينة عينها، ولم يتردد بطرس الأكبر فى محاباة الديانات كافة فى إمبراطوريته الشاسعة، وقد ازدهرت التجارة والزراعة بفضل هذه السياسة التى لم ترتد سلبًا على الجسم السياسى للأمة الروسية»[2]... «لقد كان اليابانيون أكثر الناس تسامحًا، فقد تعايشت اثنا عشر ديانة بأمان فى إمبراطوريتهم، وقد جاء الآباء اليسوعسيون ليضيفوا إليها ديانة جديدة هى الديانة الثالثة عشرة»[3]..

يكاد قلبى يطمئن إلى أنه لا يخلو كتاب أو رواية مما خطت يدىى فولتير دون أن تجد له نبذًا للتعصب و إحياءًا للتسامح... نبذًا للفرقة والإختلاف و إحياءً للوحدة والترابط... لقد كان التسامح قيمة حياة، عاش لأجلها فولتير، إذ يغدو منهجًا للحياة، تقول هنريت عبودى ما نصه: «إذا شئنا أن

(1) نفسه، ص41.
(2) نفسه، ص25.
(3) فولتير، رسالة فى التسامح، ص37.

نُعمل الفكر مليًا فى مجمل ما تقدم فلن نجد مناصًا من القول إن ما من إنسان عاقل إلا و يستخلص من كل هذا أنه ينبغى أن نتسامح مع آراء الآخرين وأن نستأهل هذا التسامح بدورنا»[1].

❐❐❐

لكن يبقى التساؤل، ما هى مبررات التسامح؟ بمعنى أدق هل التسامح فُطر فى النفس الإنسانية؟ ليجيب فولتير بأن التسامح صنيعة الطبيعة و إرادة العقل ومقصد الفلسفة، فيقول: «تقول الطبيعة للبشر كافة، لقد جعلتكم تولدون ضعفاء وجهلة كيلا يُقيَّض لكم أن تعيشوا إلا للحظات معدودات على هذه الأرض، وكى تُسمدَّوها بجثثكم، فتعاضدوا ما دمتم ضعفاء، واستنيروا ما دمتم جهلة، واحتملوا بعضكم بعضًا، و إذا ما أجمعتم على رأى، وهذا لن يحدث أبدًا بكل تأكيد، ولم يعارضكم إلا شخص واحد، فعليكم أن تسامحوه، لأنى أنا من جعله يعتقد ما يعتقده، لقد منحتكم أذرعًا كى تزرعوا الأرض، وبصيصًا خافتًا من العقل كى تهتدوا بهديه، كما وضعت فى قلوبكم بذرة رأفة كى تتآزروا فى مواجهة مصاعب الحياة، فلا تخنقوا هذه البذرة، لا تفسدوها، بل اعلموا أنها إلهية المنشأ، ولا تدعوا الصوت الحانق والبائس للمتعصبين للمذاهب يعلو على صوت الطبيعة»[2]...

ثم يوجه النقد إلى دعاة التعصب لأنهم ضد الطبيعة، ولأن الطبيعة متسامحة ولا تقبل بالتعصب فيقول: «فى الوقت الذى تُسمعنا فيه الطبيعة صوتها الوديع والشافى، يطلق التعصب، ذلك العدو للطبيعة، صرخاته

(1) نفسه، ص119.

(2) نفسه، ص180.

وزعقاته، وعندما تشرق شمس السلام على البشر، يعمد عدم التسامح إلى شحذ سلاحه... فيا أنت... يا من كنت حكمًا بين الأمم، وبسطت السلم والوئام فى ربوع أوروبا، أفما آن لك أن تفصل بين روح السلم وروح القتل»[1]..أى أن الطبيعة تنادى بالتسامح... بالسلام... بالوئام بين البشر، بينما عدم التسامح ضد الطبيعة، لأنه ينادى بالحرب والقتل، وهما ضد الطبيعة وضد الفطرة، بل وضد العقل أيضًا، يقول فولتير: «إن هذا العقل وديع... إنسانى... يحث على الحلم... يخنق الفتنة فى المهد، يشد من أزر الفضيلة، يحبَّب الإنصياع للقوانين فيعززها أكثر مما تفعله القوة، ثم ألا يتعين علينا أن نأخذ فى إعتبارنا كم بات التعصب والإندفاع موضع سخرية لدى شرفاء الناس؟ إن هذه السخرية تقف حاجزًا منيعًا فى وجه الشطط وضروب الشذوذ التى لا مناص من أن يقع فيها كل متشيع لشيعة... ولقد طويت صفحة الماضى كما لو أنه لم يكن قط، ولزام علينا أن ننطلق دومًا من النقطة التى وصلنا إليها، كما من تلك التى وصلت إليها سائر الأمم»[2].

ثمة دور آخر للفلسفة فى إقرار السلام... «فالفلسفة وحدها - شقيقة الدين - كانت كافية لنزع السلاح من أيدٍ طالما تلطَّخت بالدماء بفعل المعتقدات الباطلة، والعقل البشرى إذا صحا من غيبوبته أخذه الذهول إزاء القسوة وأشكال العنف التى دفعه التعصب الدينى إليها»[3]، ذلك أن هدف الدين التسامح لا القسوة... العلو لا الدنو... الترفع لا الإنغماس فى أهواء النفس الشريرة... «لقد وُجد الدين ليجعلنا سعداء فى هذه الحياة الدنيا وفى

(1) نفسه، ص176.
(2) التسامح، ص43.
(3) نفسه، ص33.

الآخرة... ما المطلوب كى نكون سعداء فى الآخرة؟ أن نكون صالحين، وما العمل كى نكون سعداء فى هذه الدنيا فى حدود ما يسمح به بؤس طبيعتنا؟ أن نكون متسامحين»[1].

أما أولئك الذين يتحدثون باسم الله... يقتلون باسم الله... يحرفون مقاصد السماء ليشعلونها نارًا على الأرض فيقول لهم فولتير: «هنالك إذن إله سيرأف لحالنا ويواسينا عن تلك المصائب والفواجع بعد حياة زائلة تنكرنا له خلالها، واقترفنا باسمه ما اقترفنا من الجرائم... ذلك أننا لو تأملنا فى الحروب الدينية وفى انشقاقات البابوات وانقساماتهم التى نافت عن الأربعين عددًا، والتى اقترنت جيعها تقريبًا بأحداث دموية، وفى جميع ضروب الدجل والخداع الوخيمة العواقب، وفى الأحقاد التى فجرتها الإعتقادات المتباينة، ولو استعرضنا جميع الشرور التى تسببت فيها الحمية الدينية الكاذبة لأدركنا أن البشر عاشوا طويلاً جحيمهم فى هذه الدنيا»[2] حيث حرَّفوا مقاصد الإرادة الإلهية... أداروا ظهورهم للفطرة النقية باسم بارئ الفطرة... وانقلبوا على الدين باسم الدين.

❐❐❐

المسمار الذى يمثل صداعًا فى رأس فولتير ليس أقل ضراوة أو خطورة من قتل النفس الإنسانية... إنه التعصب الدينى والفرقة والخلاف بين البشر بسبب العقيدة... فالله متسامح... ضد التعصب... وكل الأديان تقر التسامح وتنبذ التعصب... فكيف يقع التعصب بين المتدينين، أو بالأحرى

(1) نفسه، ص159.

(2) نفسه، ص83.

أدعيـاء إتباع الأديان... هكذا تكلم فولتير... هكذا رفض كل ما من شـأنه أن يثير التعصب بين الأديان... «لو كان كتبة الإنجيل على شـاكلة الكُتَّاب المعاصرين لوحدوا حقل خلاف أوسـع بكثير، فالقديس متى الإنجيلى يُعدَّد ثمانية وعشرين جيلاً بين داود والمسـيح، فى حين يُعدد القديس لوقا الإنجيلى واحدًا وأربعين جيلاً، وأسـماء الأجيال عنده تختلف تمامًا عن أسـمائها لدى الأول، ومع ذلك لم ينشـب خلاف بين تلامذة المسيح بصدد هذه التناقضات الظاهرة التى عمد عدد من آباء الكنيسـة إلى التوفيق بينها على أحسـن وجه، وهكـذا بقيـت المحبة سـائدة ولم يتهدد السـلام، فهل مـن درس أعظم من هـذا كى نتسـامح فى خلافاتنـا ونتواضع إزاء كل مـا لا نتفاهم حولـه»[1]... «لدينـا يهود فى مدينتى بوردو ومتنرو فى مقاطعـة الألزاس، ولدينا لوثريون ومولينيـون وغيرهم من الطوائف، فلـماذا لا نتقبل الكالفنيين ونحتويهم بين ظهرانينـا وفق الـشروط المطبقة على الكاثولكيين فى لنـدن؟ فبقدر ما يزداد عـدد الطوائـف والنحل تخف خطـورة كل واحدة منها على حـدة، فالتعدد يضعفها ويقلل من شـأنها، ولاسـيما عندما تخضع جميعها دونما تمييز لقوانين عادلة تردعها، قوانين تحظر التجمعات الصاخبة، وتُنهى عن الشتائم والفتنة وتبقى فاعلة بكل قوة بحكم سريان مفعولها على الجميع»[2].

وفى قصـة رمزيـة قصد بهـا فولتير ذات المعنى - التسـامح بـين المختلفين فكريًا وعقائديًا - يقول على لسان أحد الموظفين الصينين أثناء فضه لخلاف عقائدى ما نصـه: «ولكن الجماعة هى دومًا أكثر علمًا من الفرد، ليس يجوز

(1) فولتير، رسالة فى التسامح، ص90.
(2) نفسه، ص41 وما بعدها.

لأحد أن يعتبر نفسه أوسع إطلاعًا من الآخرين، وأن العقل لا يسكن إلا فى رأسه هو، هذا ما يُعلَّمنا إياه كونفوشيوس العظيم، فإن شئتما الأخذ برأيى فحسنًا تفعلان» ثم أتبع بالقول: «إن شئتم أن نتسامح مع مذهبكم هنا فعليكم بادئ ذى بدءٍ ألا تكونوا متعصبين وعديمى التسامح»[1]..

إنه يسعى سعيًا حثيثًا نحو التسامح المتكامل بين الأديان، فيتحدث هنا، ويرد على مقولة هناك، ويدعم وجهة نظره فى إطار معين... ويفند آراء المتعصبين فى إطارٍ آخر، وهكذا يدوم سعيه، ويتواصل كده، لأجل إقرار قيمة التسامح فيقول مثلاً عن اليهود ما نصه: «إن اليهود قد انتظروا هذا المنقذ دائمًا غير أن منقذهم هو لأنفسهم، لا لنا، وهم ينتظرون مسيحًا يجعل اليهود سادة النصارى، ونحن نأمل أن يؤلف المسيح بين اليهود والنصارى ذات يوم»[2]..

ثم يورد فولتير فصلاً كاملاً تحت عنوان «شهادات ضد التعصب» يقدم فيه أقوالاً للأنبياء والأساقفة والقديسين منها مثلاً قول ترتوليانوس فى دفاعه: «إنه لمن قلة الدين أن نحرم البشر من الحرية فى موضوع الدين، وأن نحول دون إختيارهم لإلههم، فما من إنسان، ما من إله... يرغب فى عبادة قسرية»[3]... وقول القديس لاقنانسيوس: «إذا فُرض الدين بالقوة لا يعود دينًا، فالمطلوب الإقناع لا الإكراه، فالدين ليس مم يؤمر به أمراً»[4].

(1) نفسه، ص150.
(2) ولتير، الرسائل الفلسفية، ص139.
(3) فولتير، رسالة فى التسامح، ص131.
(4) نفسه، ص131.

نفس هذه التعاليم نجدها فى الإسلام، حيث ينهى القرآن عن العنف وعن القتل وعن كل مثالب النفس الإنسانية ومساوئها... كما ينهى الأتباع عن نشر الدين بالقوة أو فرض الرأى على الآخرين، فطلب سبحانه الجدال بالحسنى ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125] وقال للمعرضين عنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256]... لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، بل إن نبى الإسلام ذاته ﷺ قال للكافرين ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: 1 - 3]... وهذه نصوص إنسانية بالمقام الأول... الدين لا يفرض نفسه على أحد... لا توجد عبادة قسرية... ولكنه يفرض السلام على الجميع... ينادى على الجميع... يحث الجميع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: 13]... ومثل هذه المعانى ما ننوء بحصره[1]..

وبعد سردٍ دام طويلاً لقصص من التسامح بين الله وعباده العصاة يقول فولتير: «إذن، فالكتاب المقدس لا يفيدنا بأن الله كان متسامحًا مع سائر شعوب الأرض قاطبة فحسب، بل بأنه كان يخصها أيضًا برعاية أبوية، فكيف نتجرأ على التعصب وعدم التسامح»[2]، كما يمدح حكومة بنسلفانيا لأنها تشرع للتسامح ضد العنف فيقول: «ويبدو الأمير الجديد مشترعًا لبنسلفانيا ويضع قوانين بالغة الحكمة لم يُغيَّر أى واحد منها حتى الآن، وينص أول قانون منها على عدم الإساءة إلى أى أحد بسبب دينه، وعلى عدَّ جميع الذين

(1) انظر كتابنا، ضد الإنسانية، نيو بوك للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م، ص7 وما بعدها.

(2) فولتير، رسالة فى التسامح، ص111.

يؤمنون بالله أخوة»[1]، ثم يقول فى الرسالة السادسة «حول البرسبيتاريين» ما نصه... «ادخلوا بورصة لندن... ادخلوا هذا المكان الذى له من الحُرمة ما ليس لكثير من البلاطات، تبصَّروا رسلاً من جميع الأمم مجتمعين فيها نفعًا للناس، تبصَّروا اليهودى والمسلم والنصرانى يتعاملون كما لو كانوا أبناء دين واحد، فلا يطلقون اسم الكافرين على أحد، وفى البورصة يثق البرسبيتارى بالتعميدى، ويرضى الأنجيلكانى بوعد الكويكرى، ويذهب بعضهم إلى الكُنيس ويذهب الآخرون إلى الشرب، ويذهب هذا ليمزج الخمر بالماء فى دن اسم الأب من قبل الإبن ذى الروح القدس، ويأمر ذلك بقطع قُلفة ابنه وبأن يُدندن فوق ابنه بكلمات عبرية لا يدركها مطلقًا، ويذهب هؤلاء الآخرون إلى كنيستهم كيما يرتقبون وحى الله لابسين قبعاتهم على رؤءسهم مع رضاهم أجمعين... ولو وجدت فى انجلترا ديانة واحدة فقط لإعترى النفوس خوف من الإستبداد، ولو وجُدت فيها ديانتان فقط لتذابحتا، ولكن يوجد فيها ثلاثون ديانة وهى تعيش سعيدة مسالمة»[2]...

تلكم هى غاية وأمنية فولتير... أن تعيش الديانات كلها فى سلمٍ وسلام... فى أمن وأمان... لا يستطيل أصحاب دين على آخر... ولا يحاربُ أحد أحدًا بسبب الدين والإعتقاد، فهذا ضد الدين والإعتقاد بالأساس، الله مسالم... اسمه السلام... أمر خلقه بالسلام... سمى دار جزائه للإنسانيين بدار السلام.

❐❐❐

(1) فولتير، الرسائل الفلسفية، ص 22 - 23.
(2) نفسه، ص31 - 32.

«... ونلبس كذلك ثيابًا تختلف عما يلبس الآخرون بعض الإختلافات، وذلك لكى يكون لنا هذا تنبيهًا إلى عدم مشابهتهم، ويحمل الآخرون سمات دالة على مقامهم، ونحن نحمل سمات التواضع النصرانى، ونتجنب مجالس اللهو واللعب، وذلك لأن ما يؤلمنا أن نملأ بالترهات قلوبًا يجب أن تكون عامرة بالله، ونحن لا نحلف مطلقًا حتى أمام القضاء، وذلك لأننا نرى ألا يُخفض اسم الرب الأعلى فى منازعات الناس الساقطة، و إذا ما وجب أن نمثل بين أيدى القضاة من أجل قضايا الآخرين (لأنه لا دعاوى لنا مطلقًا) أكدنا الحقيقة بـ«نعم» أو «لا» وصدَّق القضاة قولنا، وذلك على حين يحلف كثير من النصارى على الإنجيل زورًا، ونحن لا نذهب إلى الحرب أبدًا، وليس هذا عن خوفٍ من الردى، فعلى العكس، تبصرُنا نبارك الساعة التى نلحق فيها بواجب الوجود، و إنما ينشأ ذلك عن كوننا لسنا ذئاباً ولا نمورًا ولا كلابًا، و إنما يأتينا ذلك عن كوننا بشرًا، عن كوننا نصارى، ولا يريد الرب - الذى أمرنا بأن نحب أعداءنا وبأن نصبر على الأذى من غير تذمُر - أن نعبر البحر لذبح إخواننا لا ريب، وذلك عن جمع أناس من القتلة، لابسين ثيابًا حمرًا وقلانس طولها قدمان، مواطنين للجندية بصوت يصدر عن ضرب عصوين صغيرتين على جلد حمار مشدود جيدًا، فإذا ما تم النصر فى المعارك أضاءت لندن بالأنوار واشتعلت السماء بالأسهم النارية ودوى الهناء بصلوات الشكر وأصوات الأجراس والأراغن والمدافع، وهنالك يعترينا حزن عميق على ما وقع من تقتيل أوجب إبتهاج الجمهور»[1]..

(1) فولتير، الرسائل الفلسفية، ترجمة عادل زعيتر، مكتبة ومطبعة الغد، ط1، القاهرة، سنة 2010م، ص12، 11.

يـكاد يكون هذا النص الذى ذكـره فولتير ناقمًا على الحروب التى تحصد الإنسان باسم الإنسانية، وتقتل أبناء الله باسم الله، ويصلى المنتصرون شكرًا للـه مع أنهم كانوا ضد إرادته سـبحانه، ويغنون ويفرحون وكأنهم انتصروا للإنسـانية فى حين أنهم سـحقوها ودمروا مبادئها... نصًـا مكررًا عند جميع الفلاسـفة عبر مختلف العصور، سـواء الفلاسـفة الدينيين أو الوجوديين... فكلهم ليسـوا ناقمين على الحرب فقط، ولكنهم ناقمون على دوافعها ورفعها لراية عصبية لم يدع إليها إله أو دين من ناحية، وعلى مآل أصحابها من تقتيل وتدمـير وخراب مـن ناحية ثانية، ثـم فى الأخير الحزن الشـديد على مبادئ الإنسـانية التى تلطخها الدماء ويدَّعى فيها المنتصرون أنهم قد فُتح لهم فتحًا مبينًا... هى نصوص مشـتركة تكاد تتشابه حتى فى الألفاظ والحروف فضلاً عـن المضمون، ليعـبر فولتير عن تطلعه للسـلام، وحزنه على مآل الإنسـانية فى مصائبهـا ذات الثلاث شـعب كما أسـلفنا... إنـه يقيم وزنًا للمسـالمين لا للمحاربين، المسـالمون يوافـون إرادة الله... والمحاربون ضـد إرادة الله... المسـالمون مع الأنبيـاء والصالحـين... والمحاربون مع الفجرة والمفسـدين، ومـن ثمَّ كانت فلسـفته التى قامت عـلى دعائم التسـامح منادية فى المحطة قبـل الأخيرة بالسـلام... فسـعادة الإنسـانويون فى السـلم لا فى التقاتل... " فالتعسـاء المقيـدون الذين يُذبح الواحـد منهم بعد الآخر تعسـاء، لا لأنهم يألمون فقط، بل لأنهم يُحسـون ما لا يألم منـه الآخرون أيضًا، وليس المصير الطبيعى للإنسان أن يُقيَّد، ولا أن يُذبح، وإنما صُنع الناس - كما صنع الحيوان والنبات - ليكثروا ويعيشـوا حينًا من الزمن... ولينسـلوا أمثالهم ويموتوا... أجل، يمكن إظهار الإنسان فى الهجاء من الناحية السيئة كما يُراد، ولكن إذا ما نظر إلى عقله إعترف بأنه أكمل جميع الحيوانات وأكثرها سـعادة وأطولها

عمرًا، ولذا فإن علينا أن نهنئ أنفسنا معجبين بسعادتنا وطول عمرنا بدلاً من أن نتوجَّع مع العجب من تعاسة الحياة وقصرها»[1]... ولكن لأن الإنسان بدَّل الناموس الحياتى الإلهى، فإن المحصلة النهائية هى دمار وتخريب الكون والقضاء على الحياة الإنسانية عبر الحروب والتقاتل، لذا نرى فولتير يذم اليهود، ليس لدينهم، فالدين والإعتقاد مناط القلوب، وتلك ملك لله وحده، ولكنه يذمهم لحروبهم ضد الإنسانية... «وأما اليهود فقد مُقتوا، لا لأنهم كانوا لا يؤمنون بغير إلهٍ واحد، بل لأنهم كانوا يمقتون الأمم الأخرى مقت سخرية... ولأنهم كانوا برابرة يقتلون أعدائهم المغلوبين بلا رحمة، ولأن هذا الشعب اللئيم الخرافى الجاهل العاطل من المهن والتجارة كان يزدرى أكثر الأمم تهذيبًا»[2]..

لقد كانت جُل روايات وقصص فولتير تعنى بالسلام، ففى رواية ميكروميجاس يقول على لسان أحد الفلاسفة... «لدينا الكثير من المادة على ظهر السفينة، ونرتكب الكثير من الأذى... ويجب أن تعرف أن هناك عشرة آلاف من بنى جنسنا يلبسون البرانيط يذبحون عددًا مماثلاً من مخلوقات مثلهم يلبسون العمائم، أو على الأقل فهم يقتلون ويُقتلون، وهذه هى الحالة عادة فى جميع أنحاء الأرض منذ فجر التاريخ «كفار جاحدون»، صاح العملاق من سكان كلب الجبار: «أفكر بأن أخطو خطوتين أو ثلاث وأسحق هؤلاء القتلة المغتالين جميعهم تحت قدمىَّ» أجاب الفيلسوف: لا تزعج نفسك فهم جادون تمامًا فى سحق أنفسهم، وبعد عشرة أعوام لن

(1) نفسه، ص152.

(2) فولتير، الرسائل، ص153.

يبقى من هؤلاء البائسين جزء من مائة بالإضافة إلى أن العقاب يجب ألا ينزل بهم، بل بالمتوحشين القعدة الكسالى الذين يصدرون الأوامر من قصورهم بقتل الملايين من الناس، وبعدئذٍ يشكرون الله على نجاحهم»[1]..

من ناحية أخرى تصب فى صالح السلام وتقدم البشرية نجد أن فولتير لا يقيم وزنًا لرجال السياسة بقدر ما يُقدَّر رجال العلم، إذ دار التساؤل أى الرجال أعظم؟ قيصر أم الإسكندر أم تيمورلنك أم كروموويل... إلخ؟ ويجيب فولتير على لسان البعض بالقول: «إن إسحاق نيوتن هو أعظمهم بلا ريب، والحق بجانب صاحب هذا القول، وذلك لأن العظمة الحقيقية إذا كانت تقوم على تلقى عبقرية جبارة من السماء، وعلى الإنتفاع بهذه العبقرية لتنوير الإنسان نفسه وتنوير الآخرين، فإن رجلاً مثل السير نيوتن الذى لا يكاد يظهر مثله فى عشرة قرون، يكون العظيم، ولأن هؤلاء السياسيون والفاتحون الذين لا يخلو منهم قرن ليسوا غير أشرار بالحقيقة، لا أولئك الذين يصنعون عبيدًا بالإكراه والقهر، وترانا ملزمين بتقديم إحترامنا إلى ذلك الذى يعرف الكون، لا أولئك الذين يشوهونه»[2].

تلك الفلسفة الراقية، الإنسانوية بالدرجة الأولى، هى التى قادت فولتير إلى النداء الدائم منذ فجر التاريخ عند الملائكيين فقط، بالوحدة والمساواة بين جميع أبناء الجنس البشرى.

❐❐❐

قامت دعوات عدة عبر التاريخ طولاً وعرضًا تنادى بالوحدة والمساواة

(1) ديورانت، قصة الفلسفة، ص264.
(2) فولتير، الرسائل، ص53.

بين البشر، استند بعضها إلى الوحدة البيولوجية، وبعضها إلى وحدة الجنس، وبعضها إلى وحدة السماء مع الأرض، كما أن بعض القوميات استندت إلى وحدة اللغة والدين، ولكنها قامت فى نطاق أضيق بعض الشىء... لا يمثل طموحات الإنسانيين أو الملائكيين، إذ هم بالفطرة... بنقاء نفوسهم وطهارة قلوبهم، يطمحون إلى الوحدة العالمية التى تتسع لتضم كل أبناء الجنس البشرى.

وفولتير هو أحد أولئك الملائكيين الذين نادوا بالوحدة بين البشر حيث نراه يقول: «لم أكن فى حاجة إلى حذق كبير أو بلاغة متكلفة كيما أثبت أن على المسيحيين أن يكونوا متسامحين فيما بينهم، غير أنى سأذهب إلى أبعد من ذلك فأدعوكم إلى إعتبار البشر جميعًا إخوة لكم، ماذا؟ قد تجيبون... أيكون التركى شقيقى؟ والصينى شقيقى؟ واليهودى؟ أجل بلا ريب، أفلسنا جميعًا أبناء أب واحد ومخلوقات إله واحد؟»[1]... ويكرر ذات النداء مناشدًا الله تحقيق تلك الوحدة قائلاً: «حبذا لو تذكر البشر قاطبة أنهم إخوة! وليتهم يمقتون الاستبداد الذى يثقل بباهظ وطأته على النفوس، تمامًا كما يمقتون اللصوصية التى تحرم بالقوة العاملين وأصحاب الحرف المسالمين من ثمرة عملهم، وإن لم يكن من سبيل إلى تفادى آفات الحرب وويلاتها، فلنتفاد على الأقل أن نتحارب ونتذابح فيما بيننا أيام السلم، ولنكرس كل لحظة من حياتنا لنبارك معًا، وبمختلف لغات الأرض، من السيام إلى كاليفورينا، رأفتك التى منحتنا هذه اللحظة»[2]..

(1) فولتير، رسالة فى التسامح، ص163.
(2) نفسه، ص170.

لكن على أى أساس أقام فولتير دعوته تلك إلى الوحدة العالمية؟!

لقد أقامها على أساسين اثنين... نقاء الطبيعة... ووحدة الفطرة... ففى السبب الأول يؤكد أن الطبيعة ليست شريرة فيقول: «إجمعوا أطفال الكون جميعًا، فإنكم لن تجدوا فيهم غير الطهر... والوداعة... والخوف... فلو أنهم ولدوا أشرارًا... مؤذين... قُساة... فلابد أن يبدر منهم ما يدل على ذلك، كالأفاعى الصغيرة، فهى تحاول أن تلدغ... والنمرة الصغار تحاول أن تمزق... ولكن الطبيعة لم تعط الرجل سلاحًا أكثر إيذاءً مما أعطته للحمائم والأرانب، فلا يمكن، والحالة هذه، أن تكون قد أعطتهم غريزة تحملهم على الهدم»[1]، أى أن كل شىء مزود بمؤهلات حياته بالفطرة... زودت النمور والسباع والأسود بالقوة الإفتراسية فهى مفترسة بالفطرة... ولكن الإنسان لم يزود إلا بالعقل، وكأن الله عندما استخلفه أوحى إليه بسيادة كافة المخلوقات بعقله لا بعضلاته، ومن ثَمَّ فالطبيعة الإنسانية تجنح إلى التعقل والسلام بالفطرة، بالمثل تمامًا كما تجنح طبيعة النمور إلى العدوانية بالفطرة، لذا تجد النمر الصغير ينزع إلى العنف والنهش، بينما الطفل الصغير ينزع إلى الوداعة واللهو البرئ... تلك هى أعظم مفارقة فطرية بين نقيضين، أحدهما بالفطرة يتجه إلى العنف... والآخر بالفطرة يميل إلى السلام... لذا يرتأى فولتير فى نقاء الفطرة الإنسانية، ونقاء الطبيعة الأصيلة للإنسان ما يدعوه إلى الأمل فيقول: «ولنشكر لصانع الطبيعة إنعامه علينا بهذه الغريزة التى تمضى بنا إلى المستقبل بلا إنقاطع، فأثمن كنز لدى الإنسان هو هذا الأمل الذى يُلطف أحزاننا، والذى يُصور لنا ملاذ المستقبل فى موكب الملاذ الحاضرة... ولو كان

(1) فولتير، سليم سعده، ص106.

الناس من الشقاء ما لا يبالون معه بغير الحاضر ما زرعوا مطلقًا، وما بنوا مطلقًا، وما غرسوا مطلقًا، وما إستعدوا لشيء مطلقًا، ولأعوزهم كل شيء بين هذا التمتع المخادع، وهل كان يمكن ذكيًا مثل مسيو باسكال أن يُبدى مثل ذلك الرأى الفاسد فى مكان عام؟ فالطبيعة قضت بأن يتمتع كل إنسان بالحاضر، وذلك بأن يتغذَّى و ينسل أولادًا، وأن يُصغى إلى الأصوات العذبة، وأن يُعمل ملكة التفكير والإحساس فيه، فهو إذا ما قام بهذه الأحوال فكرَّ فى أمر الغد فى أثناء قيامه بهذه غالبًا، و إلا هلك اليوم بؤسًا»[1].

أما السبب الثانى الداعم لتلك الوحدة الإنسانية فيراه فولتير فى وحدة الفطرة الإنسانية، حيث أن القيم الإنسانية المحبة للعدل والمبغضة للظلم مفطورة فى النفس الإنسانية... «كلما زاد تبصرى بالناس المختلفين بإختلاف الطقس والعادات واللغة والقوانين والعبادة، وبإختلاف ذكائهم، إزدادت ملاحظتى لوحدة أساسهم الأخلاقى، فهم جميعًا يملكون مفاهيم بدائية فيما يخص العدل والظلم دون أن يعرفوا كلمة من اللاهوت... وهم جميعًا إكتسبوا تلك المفاهيم فى السن التى يتفتح فيها العقل، كما أنهم إكتسبوا جميعًا كيفية رفع الأثقال بالعصى، ولذلك بدا لى أن فكرة العدل والظلم فكرة لازمة للبشر لأنهم جميعًا يتفقون على هذه النقطة التى طالما أمكنهم أن يعملوا و يفكروا، فالعقل الأعظم الذى خلقنا أراد أن يسود العدل على الأرض... و إلا فكيف أمكن للمصريين القدماء والآشوريين البدائيين أن تكون لديهم نفس المفاهيم الأساسية المتعلقة بالعدل والظلم لولا أن الله قد أعطاهم منذ الأزل ذلك العقل الذى نما ومكنهم من أن يدركوا نفس المبادئ

(1) فولتير، الرسائل الفلسفية، ص148.

الأخلاقية... فجميع الشعوب مهما كانت عليه من البدائية تقول بوجوب إحترام الوالدين والأمر بالمعروف والنهى عن الشرور والمنكرات، وتلك مفاهيم واحدة يخلصون إليها عن طريق عقلهم النامى»[1]..

يبقى التساؤل الآن، إذا كانت الطبيعة نقية وهى تقر بخيرية النفس الإنسانية، و إذا كانت المبادئ من خير وعدل وقيم نبيلة قد غُرست وفُطرت فى النفس الإنسانية فمن أين يأتى الشر؟؟... هنا يجيب فولتير... «فالرجل إذن لم يولد شريرًا، فلماذا يوجد كثيرون مصابون بوباء الشر؟ ذلك لأن من يرأسونهم قد إعتراهم المرض فأصابوا بقية الرجال بعدواه، كالمرأة التى أصيبت بالمرض الذى نقله كريستوف كولومب من أمريكا، فنفثت سمه فى جميع أنحاء أوروبا... إن أى طامع طموح هو الذى أفسد الأرض»[2]..

إذن الطمع فقط هو السر الكبير المستتر خلف جرائم البشر وحروبهم... الأنانية هى التى تسيطر عليهم... وفى ذلك يضرب فولتير مثلاً مؤاده أن أحد ملوك آسيا طلب لمستشاره المخلص أن يعين له خازنًا أمينًا على أمواله، ولكنه فوجئ برد مستشاره عليه بطلبٍ غريب، إذ قال له: «أيها الملك، إذا كنت تريد خازنًا أمينًا فلندعُ إلى مسابقة للرقص... وليأتى من يريد أن يشغل هذا المنصب ليدخل فى حفلة رقص جماعى أولاً... ثم نختر من بين المتسابقين أخفهم وأرشقهم وأحسنهم رقصًا»... وكم كان هذا الرأى عجيبًا حقًا... نحن نريد خازنًا أمينًا لا نريد راقصًا بارعًا... ولكن الملك كان شديد الثقة فى آراء مستشاره، فقال فى نفسه... «لعله يدَّخر علمًا عن خوارق الطبيعة»...

(1) نفسه، ص117، وما بعدها.

(2) فولتير، المعجم الفلسفى، نقلا عن سليم سعده، المرجع السابق، ص106.

وتم الإعلان عن الوظيفة، وتقدم إليها أربعة وستون رجلاً... أعدَّ الملك ساحة ملكية بالقصر... جلب لها الموسيقيين وآلاتهم وأعد المكان جيدًا للرقص... وجعل دهليزًا ضيقًا ممرًا بين ساحة الرقص ومكان تجمع المتسابقين، ووضع فى هذا الدهليز صندوقًا مليئًا بالذهب واللآلئ، وفى الوقت الذى يستعد فيه المتسابقون للإختبار، يقف الحاجب لينادى على كل متسابق ليدخل الساحة منفردًا عبر الدهليز الضيق... ثم يمهله برهة من الوقت... ثم ينادى على آخر، وهكذا...

وما أن إكتمل عدد المتسابقين فى ساحة الرقص حتى ضُرب بالدف والطبل... وطلب الحاجب من المتسابقين الرقص... فأخذوا يرقصون بكسلٍ لا نظير له... يكادون يتوقفون عن الحركة، ليبصرهم مستشار الملك وهو يقول فى نفسه «يا لكم من لصوص»... ولكنه أبصر أحدهم يرقص برشاقة، يتحرك ويقفز ويذهب يُمنة ويُسرة... ليقول المستشار فى نفسه.. «يا لك من رجلٍ أمين»... لقد سرق اللصوص المتقدمون لوظيفة خازن المال الأمين، الذهب واللألئ من الصندوق الذى وضعه الملك، وطلب منهم الرقص ليختبرهم... ومن ثمَّ لم يستطيعوا الحركة والرقص من ثقل ما حملوه، فلو رقصوا لسقطت المسروقات من جيوبهم ولفُضحوا، كلهم سرقوا... كلهم دُنسوا بالخطيئة إلا واحدًا، ليستدل فولتير على أن أصل الشر ليس الفطرة أو الطبيعة الإنسانية... ولكنه الطمع الذى تملَّك نفوس ثلاثة وستين ولم ينجو منه إلا فرد واحد... ذاك هو سر الصراع... سر الحرب بين البشر... سر فساد العالم...

هذه الدعوات فى مجملها... التسامح... المساواة... الحب... السلام...

الوحـدة بين جميـع أبناء الجنس البـشرى بغض النظر عن اللـون والجنس أو العقيدة، تلك دعوات إنسانية، خرجت من إنسان بدرجة ملاك... وذاك على الدوام ما تميز به فولتير.

الفصل الثامن

روسو...

ولد روسو فى جنيف عام 1713م لأب يعمل صانع ساعات ومعلـم للرقص، ولكنه لم يجـد التربية المنظمة الصالحة، ولا البيـت المثقف الـذى يفكر فى تربيتـه، فقد توفيت والدتـه بعد ثمانية أيـام من ولادتـه... وكان أبوه يقرأ له كتبًـا قصصيـة فى أوقات فراغه، ولكنه لم يحسـن إختيـار الكتب التى كان يقرؤها لـه، ثم أخذ ينتقل من عمل إلى آخر، ومن صناعة إلى أخرى، ولكنه فى كل عملٍ يخفق إما لضعفه وسرعة إنفعاله أو لقسـوة رؤسائه، ولكنه كان يقرأ كل ما تصل إليه يده ليكمل ما كان يشعر به من نقصٍ فى التربية[1].

وقد كشـف روسـو منذ صغره عن عبقرية أدبية لا مثيـل لها، وكان أول عمل رفع من شأنه ونشر اسمه فى الأفاق وسما بذكره فى مختلف البيئات، جائزة تمنحهـا أكاديمية ديجون للثقافة والفنـون، حيث تقدم ببحث حول موضوع «أيؤدى تقدم العلم والفن إلى إفسـاد المثل الأخلاقية أو تزكيتها؟»[2]، حيث

(1) محمد عطية الإبراشى، أصول التربية المثالية فى إميل، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، 1967م، ص18.

(2) جون باول، الفكر السياسى الغربى، ترجمة محمد رشاد خميس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1985م، ص445.

أثبت أن المدنية وأساليبها، ومظاهر الحضارة والفنون والمدارس التى قام بها الإنسان، هى منبع الشقاء وأس كل بلاء يصيب الإنسان فى حياته، كما أثبت أنه لا سعادة ممكنة للجنس البشرى المتعلق بأهداب المدنية إلا إذا ترك هذه المظاهر الخادعة وتلك الألوان الخلابة من الترف والمدنية، ورجع إلى حالته الطبيعية الأولى التى نشأ فيها، إذ فى هذه الحياة يعيش الإنسان سعيدًا هانئًا، بعيدًا عن بذور الفساد، نائيًا عن الإنغماس فى الشهوات النفسية التى تجر الويل وتسبب التعاسة وتقضى على حياة هذا الكائن بالفناء.

وبعد أن نال روسو الجائزة طارت شهرته تلف الأرجاء بسبب تميزه الأدبى، فقد كان يمتلك أسلوبًا ساحرًا يعبر به عن فكره، يقول عطية الإبراشى: «إن روسو قد يأخذ الفكرة عارية مجردة مهملة، فيكسوها ويُلبسها أحسن لباس من البحث العلمى، ويُظهرها بأحسن مظهر غير مبال بنقدٍ لاذع... أو ثورة جامحة... فقوة الخيال التى كانت لديه ساعدته كثيرًا فى تصوير الأفكار بأحلى صورة، والجرأة التى عُرف بها كانت عاملاً فعَّالاً فى نجاحه، فكان يظهر برأيه ولو خالف آراء الناس جميعًا متى إعتقد صحته، وآمن بثبوت نظريته، شجاعًا يقول ما يعتقد، لا يبالى نقد الناقدين، وثورة الثائرين ضده فى الأفكار والآراء... يستوى لديه إتفاق الناس معه فى الرأى أو إختلافهم عنه، فهو مصلح جرئ فى حب الإصلاح بخلاف غيره من الناس الذين تعوزهم الشجاعة الكافية فى إبراز ما لديهم من الأفكار، فتبقى كامنة فى صدورهم حتى يلقوا نحبهم، خفية بين جوانحهم حتى تزهق روحهم، دون أن تنتفع بها أمتهم، وتفيد من خبرتهم، لا يستطيعون إظهارها أو التصريح بها أمام الملأ، لأنهم جبناء يهابون النقد واللوم وتهديد السلطات، وقد تكون تلك الآراء كالجواهر الثمينة، ولكن كيف نصل إليها إذا مات هذا المفكر،

وماتت أفكاره معه؟ فلو كان روسو جبانًا ما وصلت إلينا آراؤه، وما جنينا ثماره المختلفة، ولكنه كان غير هيَّاب، لا يعبأ بالسلطات، ولا يخشى إنذار الحكومات، فإليه يرجع الفضل فى وضع كثير من النظريات، وفى إظهار آراء للمربين لم يستطيعوا إظهارها، وفى تجديد أبنية مهدمة، و إيضاح آراء غامضة... وتغيير أشياء قديمة و إلباسها حللاً جديدة، بفكرة الوقاد وخياله الحاد وقوته الخطابية، فليس له الفضل فى الطلاء والزينة فحسب، بل له الفضل فى الإبداع والإختراع»[1].

ولكن القدر تدخل هذه المرة لإمتحان روسو... فما أكثر الإمتحانات التى يسوقها القدر للملائكيين والإنسانويين، إذ أنه عودى وأُحرقت كتبه بسبب إقدامه على الإجابة عن تساؤل حول أصل عدم المساواة بين البشر!! حيث نقد الأوضاع القائمة على التمييز التعسفى الذى لا أصل له بين البشر، ومميزًا بين نوعين من اللامساواة، لا مساواة طبيعية أقامتها الطبيعة وتكمن فى الإختلاف فى الأعمار والقوى والصحة وخصال الروح، ولا مساواة أخلاقية سياسية تتمثل فى الإمتيازات التى تتمتع بها فئة على حساب الآخرين، والتى يقيمها البشر وتخضع لنوع من الإتفاق[2]... ولكنه فى تلك الأثناء لم يعدم ملائكيًا آخر، يدعوه للإقامة معه فى منزله... إنه فولتير... الذى وقف إلى جوار روسو فى تلك المحنة مواسيًا[3]..

ولم يكن هذا الإختبار القدرى بالسد المنيع ضد السيل الفكرى المنجرف

(1) محمد عطية الإبراشى، المرجع السابق، ص7.
(2) د. مصطفى النشار، فلاسفة ايقظوا العالم، ص369.
(3) ديورانت، قصة الفلسفة، ص308.

لروسو، بل ظل تأثيره حاضرًا حين الحياة، وبعد الممات، يقول د. النشار: «على أى حال فإن أفكار روسو لم يتوقف تأثيرها على من جاء بعده من الفلاسفة الذين فهموا وقدَّروا ذلك الإتجاه الجديد الذى حاول فتح الطريق إليه، بل إنه قد حصل بعد وفاته على التكريم والمجد الذى لم يجده فى حياته، فقد نُشرت مؤلفاته كاملةً فى جنيف عام 1782م، كما إندلعت الثورة الفرنسية عام 1789م بتأثير فلاسفة التنوير على رأسهم روسو، فهى كما جاء على لسان جافروش فى رواية البؤساء لهوجو «غلطة فولتير... غلطة روسو»... وقد عبَّر الشعب الفرنسى عن تقديره لروسو حينما طاف فى عام 1790م بتمثاله النصفى فى شوارع باريس بكل زهوٍ وفخار... ومنذ ذلك التاريخ لم يعُد روسو - كما كان يردد فى حياته - غريبًا بين البشر، بل أصبح أحدهم حينما وجدت أفكاره طريقها إلى قلوب وعقول الشعوب الأوروبية، وأصبح روسو - الذى لم يجد الصداقة - فى حياته، صديقًا لكل الناس، ولكل مثقف محب للحرية وللمجتمع على مر الأجيال والعصور»[1].

□□□

كيف تنشأ الدولة كمنظمة سياسية حتى يتسنى لها تحقيق العدل والمساواة اللذان يصبو إليهما روسو؟ هذا السؤال هو مفتاح شخصية روسو وأس فلسفته، إذ أن دعوته إلى العدالة والمساواة والحرية لم تقم أساسًا إلا لأجل تحقيق سعادة الإنسان، والتى لن تتحقق بدون العدل والمساواة والحرية، ومن ثمَّ يذهب روسو إلى أن الإنسان بطبعه وفطرته يحب الإجتماع، هذا الإجتماع ينشأ عنه عقد إجتماعى يتنازل بموجبه كل فرد عن جزء يسير

(1) د. مصطفى النشار، المرجع السابق، ص389.

مـن حريتـه فى مقابل حمايته والـذود عن أمن المجتمع كافة، ولندع روسـو يقـص علينا من نبأ ذلـك العقد قائلاً: «لابد من إيجاد نـوع ما من الاتحاد من شـأنه إسـتخدام قوة المجتمع كلها فى حماية شـخص كل عضـو من أعضائه وممتلكاتـه، وذلك بطريقة تجعل كل فـرد إذ يتحد مع قرنائه، إنما يُطيع إرادة نفسـه ويظل حرًّا كما كان من قبل، هذه هى المشكلة الأساسية التى يكفل العقد الإجتماعى حلها... وتتحدد شروط هذا العقد «بوثيقة الاتحاد» بحيث إن أى تعديل مهما صغُر شأنه يجعلها ملغاة ولا تترتب عليها آثار، فحتى رغم أنهـا قد لا تكون أُعلنت رسـميًا، فهـى لابد أن تكون واحـدة فى كل مكان وأن يتـم قبولهـا ضمنًـا والإعتراف بهـا فى كل مـكان، بحيث إنـه إذا خرق الإتفـاق الإجتماعى تعود بفقده الحريـة الإتفاقية التى من أجلها نبذ حريته الأولى»[1]..

ثـم يثبت روسـو رؤيته لـذاك العقـد بالقـول: «ولكى لا يصـير الميثاق الإجتماعـى إذن مجـرد صيغ جوفاء فإنه يشـتمل ضمنًا على ذلـك العهد الذى يسـتطيع وحده أن يُضفى على المجموع قوة، وهو: «إن كل من يرفض طاعة الإرادة العامة، لابد أن يقوم المجموع بإكراهه على الخضوع»، ولا يعنى ذلك أكثر من أنه سيُرغم على الحرية، حيث أن الحرية هى ذلك الوضع الذى يجعل كل مواطن جزءً من وطنه وبذلك يحيمه من كل خضوع شخصى، وهو أيضًا الأساس الذى يقوم عليه كل جهاز سياسى ويمده بالقوة اللازمة له، فاعتراف الفـرد بحقوق المجتمع هو وحده الذى يسـتطيع أن يُضفـى الحجية القانونية

(1) لوك، روسو، العقد الإجتماعى، ترجمة عبدالكريم أحمد، تقديم آرنست باركر، دار سعد مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ك1، ف6، ص90 - 91.

عـلى كل التعهدات المدنية، و إلا كانت هذه التعهدات لغوًا وطغيانًا وعرضة لإساءة الإستعمال»[1].

ولا يفقد المرء شيء من حريته فى هذا العقد، بل العكس هو الصحيح... «إن مـا يفقده الإنسـان نتيجة العقد الإجتماعى هـو حريته الطبيعية وحقه غـير المحدود فى الإسـتيلاء على ما يريد وما يسـتطيع الحصـول عليه، أما ما يكسبه فهو الحرية المدنية وملكية كل ما فى حيازته»[2].

هـذا العقـد الإجتماعـى يسـبق فكـرة الدسـتور، الدسـتور منظـم للقوانين إذ هو الدليل الكاشـف، لكن العقد يسبق الدستور... الدستور مكتـوب... ولكن العقد مفطور... الدسـتور يمكن تغيـيره وتبديله تبعًا للأهـواء... ولكن العقد ثابت فى كل زمـانٍ ومكان لا يتغيَّر ولا يتبدل... ولعل إصرار روسـو على العقد الإجتماعى حسـن فطنة فى جنوح النفس الإنسـانية إلى الـشر والحرب والقتل والطمع فى الملكيـة، لذا وضع العقد الإجتماعى كشرط أسـاسى للمؤسسـات السياسـية يسـبق وجود الدولة ووجود المؤسسات... لذا تراه يضع شروطًا كثيرة لهذه المنظمة السياسية، شروط تجابـه الأطماع البشريـة... تواجه الأهـواء والنزعات الشريرة داخل النفس الإنسـانية، يبدؤها بوضـع شروط لملكية قطعة من الأرض وحيازتهـا، الأول أن تكـون هذه القطعة مما لم يشـغله إنسـان من قبل، والثانى ألا يشغل المرء منها سوى الجزء الضرورى له، والثالث أن يُدخلها المرء فى حيازته لا بواسـطة الشـكليات الجوفاء ولكن بالعمل والزراعة،

(1) المصدر نفسه، ك1، ف7، ص96 .
(2) المصدر نفسه، ك1، ف8، ص97.

وهما العلامة الوحيدة للملكية التى يجب على الغير إحترامها فى حالة عدم وجود سند قانونى[1].

وكم هى رائعة هذه الشروط... صالحة لكل زمان ومكان... فكم يحار العقل من التعسف فى اللامساواة... التعنت فى الظلم... إذ نجد مئات الأفدنة البور عليها لوحة تحمل إسم أحد اللواءات أو أحد رجال الأعمال دون أن يستفيد منها أحد، فقط يُهدر المال العام، وتضيع الفرص أمام الضعفاء والبسطاء لإستغلال الأرض لخيرهم ونفعهم، مما يفت فى عضد المساواة... ويزهق كل فرصة ممكنة للعدل.... ويضيع على الدولة فرض النهضة الحقيقية...والتنمية الفعلية...

هذا العدل هو ما سعى إليه روسو فى الملكية، وفى الإنتفاع بالأرض وفى حيازتها فنراه يقول: «إن الناس هى التى تصنع الدولة، والأرض هى التى تمدهم بغذائهم، والوضع الأمثل إذن أن تكفى الأرض سكانها، وأن يكون عدد السكان كافيًا لإستهلاك إنتاج الأرض، وفى هذه النسبة يكمن الحد الأعلى من القوة الذى يصل إليه أى عدد معين من الناس، لأنه إذا كان هناك أرض أكثر مما يجب صار الدفاع عنها شاقًا والزراعة غير كافية، ويؤدى ذلك وشيكًا إلى الحرب الدفاعية، وإذا لم يكن هناك ما يكفى من الأرض، تصير الدولة تحت رحمة جيرانها الذين تستمد منهم ما ينقصها، ويؤدى ذلك وشيكًا إلى الحرب الهجومية، وأى شعب ليس أمامه بمقتضى وضعه إلا أن يختار بين التجارة أو الحرب، يكون ضعيفًا فى ذاته، فهو يعتمد على جيرانه كما يعتمد على الأحداث، ويظل كيانه غير مستقر وقصير، فإما أن يخضع

(1) نفسه، ، ك1، ف1، ص100.

غيره فيتبدل وضعه و إما أن يُخضعه غيره فينتهى كيانه، ولا يستطيع أن يبقى حرًّ إلا إذا كان صغيرًا بدرجة كافية، أو كبيرًا بدرجة كافية»[1]..

❐❐❐

من الشروط الضامنة للعقد الإجتماعى تحقيق الحرية وضمان المساواة، فهما شرطان ضروريان لقيام الدولة، ... «إذا بحثنا عما يتكون منه بالضبط أكبر قدر من الخير للجميع وهو ما ينبغى أن يكون هدف كل نظام تشريعى، سنجد أنه يتلخص فى شيئيين رئيسيين... الحرية والمساواة»[2] ويحدد روسو مفهومًا خاصًا للمساواة إذ يقول: «أما فيما يتعلق بالمساواة فيجب ألا يُفهم من هذا اللفظ أنه يجب التساوى الكامل فى درجات القوة والثراء، ولكنه يعنى فيما يتعلق بالقوة أنها تسمو على العنف وأنها لا تمارس إلا على أساس المركز والقانون، أما فيما يتعلق بالثروة فإنها تعنى ألا يبلغ أى مواطن من الثراء ما يجعله قادرًا على شراء مواطن آخر، وألا يبلغ مواطن من الفقر ما يدفعه إلى بيع نفسه، وهذا يفترض التوسط فى الثراء والمركز من ناحية الكبار، والإعتدال فى الجشع والشهوات من جانب الصغار»[3].. أى الإقتصاد فى الغنى والفقر، الوسط فى كل شىء، بل إنه يذهب إلى أن المساواة هى المقصود الرئيسى من الإرادة العامة... « كما يثبت أن الإرادة العامة يجب لكى تكون جديرة باسمها أن تكون عامة حقيقة لا فى جوهرها فحسب، ولكن فى أهدافها أيضًا، بحيث يشمل تطبيقها الجميع كما تصدر من الجميع،

(1) روسو، المصدر السابق، ك2، ف10، ص132.
(2) نفسه، ك2، ف4، ص136.
(3) نفسه، ك2، ، ف5، ص136.

وأنها تفقد مشروعيتها الطبيعية بمجرد أن تتجه إلى تحقيق أهداف فردية محددة، حيث إننا فى هذه الحالة إذ نصدر حكمنا على شىء خارج أنفسنا نفقد ذلك المبدأ الصحيح من الإنصاف الذى هو مرشدنا»[1].

هذه المساواة المنشودة أشبه بقيم المواطنة الرئيسية، حيث المساواة فى الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين وكذا أمام القانون، فمن رحم هذه المساواة تولد قيم المواطنة الحقيقية التى يحاول روسو إرساءها عبر قانون غير مكتوب ولكنه يمثل أعظم المسلمات، قانون فطرى، العقد الإجتماعى.

ثم يتبع روسو تلك الشروط بالقول... «وبالإضافة إلى هذه الشروط فيما يتعلق بتكوين الأمم، ينبغى أن نضيف شرطًا آخر لا يمكن أن يحل محله أى شرط غيره، ولكن بغيره تكون جميع الشروط بلا جدوى، وهى أن تتوافر فترة من السلام وقدر من الوفرة، لأن مرحلة تنظيم الدولة، مثل مرحلة تكوين كتيبة، هى الفترة التى يكون فيها الجسد فى أضعف حالاته وأكثرها تعرضًا للهلاك بسهولة، فالمقاومة تكون فى الفوضى الشاملة أسهل منها فى فترات التكوين حيث يكون كل إنسان مشغولاً بوضعه لا بالخطر المحدق، فإذا وقعت فى هذه الأوقات الحرجة حرب أو مجاعة أو فتنة إنهارت الدولة حتمًا»[2]، كما ينصح الدولة بعدم الإسراف فى الترف حتى لا يكون مواطنيها عبيدًا للأهواء... «لأن الترف إما أن يكون نتيجة للثراء أو أنه يجعل الثراء ضروريًا فهو يفسد الأغنياء والفقراء على السواء، يفسد الأولين بحيازتهم له والآخرين برغبتهم فيه، كما أن الترف يبيع الوطن للنعومة

(1) نفسه، ك2، ف4، ص110.

(2) روسو، المصدر السابق، ك2، ف10، ص133.

والخيلاء، و ينتزع من الدولة كل مواطنيها إذ يجعلهم عبيدًا لبعضهم البعض، وكلهم عبيدًا للأهواء»[1]..

فى مثـل هذه الدولة التى تقوم على المسـاواة، وتنعم بالسـلام... تخلو من الـترف الزائد فى العيش، ينعـم الجميع بالأمن وتقل نسـبة الإجرام فيها ومن ثـمَّ لا تحتاج الدولة إلى إقامـة عقوبات... «وفى الدولـة ذات الحكم الصالح لا تكثُر العقوبات لا بسـبب كثرة حـالات العفو، ولكن لقلة المجرمين، وفى حالة ضعـف الدولة تؤدى كثرة الجرائم إلى إرتـكاب الجرائم دون أن يخشى مرتكبوها العقاب»[2]..

ميزة أخرى تتمتع بها تلك الدولة، حيث الحد الأقصى من الممارسة الفعلية للديموقراطيـة، بمعنى أن الشـعب إذا حضر فـلا ينوب عنه أحـد، فهو يملك الكلمـة الفصـل والقول الفصل فى كل شـئونه... «بمجرد أن يجتمع الشـعب إجتماعًـا شرعيًا بوصفه هيئة سياسـية، تقف جميـع إختصاصات الحكومة، وتتوقف السـلطة التنفيذية، و يصبح شـخص أقل مواطن مقدسًـا وذا حرمة مثـل أكبر حاكم، لأنه عندما يوجد الأصل لا محل لمـن يمثله»[3]... «ومن ثمَّ فإن نواب الشعب ليسـوا ممثليه ولا يستطيعون أن يكونوا ممثليه، إنهم ليسوا سوى وكلاء مكلفين، فلا يستطيعون البت فى شىء بصورة نهائية، وكل قانون لم يُصدق عليه الشعب بشخصه باطل، وهو لا يكون قانونًا بالمرة»[4].

(1) نفسه، ك3، ف4، ص154.
(2) نفسه، ك2، فـ5، ص115
(3) نفسه، ك3، ف14، ص185.
(4) نفسه، ك3، ف15، ص187.

هكذا يوصد روسو الباب أمام نزوات الحكام وأهوائهم وتحكمهم فى أقدار الشعوب، وكذا يغلق الباب تمامًا أمام فساد المجالس النيابية ذات السمعة السيئة فى بعض بلدان الشرق، فالشعب هو صاحب المصلحة فى كل شىء، ومن ثمَّ فهو المراقب الأول والأخير لكل شىء، هو مناط الأمر والنهى جميعه، لا يتحدث باسمه أحد، ولا ينوب عنه أحد، ولا يتحكم فى إرادته أحد.

ولضمان تنفيذ تلك الشروط يضع روسو هيئة أشبه بالهيئة السرية لمراقبة الحكومة والقوانين يُسميها «محامى الشعب» فيقول... «وهذه الهيئة التى أدعوها "محاماة الشعب" هى الحارس على القوانين وعلى السلطة التشريعية، وهى تعمل أحيانًا على حماية معقد السيادة ضد الحكومة، كما كان محاموا الشعب يفعلون فى روما، وأحيانًا تؤيد الحكومة ضد الشعب كما يفعل «مجلس العشرة» فى البندقية فى عهدنا الحاضر، وأحيانًا تعمل على حفظ التوازن بين الأجزاء المختلفة، كما كان «المراقبون» يعملون فى إسبرطة»[1]، هذه الهيئة بمثابة حكم عدل على مدى قوة القانون، إذ لو فقد القانون قوته لفقدت الدولة حيويتها... «ويترتب على ذلك أن الرقابة قد تكون مفيدة فى المحافظة على المعايير الأخلاقية، ولكنها لا تُنشئها أبدًا، فأقيموا الرقباء تكن القوانين فى أوج حيويتها، لأنها إذا فقدت حيويتها زال كل أمل، فلا قوة لأى شىء إذا فقدت القوانين قوتها»[2].

وماذا بعد مراقبة القوانين والحكومة؟ هل تنقذ تلك الرقابة الدولة من

(1) روسو، المصدر السابق، ك4، فـ5، ص219.
(2) نفسه، ك4، فـ7، ص226.

حاكم فاسد أو ظالم؟ هنا يجيب روسو بأن السيادة للشعب، من تلك السيادة يمكن الحكم على أداء الحاكم بحسب ما تستهويه المصلحة، فإن كان ممن يفضل مصلحة الشعب فهو حاكم صالح وإلا فهو فاسد يستوجب العزل... «نستطيع أن نميز فى شخص الحاكم ثلاث إرادات مختلفة إختلافًا جوهريًا، أولاً إرادته الخاصة به كفرد، التى لا توجه إلا إلى مصلحته الخاصة، وثانيًا الإرادة المشتركة بينه وبين بقية الحكام التى توجه لمصلحة الأمير فقط، والتى يمكن أن نطلق عليها إرادة الهيئة، وهى إرادة عامة بالنسبة للحكومة ولكنها خاصة بالنسبة للدولة التى تعتبر الحكومة جزءًا منها، وثالثًا إرادة الشعب أو الإرادة السيادية وهى إرادة عامة بالنسبة للدولة بوصفها كلاً، وبالنسبة للحكومة بوصفها جزءًا من الكل... وفى أفضل التشريعات يجب أن تكون الإرادة الخاصة أو الفردية لا شىء، وتكون إرادة الهيئة الخاصة بالحكومة تابعة تمامًا، وبالتالى تكون الإرادة العامة أو السيادية متغبة دائمًا، والقاعدة الوحيدة لبقية الإرادات كلها»[1].. هذا فى الحكومات الصالحة، التى يهتم فيها الحاكم برعاياه لا بنفسه أو بحاشيته، ولكن ما الحل إذا كان مفضلاً لذاته أو لحاشيته؟... هنا يريد روسو عزل الشعب للحاكم إذا إرتأى له ذلك لأنه يملك السيادة الممتلكات العامة... «إن التصُرف الذى تكون الحكومة بمقتضاه وليس نقدًا، بل قانونًا، وأن من عهد إليهم بالسلطة التنفيذية ليسوا سادة الشعب ولكن موظفيه دون أن يكون لهم أى حق فى مناقشة الشروط، ومن ثمّ عندما يقوم الشعب بتعيين حكومة وراثية سواء ملكية فى عائلة أو أرستقراطية فى طبقة من المواطنين، فإن ذلك ليس إلتزامًا من جانبه،

(1) نفسه، ك3، فـ2، ص148 - 149.

ولكنـه مجرد الصورة المؤقتة التى يعطيها للإرادة إلى أن يحلو له كغيرها»[1]... فاللشـعب أمـر كل شيء، يـولى من يريد، ويعزل من يشـاء متـى إرتأى له ذلك.

ويلفت روسو النظر إلى منحى إنسانى فريد، إذ الحكومة الحسنة فى نظره ليسـت تلك التى تحقق الرفاهية الكبيرة، ولكنها التى تحقق السـلام للجميع فيقول: «فإذا تساوت الظروف الأخرى تكون الحكومة التى فى ظلها يتزايد السـكان ويتكاثـرون دون الإلتجاء إلى الوسـائل الخارجيـة أو التجنس أو إنشـاء المسـتعمرات، هى أفضل الحكومات بلا جـدال، والحكومة التى يقل أهلها ويهلكون هى أسوأها»[2]..

المقياس الرئيسى تحقيق السـعادة للإنسان... الحفاظ على حياته... رعاية حاجاتـه الأساسـية، للوصـول به إلى مسـتوى عالٍ مـن الرضـا... هذا هو مقياس الحكـم الصالح، أما الحكومات الإنتهازيـة... البيروقراطية... دول اللامواطنة... الجور والظلم... اللامسـاواة، فهى كلها ضد الإنسـانية، ضد الوجود الإنسانى.

❐❐❐

الدين له أثر كبير على قبول الفيلسوف أو رفضه، وهذه النقطة بالتحديد تسـترعى إنتباهى عبر فلاسفة الكتاب، لأننى رغم إهتمامى بالإنسان وذودى عن الإنسـانية وبحثى عن الملائكية داخل النفس الإنسانية وعشقى لمفارقة البـشر بشريتهم وتحليهم بإنسـانيتهم، إلا أنـنى لا أظن تلك المعانى السـامية

(1) نفسه، ك5، فـ18، ص194.

(2) روسو، المصدر السابق، ك3، فـ9، ص174.

تخرج من نفس غير سامية، وأى نفس لا تؤمن بوجود إله كبير... رحيم... متسامح... قادر... قيوم السماوات والأرض، فهى نفس غير سامية... أما إذا كانت تؤمن بالله الحى القيوم، ولكنها تلعن المتحدثين باسمه لأجل صيانة المبادئ الإنسانية فهى نفس تعيش عمق الوعى... صميم الإيمان... جوهر اليقين، لأنها تؤمن أن كل شىء لأجل الإنسان... الله ذاته جعل وجوده سبحانه لأجل الإنسان... الكون وما فيه خلق لأجل الخليقة الذى وقع إختيار الله عليه وهو الإنسان... الرسالات كلها جاءت رحمة ونورًا لأجل الإنسانية... الأنبياء... بل الدين ذاته لأجل الإنسان وليس الإنسان لأجل الدين أو لأجل الله... فالدين لهداية الحائرين ودلالة المسترشدين، والله... غنى عن العالمين... لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية الجاحدين... لأنه سبحانه غنى بذاته عن كل ذات... والدين عند روسو يمثل الإيمان العميق بالله القادر المقتدر، حيث يصر على توحيد الله توحيدًا حقيقيًا، فالله ضد الذبح، ضد القتل، ومن ثَمَّ رفض الأقانيم المتحدثة باسم الله، ولأجل ذلك قسَّم الدين إلى قسمين، دين طبيعى، ودين سماوى... دين الإنسان... ودين المواطن... الأول بلا معابد، ولا هياكل... ولا طقوس... فقط تعاليم نورانية محفورة فى القلب تحمل سلامًا وخيرًا لعموم بنى البشر، فى حين يتمذهب أصحاب الدين الآخر ويتخندقون حول دينهم، ويعتبرون المخالفين لهم كفارًا وزنادقة، وهذا أسوأ تعصب للدين... «بيد أنه سيئ فى حدود أنه لمَّا كان يقوم على أخطاء وأكاذيب فإنه يخدع الناس ويجعلهم بلهاء، ويؤمنون بالخرافات، ويُغرق عبادة الله الحقيقية فى طوفان من الطقوس الجوفاء، وهو سيئ أيضًا عندما يصير متعصبًا وطاغيًا فيجعل الشعب سفاكًا متعصبًا بحيث لا يتنفس إلا القتل والمذابح، ويعتقد أن قتله لكل من لا يؤمن بآلهته

عمـل مقدس، وذلك يجعل مثل هذا الشـعب فى حالة حرب طبيعية مع جميع الشعوب الأخرى، وهو أمر مضر جدًا بأمته»[1].

قد يظن البعض أن حديث روسو يقصد به متشددوا الإسلام، ومع أنى فى كتابات سابقة أسلفت أنه لا يوجد شىء اسمه الدين الوسط فى الإسلام، ولا يوجد شىء اسـمه التشدد فى الإسـلام... لا يوجد إلا شىء واحد اسمه منهج الإسـلام، من خرج عنه يمينًا أو يسـارًا فهو لا يمثل جوهر وروح الإسـلام، إلا أن روسـو، بعيدًا عن تلك الفرية قد شـهد للإسـلام ونبيـه ﷺ بما يثلج صدور المتسـامحين، وبما يغذى فكرة التسـامح بين الأديان والعقائد فيقول: «وكان لمحمـد ﷺ آراءًا صائبـة جدًا، فقد أحسـن ربط نظامه السـياسى، وطالما كانت صورة الحكم التى وضعها باقية فى عهد الخلفاء، فقد ظلت هذه الحكومة واحدة تمامًا، وكانت حكومة جيدة، ولكن العرب صاروا موسرين ومتعلمين ومترفين فأخضعهم البرابرة، ومن ثمَّ بدأ الإنقسـام بين السـلطتين، ورغم أن هذا الإنقسـام أقل ظهورًا لدى المسـلمين منه لدى المسيحيين، فإنه موجود فى كل مكان، وخاصة فى شيعة على، وهناك دول مثل فارس لا ينقطع الإحساس به فيها»[2].

أما عن إيمانه هو، فقد كان روسو متدينًا إلى حدٍ كبير، ومن تدينه ينبعث التسـامح مع المختلفـين عقائديًا... «ويجـب أن تكون عقائـد الدين المدنى بسـيطة وقليلة العدد ومحددة بدقة دون تفسـير ولا تعليق، وجـود إله قادر، ذكى، كريم، بصير، ومدبر للأمور، والحياة الثانية وسعادة الصالحين وعقاب

(1) روسو، المصدر السابق، ك4، ف8، ص235.
(2) نفسه، ك4، ف8، ص232.

المذنبين، وقدسية العقد الإجتماعى والقوانين، هذه هى العقائد الإيجابية، أما فيما يتعلق بالسلبية فإنى أحددها بواحدة، هى عدم التسامح»[1]).

ثم يؤكد على القيمة المطلقة للتسامح العقدى... «وأولئك الذين يميزون بين عدم التسامح الدينى وعدم التسامح المدنى مخطئون، فهما لا ينفصلان، إذ من المستحيل أن يعيش المرء فى سلام مع قومٍ يعتبرهم ملعونين، فحبهم يعنى كره الله الذى يعاقبهم، ولذلك يلزم إما إرجاعهم إلى الدين القويم، وإما تعذيبهم، وفى كل ما كان يوجد فيه عدم التسامح الدينى من المستحيل ألا يكون له أثر مدنى، وبمجرد أن يصير له أثر مدنى لا يعود معقد السيادة معقد سيادة، حتى فى الأمور الزمنية، فمنذ تلك اللحظة يصبح الكهنة هم السادة، والملوك مجرد موظفين عندهم»[2]. أى لا واسطة بين الله وخلقه، لا كهنة ولا غير كهنة، بل على المتدين الحقيقى أن يعيش فى سلام مع الجميع، داخل وخارج الكنيسة، إذ أن التسامح هو الفرض الغائب... «والآن، إذ لم يعُد هناك، ولا يمكن أن يكون هناك، دين قومى خاص، يجب على المرء أن يتسامح مع الأديان التى تتسامح مع غيرها، طالما لم تكن عقائدها تنطوى على أمر مضاد لواجبات المواطن، ولكن أيًا كان من يقول «لا سلام خارج الكنيسة»، فيجب طرده من الدولة، على الأقل ما لم تكن الدولة هى الكنيسة، والأمير هو الكاهن، فهذه لا تصلح إلا فى حكم دينى، أما فى أى حكم آخر فهى ضارة«[3].

(1) نفسه، ك4، ف8، ص239.
(2) روسو، المصدر السابق، ك4، ف8، ص240.
(3) نفسه، ك1، ف8، ص240.

ويتسع أمل روسو عبر التسامح إلى لا مجرد تحقيق التسامح فقط، ولكن تحقيق وحدة وسلام عالميين، ناقدًا تحريف تعاليم الدين المسيحى... القتل باسم الصليب... الإغتصاب والإفساد فى الأرض باسم المسيح... فى حين أن جوهر المسيحية السلام والوحدة بين البشر... «ولا يبقى بعد ذلك سوى دين الإنسان أو المسيحية، لا مسيحية اليوم ولكن مسيحية الإنجيل، وهى تختلف عنها تمامًا، فبمقتضى هذا الدين المقدس السامى الحقيقى يعترف الناس، وهم جميعًا أحباء نفس الرب، بأن الجميع إخوة، وأن المجتمع الذى يؤلف بينهم لا يبخل حتى بالموت»[1]، فإذا وجد مجتمع يلتزم جوهر المسيحية فإنه يغدو مجتمعًا ملائكيًا... «ويقولون لنا إنه إذا وجد شعب من المسيحيين الحقيقيين فإنهم يؤلفون مجتمعًا هو أكثر المجتمعات التى تستطيع أن تصورها كمالاً، وأنا لا أرى فى هذا الغرض سوى صعوبة كبرى واحدة، هى أن المجتمع المكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعًا من بشر»[2].

هكذا يقع الله فى قلب روسو... الله محبة... سلام... رحمة... وهكذا يكون الدين... لا واسطة بين الله وعباده... تعاليم بسيطة... ذات جوهر إنسانى... تسامح بلا ضفاف... سلام بلا حدود... إخوة بين البشر... التخلص من أهواء البشرية والسمو نحو الملائكية... كلها معانى تخرج من عمق فلسفة روسو.

❐❐❐

من أعظم أوجه ملائكية روسو، أنه اشتُهر بفيلسوف الحرية، لدرجة أن

(1) نفسه، ك4، ف8، ص235.

(2) نفسه، ك4، ف8، ص235.

المؤرخين يعدون كتابه فى... العقد الاجتماعى... إنجيل الحرية... لأنه آمن بالحرية الإنسانية بكل أشكالها، ووقف ضد ما يفيد تلك الحرية أيًا كان مصدره، حاكم أو سيد أو حتى الوالد... فأى نوع من العبودية لدى روسو مرفوض... «ولد الإنسان حرًا، ولكنه فى كل مكان مكبّل بالأغلال، وهذا ما لا يتصوره السيد الذى يتحكم فى الآخرين، وهو أكثر منهم عبودية، فكيف حدث هذا التغيير؟؟ لست أدرى!! وما الذى يجعله مشروعًا؟ هذا سؤال أعتقد أننى أستطيع الإجابة عنه، ولو كنت أتحدث عن القوة وحدها وآثارها لقلت: «ما دام أى شعب مجبرًا على الطاعة و يطيع فعلاً فى الواقع، فإنه يُحسن صنعًا، وبمجرد أن يصبح فى وسعه التخلص من أصفاده و ينجح فى ذلك، فإنه يصبح أفضل عملاً، فحقيقة أنه إستعاد حريته على نفس الأساس الذى سُلبت به منه، تعنى أن له حق إستعادتها، أو أنه لم يكن لأحد أن يسلبها منه»[1]..

من ثمّ فلا يتنازل الإنسان عن حريته لشخص الحاكم... «لماذا يبيع شعب بأكمله نفسه؟... إن الملك لا يوفر القوت لشعبه، بل على النقيض إنه يستمد قوته من الشعب، ومن الشعب وحده، وكما يقول «رابليه» الملوك يكلفون كثيرًا، فهل لنا إذن أن نذهب إلى أن الرعايا يسلمون أشخاصهم على شرط أن تؤخذ بأموالهم أيضًا؟ من العسير أن نرى ماذا يبقى لهم بعد ذلك.

سيُقال إن الحاكم المطلق يضمن السلام الداخلى لرعاياه، ولكن ما الذى يكسبونه إذا كلفهم ما يتعرّضون له من حروب بسبب أطماعه وجشعه الذى لا يرتوى وكلفتهم تصرفات وزرائه أكثر مما قد يكلفهم أى نزاع داخلى؟ وما الذى يجنونه إذا كانت حالة السلام الداخلى ذاتها هى أحد أسباب تعاستهم؟

(1) روسو، العقد الإجتماعى، ك1، الفصل الأول، ص76.

إن المرء يعيش مستمتعًا بالسلام تمامًا فى زنزانته، ولكن مثل هذا السلام وحده لا أظنه يضمن سعادة المرء، إن الإغريق الذين سُجنوا فى كهف «الغيلان» عاشوا فى سلام وهم ينتظرون دورهم ليلتهمهم «الغيلان»[1].

بالمثل تمامًا لا يتنازل الإنسان عن حريته للسادة، لأنه فى النهاية إنسان، ولد حرًا، ولابد وأن يعيش حرًا، هذه هى الطبيعة، أما العبودية فهى مؤسسة مناقضة للطبيعة تمامًا... «إذ لمَّا كان الإنسان يولد حرًا وسيد نفسه، لا يستطيع شىء إخضاعه بأية حجة كانت، فالقول بأن ابن العبد يولد عبدًا هو بمثابة القول بأنه لا يولد إنسانًا»[2]... فالعبودية ضد الطبيعة بالأساس... «وإذا كان هناك بعض الناس عبيدًا بالطبيعة، فالسبب فى ذلك أنهم جُعلوا عبيدًا ضد الطبيعة، فالقوة هى التى جعلتم عبيدًا، والجبن أبقاهم كذلك بوصفهم نوعًا»[3]..

ونلمح رؤية شبه ثورية لروسو فى هذا الإطار، إذ ينقم على من اختصه السادة بالعبودية خنوعهم للقوة فيقول «لابد إذن من الإعتراف بأن «القوة» لا تخلق «الحق» وأنه ما من إنسان ملزم بالطاعة إلا للسلطات الشرعية»[4].

أى أن الخضوع لأى سلطة كانت غير السلطات الشرعية هو خضوع ممقوت لا يقبله أو يرضاه روسو، بل حتى الخضوع للحاكم والسلطات الشرعية يكون مشروطًا بالإبقاء على حرية المحكومين كما أسلفنا، بل

(1) نفسه، ك1، ف4، ص82.
(2) نفسه، ك4، ف2، ص201.
(3) نفسه، ك1، الفصل الثانى، ص79.
(4) نفسه، ك1، ف3، ص81.

حتـى الخضوع الوالدى يرفضه و يأباه روسـو إذا نزع الحرية الإنسـانية... «وحتى إذا إسـتطاع الإنسان أن يتنازل عن نفسه، فإنه لا يستطيع أن يتنازل عـن أولاده، فهم يولـدون أحـرارًا، وحريتهم ملكهم، وليس لأحدٍ سـواهم حق التصرف فيها، وقبل أن يبلغوا سـن الرشد، لأبيهم أن يضع بعض القواعد المعنية بالنيابة عنهم، بقصد المحافظة عليهم وعلى رفاهيتهم، ولكن أى تحديد لحريتهـم فى الإختيار يجب ألا يُعتبر بلا قيـد ولا شرط ولا مما يمكن الرجوع فيه، لأن التنازل عن حرية شـخص آخر ضد النظام الطبيعى، و ينطوى على إساءة استعمال الحقوق الأبوية، و يبنى على ذلك أن الحكم التحكمى لا يمكن أن يكـون شرعيًـا إلا بشرط أن يكون كل جيل جديد من الرعايا حرًا إما فى قبوله، و إما فى رفضه، و إذا حدث ذلك لا يعود الحكم عندئذ تحكيمًا»[1].

هكذا تحتل قضية الحرية المكانة الكبرى فى فلسـفة روسـو، الحرية من كل قيـد غير طبيعى، وليسـت الحرية المُفضية إلى فـوضى... ولكنها الحرية المسـئولة فى جميع بنودها... طاعة للحاكم والسـلطات الشرعية بشرط عدم جور الحاكم أو إسـتبداده وعدم الإضرار بمصالـح الرعايا... وطاعة والديه شريطـة عـدم الإجحـاف بالحرية الشـخصية للأبناء، وهـو مطلب شرعى وعقلى وفطرى... وحرية طبيعية من العبودية بكل أنواعها وأشـكالها... إذ الطبيعة ضد العبودية... ومن ثمَّ فلا سادة، ولا عبيد...

□□□

يدرك روسـو، كما يدرك العقلاء... أن الطبيعة الإنسـانية تحمل بداخلها نقيضـين، خير وشر... أمـن وخوف... حزن وسـعادة... وهكذا من شـتى

(1) روسو، العقد الإجتماعى، ك1، ف4، ص83.

المتقابلات والمتناقضات، ومن ثمَّ فإن الإنسان هو مصدر الخير والشر معًا... الطبيعة الإنسانية تجنح إلى الخير... والأهواء البشرية تنزع إلى الشر... هكذا علمنا الإنجيل... وهكذا قضى علينا القرآن ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7 - 10]... ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10] أى مهدنا له كلا الطريقين... فأيهما يشاء سلك.

وقد فطن روسو باكرًا إلى أن تلك الطبيعة البشرية... مصدر الخير والشر... فصاح قائلاً: «أيها الحمقى... الذين لا يكفون عن الشكوى من الطبيعة، اعلموا أن كل مساوئكم إنما تنبثق منكم»[1].

الإنسان وحده مصدر الشر، مصدر الحروب... مبعث الأنانية والغطرسة والعنجهية، وتاليًا رفض روسو الحرب أيًا كانت لأنها تمثل قانون الأقوى، شرعة الغاب... «إن حق الغزو ليس له أساس سوى «قانون الأقوى» وإنما الحرب لا تمنح المنتصر حق ذبح أعدائه المهزومين، فإنه لا يستطيع أن يستند على حق لا وجود له فى إنشاء حق آخر باسترقاقهم، إن حقنا فى قتل أعداءنا لا يكون إلا إذا لم نستطع إسترقاقهم، فإنه ينبغى على ذلك أن حق الإسترقاق لا يمكن أن يستمد من حق القتل، وأننا نرتكب ظلمًا إذ نفرض تبادلاً جائرًا بأن نجعل عدوًا مهزومًا يدفع حريته ثمنًا لحياته التى لا نملك عليها حقًا، أليس من الجلى أننا بمجرد أن نبدأ فى إقامة حق الحياة والموت على حق الإستعباد،

(1) روسو، الإعترافات، ترجمة محمد بدر الدين خليل، مطبوعات كتابى، القاهرة، د ت، ص182.

وحق الإستعباد على حق الحياة والموت، نقع فى دائرة مفرغة»[1]... وبناءً عليه يوجه روسو النقد إلى الحرب التى تقوم ضد الحق الطبيعى والتى هى من عادة الملوك فيقول: «أما فيما يتعلق بالحروب الخاصة التى أباحتها مراسيم الملك لويس التاسع ووضعت لها «الهدنة الإلهية» حدًا، فإنها كانت مجرد إساءة إستعمال للأوضاع الإقطاعية، وهو أسخف نظم الحكم، والذى كان يناقض مبادئ «الحق الطبيعى» وحسن السياسة»[2].

لكن يبقى التساؤل، ما الحل إذا وقعت الحرب وكان لا مناص من تلطيخ الإنسانية بشرور صنعها الإنسان تحت وطأة أهواء شريرة!! هنا نرى روسو يضع شروطًا أخلاقية إذا كان لابد من ثائرة الجاهلية... «إن إعلان الحرب إنذار للرعايا أكثر منه للحكومات، فالأجنبى سواء كان ملكًا أو شخصًا عاديًا أو أمة فى مجموعها، الذى يسرق رعايا بلد آخر أو يقتلهم أو يأسرهم دون إعلان الحرب أولاً على أمير هذا البلد، يتصرف كقاطع طريق لا كعدو، وحتى عندما تنشب الحرب، فإن الأمير العادل، وإن كان له أن يستولى على جميع الأملاك العامة فى إقليم العدو، يحترم مع ذلك ممتلكات الأفراد وأموالهم، وهو بذلك إنما يُبدى رعايته لتلك الحقوق التى تقوم عليها قوانينه هو، ولمَّا كان هدف الحرب هو تدمير دولة العدو، فإن للقائد كل الحق فى قتل من يدافعون عنها طالما كان سلاحهم فى أيديهم، ولكن بمجرد أن يلقوه ويستلموا لا يعودون أعداءًا أو أدوات يستخدمها العدو، ويصيرون مرة أخرى مجرد أشخاص عاديين، ولا شىء أكثر، ولا يحق لأحد أن يدَّعى لنفسه

(1) روسو، العقد الإجتماعى، ك1، ف4، ص86.
(2) نفسه، ك1، ف4، ص82.

عـلى حياتهم حقًا مشروعًا، ومن الممكن أحيانًـا تدمير دولة دون قتل أيٍ من رعاياها، وليس هناك فى الحرب ما يمكن الإدعاء بأنه حق سوى ما قد يكون ضروريًا لتحقيق هدف المنتصر»[1].

تلـك كانت أعظـم أوجه إنسـانية روسـو، التـى إنتقلت بـه إلا النفس الملائكية، التى تسـعى لخلاص الإنسـان من كل أقانيم الحياة التى تسـتعبده وتذله وتقتله فى اليوم الواحد مائة ألف مرة، مرة باسـم الدين، وأخرى باسم الحاكم، وثالثة باسم السيد، ورابعة باسم الصليب أو الإسلام، وخامسة باسم الله ذاته الذى تعالى عن شائن الأخلاق وسفاسفها... فنادى بالتسامح، ووقف ضد الحرب... ونادى بالإخاء والمساواة، وما أعظم تلك النداءات كلها... وما أروع سمو أصحابها، وما أجمل تلك الغايات... وما أسمى تلك النفوس.

❐❐❐

(1) نفسه، ك1، ف4، ص86، 85.

الفصل التاسع

كانط...

فى الثالث من أبريل لعام 1724م، يجلس الأب يوحنا جورج كانط فى بيته، متنسمًا هواء كونجسبرج الطلق... منتظرًا لحظة الميلاد السعيد لطفله الرابع الذى تعلق به قبل أن يراه... ليفاجئ بألم مخاض الزوجة... فطالما دعت ربها أن يرزقها طفلاً متدينًا على شاكلتها... فما أعظم تدينها... وما أروع عبادتها... ليأتى إيمانويل كانط فى ذاك اليوم لأسرة متوسطة الحال... حيث أب يعمل سرَّاجًا، وجد للأم يعمل صانعًا فى مدينة نوريرج الألمانية.

وقد نجح الوالد بالكد والعرق أن يوفر لأطفالٍ أربعة حياة كريمة، مكنت الصغير من أن ينشأ فى جوٍ من الأخلاق القويمة والمثل العليا النبيلة والقيم الدينية الرفيعة.

وتلقى إيمانويل تعليمه الأولى فى مدرسة تابعة لمستشفى القديس جورج، حيث تعلّم خلال عامين مبادئ القراءة والكتابة والحساب وأصول الدين المسيحى، وانتقل بعد ذلك إلى كلية الملك فريدريك التى كان يديرها فرانز شولتزا الذى كان رائدًا من رواد مذهب التقوى، وقد درس فيها الصبى

اللغـة اللاتينية وأُعجب بهـا وبثقافتها وتشرَّب من خلالهـا مذاهب القدماء وعلومهم وفنونهم، ولكنه ثار ضد الطريقة التى تتبعها الكلية فى تعليم الدين بطرق متشـددة ومتزمتة قادته فى النهاية إلى الثورة ضد الكنيسـة فيما أسماه بـ «التدين الزائف» أو «التشكل الكاذب»..

وتخرج كانط من هذه المدرسـة عـام 1740م و إلتحق بكلية الملك ألبرت أو مـا عُرف بعـد ذلك بجامعة كونجسـبرج قبل أن يبلغ السـابعة عشرة من عمره، و إختار الفلسفة ليتخصص فيها لتكون دراسته تلك أهم نقلة فكرية فى حياتـه، وظـل بهذه الجامعـة حتى التخرج فى عـام 1746م، لتبـدأ رحلته العملية مشتغلاً بالتدريس وتربية أبناء بعض الأُسر الأرستقراطية فى مختلف المدن الألمانية حتى حصل على الدكتوراه فى عام 1755م فى رسالة عن «النار» كأصل من أصول الطبيعة، ومن ثمَّ عُين محاضرًا بالجامعة فى الثالثة والثلاثون من عمره متدرجًا فى الوظائف الجامعية، ومتدرجًا فى مكانته الفكرية أيضًا، حيث بدأ فى نشر أعماله تباعًا، والتى جعلت له مكانة كبرى فى بلاده[1].

ونذر كانط حياته للعلم والفلسفة والعمل، فلم يتزوج رغم تفكيره ذات مـرة فى الزواج، مفضلاً حياة الصداقة مع أصدقائه والعيش وسـط الناس... كما اشتُهر بالنظام الدقيق فى حياته اليومية لدرجة دعت أحد الشعراء يقول «لا أظن أن سـاعة كاتدرائية كونجسبرج الكبيرة تؤدى علمها بصورة أكثر إنتظامًا ودقة من مواطنها كانط»[2].

وعـاش كانـط حيـاة فكريـة ملؤهـا العمـل والعطـاء، لا تنقطـع فيها

(1) د. مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، ص394 وما بعدها.
(2) نقلًا عن د. مصطفى النشار، المرجع السابق، ص398.

الثـورة، ولا تتوقف فيها المعارك، يقول ديورانـت: «لقد وقف كانط مؤيدًا للديموقراطيـة والحرية فى الوقت الذى أجمعت فيـه الرجعية والظلم واتحاد ملوك أوروبا على سحق الثورة الفرنسية، وقد إتخذ موقفه هذا على الرغم من أنه كان فى السبعين من عمره، لقد دعا إلى إقامة النظام الديموقراطى والحرية فى كل مكان ولم يشـاهد التاريخ كهلاً دعا إلى مبادئه بشـجاعة لا تقل عن شـجاعة الشـباب مثله، لقد استنزف الكفاح وضعف الشـيخوخة قواه، لقد جرى فى سـباقه وحارب فى معركته وأصابه خرف بسيط إنتهى به إلى جنونٍ مؤذ، وأخذت قواه ومشـاعره تفارقه الواحدة بعد الأخرى، وفى عام 1804م أسلم روحه بهدوء وسقط كورقة شجرة ذابلة فى أيام الخريف»[1].

❐❐❐

عـاش كانط طيلـة حياته ينظـر إلى الصراعات البشريـة بحزنٍ وضيق صدر، يتساءل فى نفسه... أهذا عالم إنسانى مُيز أهله بالعقل والقلوب النقية والفطرة الحسنة والأخلاق القويمة؟ أهذا عالم يتسم بأدنى درجات المعقولية؟! إنـه لموقـف يدعو إلى العجـب... أبناء العقـل لا يعقلون... بـل يتصارعون ويتقاتلـون... كيف ذلك والأمـم الأخرى من الحيوانـات والطير والهوام، بل والحـشرات، لا تتقاتل... لا يقتل بعضها بعضًا...ولا يتشـاجر بعضها مع بعـض...لا تبرروا لنا بأنهم لا يمتلكون الأسـلحة الفتاكة ولو ملكوها لفتك بعضهم ببعض... هذا عار تمامًا عن الصحة، لأنهم يمتلكون أسـلحة أقوى مما يمتلكها البشر، فهم عشـائر وقبائل ولديهم القوة الكافية لإثارة الحروب فيما بينهم، ولكنهم يؤثرون السلام... يؤثرون الحياة الهادئة... وداعة الطبيعة...

(1) ديورانت، قصة الفلسفة، ص65 وما بعدها.

رقـة القلـوب... صفاء الأفئـدة... يكتفـون من الدنيـا بما يقيـم حياتهم... لا يتصارعـون على طعامٍ أو شرابٍ أو سـكن، وما هـى ملتزمات الحياة لأى فصيل من الفصائل غير هذه الأربع... طعام وشراب وسكن ودواء... أرأيتم قبيلة من النمل تقاتل أخرى... لم يحدث ذلك، بل وجدنا خوفهم على بعضهم البعـض... وجدنـا ذعرهم عنـد وجود خطر يحـدق بهم... سـمعناهم وهم يصرخون... يحـذرون... ينصحون... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمـل: 18]... هكذا تحدثت نملة... هكذا خافت على بنى قومها... وهكذا التعاون والتعاضد والسـلام بين جميع ممالـك وقبائل الحيوان والطير... أنظر إلى مملكة النحل ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾ [النحـل: 68 - 69]... مملكـة الطـير... مملكـة الحشرات... مملكة الهوام... كلها تسـبح بحمد بارئها وتعيش فى سـلام، كلها تؤثر السلم والأمن لها ولبنى جنسها... إلا الإنسان... يتقاتل ويتطاحن... ويعتصر عقله الجبَّار لا لتحقيق رفاهية أبناء جنسه... لا لحمايتهم من المخاطر كما صرخت النملـة... لا للبحث عن أمانهم المفقود كـما تفعل ممالك الحيوانات... ولكن لأجل صناعة أحدث الأسـلحة التى يدمر بها الحياة... يقتل بها بنى جنسه... يبيد الوجود... يذهب بالحياة إلى غير رجعة.

أرأيتم المفارقة بين أبناء العقول الذين كُرموا وفضلوا على كثيرٍ ممن خلق اللـه تفضيلًا وغيرهم من الحيوانـات والمخلوقات الأعجمية التى لا تنطق... أرأيتـم العصفورة ذات الحنان الضافى وهى ترفـرف بجناحيها الضعيفين على صغيريها بشـغفٍ وحنانٍ ورحمـة... أرأيتم كيف تطعمهـما فى أفوافههما... أرأيتم كيـف حنوها عليهـما... وفى المقابل أرأيتم كيف يقتل الإنسـان أباه

وأخـاه وولده... أرأيتم الموؤدة الصغرى والكبرى على حدٍ سـواء... ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8 - 9]...

كل هذه الصور والمشاهد والمفارقات تملأ عقل كانط... البشرى بدرجة إنسـان... والإنسانوى بدرجة ملاك... إنه يفكر فى سلام دائم... سلام ليس فيه حرب ولا قتال ولا نزاع من أى صورة وتحت أى بند ولأى سـبب... هذا هو المطلب الفطرى... المطلب الذى تؤيده الطبيعة وتتوق إليه... فالإنسان خـيَّر بطبعه... يميل إلى السـلام بفطرتـه... «لكن ما تؤديـه كل دولة لفكرة الحق مـن ضروب التكريم والتشريف، ولو بالـكلام، لا يخلو من دليل على أن فى الإنسان إستعدادًا، أخلاقيًا لا يزال قويًا على الرغم مما يعتريه من فتور فى هذا الزمان، يحفز إلى التغلُّب يومًا على الشر الكامن فى نفسـه ولا يستطيع إلى إنكاره سـبيلاً، ولو لم يكن الأمر كذلك ما إسـتطاعت الدول التى تبغى الحرب أن تتفوه بكلمة الحق إلا على سبيل السخرية»[1]...

هـذه الفكرة - السـلام - مطلب شرعى واقعى لا يوتـوبى محض خيال... ولكنها تحتاج إلى جهود جبارة من النخبة والفلاسفة لإحيائها... لحفر مسالك طبيعية تسير من خلالها... خاصة أن الفلاسفة هم عقل الأمة المدبر ولسانها الحكيم وفؤادها الصادق، تلك كانت أمنية الرجل.... «لا رجاء فى أن يصبح الملوك فلاسـفة أو الفلاسـفة ملـوكًا، وما ينبغى أن يكون ذلـك مأمولاً، لأن ولاية السـلطة من شأنها أن تفسـد حكم العقل وأن تقضى على حريته قضاءً لا مـرد لـه، ولكن الملوك أو الشـعوب المالكـة (أى التى تحكم نفسـها طبقًا

(1) كانط، مشروع السلام الدائم، ترجمة د. عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1979م، ص59.

لقوانين المساواة) لا ترض أن تنقرض طبقة الفلاسفة أو أن تلتزم الصمت فلا يُسمع لها صوت، بل تدع لها حرية الجهر بآرائها والتعبير عنها صراحة، وهذا أمر لا غناء للملوك ولا للشعوب عنه، لأن فيه إبانة لشئونهم وهداية لسبيلهم، على أن الفلاسفة بطبيعتهم عاجزون عن أن يحشدوا الحشود أو أن يتجمعوا فى النوادى والأحزاب، فلا يمكن أن تحوم حولهم شبهة الدعاية»[1] ثم يشرح مستفيضًا بالقول... «قد يبدو إهدارًا للسلطة التشريعية فى الدولة التى يُنسب إليها طبعًا أكبر قسط من الحكمة، أن تلتمس لدى رعاياها (ومنهم الفلاسفة) أن يرشدونها إلى مبادئ سلوكها بإزاء الدول الأخرى، ومع ذلك فمن البصر بالأمور أن تسلك الدولة هذا المسلك، و إذًا فالدولة تدعو رعاياها سرًا، مع كتمان قصدها عنهم، إلى إعلان آرائهم والتحدث بحرية وصراحة عن الأحكام العامة المتعلقة بالحرب والسلم (لأنهم لا يلبثون أن يُصرحوا بآرائهم من تلقاء أنفسهم ما لم يمنعهم من ذلك مانع)، ولا حاجة بهذا الصدد إلى أى إتفاق خاص تعقده الدول فيما بينها، لأن ذلك متضمن من قبل فى الإلزام المستمد من العقل الكلى الشامل(أى العقل الأخلاقى المشرّع)، ولا نعنى بهذا أن الدولة يجب أن تفضل مبادئ الفلسفة على فتاوى فقهاء القانون الممثلين لسلطة الدولة، و إنما نقصد أن نقول إنه يجب عليها أن تستمع إلى آراء الفلاسفة»[2] إنه ذات حلم أفلاطون من قبل... وسيظل حلم العقلاء حتى تغدو الحياة لا حياة... والوجود لا وجود... فالفلاسفة هم العقل والقلب معًا، هم إثنين فى واحد... فكيف تغفل الدول دورهم؟ وكيف يحجمون عن آرائهم دون أن يسترشدوا و يستنيروا بها؟! وفى ملمح آخر يهيئ

(1) كانط، المصدر نفسه، ص85.
(2) نفسه، ص84.

به كانـط الأجواء لفكرة السـلام الدائم يجعل السياسـة تابعة للأخلاق، أو يُحسـن أخلاق السياسة بعيدًا عن الرذائل والسفاسف التى يمارسها المتملقون للأنظمة... هؤلاء السياسيون يطرحون ذلك العلم العملى الذى يُفاخرون به، فتراهم يشغلون أنفسهم بتملق السلطات القائمة، خدمة لمصالحهم، و ينزلون إلى مناورات لا يتورعون بها عن أن يبيعوا الشعب، بل العالم بأسره، لو كان ذلـك فى مقدورهم، وهذا ما يقع للفقهاء القانونيين، وأقصد القانونيين بالمهنة لا «المشرعين» حين يلقون بأنفسـهم فى غمار السياسة، والواقع أن وظيفتهم ليسـت النظـر العقلى فى التشريع نفسـه، بـل تنفيذ الأحـكام التى يقضى بها القانون المدنى، وهم يرون أن أفضل دستور هو الدستور القائم فعلاً»[1]... مثل هؤلاء الساسـة يبيعون الأوطان لأجل مصالحهم الشخصية... لأجل نزواتهم ونفوسـهم الحيوانية... ومن ثـمَّ وجب إتباع السياسـة للأخلاق لا العكس، إذ أن ذلـك يهيئ لسـيادة سـلام دائم لا نـزاع فيه ولا صراع... «والسـياسى الأخلاقـى يعتنـق المبـدأ الآتى، إذا وجدت فى نظام دولـة أو فى علاقات تلك الدولة مع الدول الأخرى عيوب لم يكن فى الإستطاعة تلافيها فمن الواجب خصوصًا على رؤساء الدول حتى ولو ضحوا بمصالحهم الشخصية أن يلتمسوا سُبُل إصلاحها بقدر ما فى وسعهم، وأن يقتربوا من القانون الطبيعى كنموذج مثالى يضعه العقل أمام أعيننا، ومن حيث إنه يكون مخالفًا للحكمة السياسية التـى هى عـلى إتفاق مع الأخلاق هنـا، أن نقطع أواصر الجماعـة المدنية أو العالمية قبل أن نحصل على دستور أفضل يحل محل القديم، فمما يخالف العقل مخالفـة تامـة إلا المطالبة بإصلاح هذا العيب بالقوة وعلى وجه الإسـتعجال،

(1) نفسه، ص92.

ولكـن ما يمكن مطالبة الحكومات به هو أن نضع أمام ناظريها دائمًا ضرورة إجراء مثل هذه الإصلاحات»[1]..

إذن السلام قانون طبيعى، فطرى... يستوجب تضحية الساسة بمصالحهم، تنازلهـم عن أهوائهم... ينحنوا للحق... يقبلوا الطبيعة... «بل الواجب على السياسـة أن نتحنى للحق، وبهذا وحده يقوى أملها فى الوصول - ولو ببطء - إلى مرتبة يتألق فيها سناؤها تألقًا موصولاً»[2].

فالسـلام كفكرة ينزع إلى خير مـا فى النفس الإنسـانية... يبتعد بها عن موطـن الشر... «إن القضية لتكن العدالـة، وليهلك العالم، تلك القضية التى ذهبـت مثلاً، والتى لا تخلو من طنطنة عـلى الرغم من صدقها، والتى معناها أنـه ينبغى أن يكـون الحكم للعدالة، ولـو أدى ذلك إلى فنـاء جميع الأشرار المفسـدين، هى مبدأ شرعـى ممتاز، يقطـع كل الطرق الملتوية التى رسـمها الغـدر والعنف، ولكن هـذا المبدأ ينبغى أن يُفهم حق الفهـم، إنه لا يبيح لنا أن نسـتعمل حقنا بمنتهى الشدة، وهو أمر مخالف للواجب الأخلاقى، ولكنه يُرغم الأقوياء على عدم المسـاس بحق أى فرد أو الإضرار به، بدافع النفور منه أو الشـفقة على غيره، ولكن هـذا يقتضى على الخصوص أن يكون للدولة دسـتور داخلى قائم على المبادئ للحق والمـشرَّع، كما يقتضى إئتلاف الدولة مع الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها إئتلافًا شـبيهًا بالدولة العالمية الشـاملة لتسـوية خلافاتها بالطرق الشرعية، وهذه القضية لا تعنى شيئًا أكثر مما يلى: إن المبادئ السياسـية ينبغى ألا تقوم على الرفاهية والسـعادة اللتين تنشدهما

(1) كانط، المصدر السابق، ص91.
(2) نفسه، ص103.

كل دولـة، وبالتالى ألا تقوم عـلى الغرض الذى ترمى إليه كل منها وتشـتهيه لنفسـها كمبدأ أسـمى للحكمة السياسـية، بل على الفكـرة الخالصة، فكرة واجـب الحق، الذى يكون العقل الخالـص قد أعطى مبدءًا أولانيًا مهما تكن نتائجهـا المادية، والعالم لن يهلك إذا قلَّ فيه عدد الأشرار المفسـدين، وللشر الأخلاقـى خاصية لا تفارق طبيعتـه، وهى أن مقاصده مضادة له ومؤدية إلى فنائـه، وخصوصًا فى علاقات الأشرار بأناس لهم مثل إسـتعداداتهم ونياتهم، وبذلـك يتقهقر الـشر ليحل محله رويـدًا رويدًا، المبدأ الأخلاقـى... ومبدأ الخير»[1].

هذا ما يتمناه كانط، أن تتوجه كافة الإسـتعدادات البشرية للسـلام... للخير... للعدل... ولكن الواقع الذى يعيشه ملئ بالترهات وشائه الأخلاق... لأن الساسة والمفكرين المسيّسين يفصلون بين الأخلاق والسياسة، يسيسون الأخلاق دون أن يحسـنوا أخلاق السياسة، مما أدى إلى وجود دساتير لا تحترم السـلام ولا تسـعى إليه، بل تسـعى إلى تبرير ما يفعله الساسة المجرمون وما ينتهكون من صنائع لا أخلاقية... يقول كانط:

«1- «افعل ثم برر»... إنتهز الفرصة الملائمة لتملك حق الدولة قبل الشعب الذى تتولى أمره أو قبل شـعب آخر، أما التبريـر لتملك حق الدولة قبل الشـعب الذى تتولى أمره أو قبل شعب آخر، أما التبرير فيكون بعد إتيان الفعل، أكثر يُسرًا ورشـاقة، وكذلك تلطيف حدة التصرف خصوصًـا فى الحالة الأولى حيث تكون السـلطة العليا هى فى الوقت نفسـه الحاكم المشرّع الذى يفرض على الناس طاعته دون مناقشته،

(1) كانط، السلام الدائم، ص100.

يكون أهون وأسهل لو عمدت أولاً إلى الفحص عن الأسباب المقنعة والـرد على ما قد يُثار من إعتراضات، على أن هذه الجرأة فى التصرُف هى ذاتها تُشـعر بأن ورائها إقتناعًا نفسيًا بمشروعية العمل، والنجاح والأمر الواقع هما أبلغ المحامين.

2- «إذا فعلـت فأنكر»... إذا كنـت قد دفعت الشـعب إلى اليأس و إلى العصيان فأنكر أن يكون الذنب ذنبك و إنسبه إلى عناد رعاياك، و إذا إسـتوليت على شـعب من جيرانك، فألق الذنب على طبيعة الإنسـان، وقل إنك إذا لم تسـبق جارك بالعدوان، فلسـت تأمـن ألا يبتدرك هو و يستولى عليك.

3- «فرق تسـد»... إذا كان فى شـعبك من ذوى المقام رؤساء، إختاروك حاكمًا عليهم ففرق شـملهم، وبُـث الوقيعة بينهم وبين الشـعب، ثم تملق الشـعب وابذل له الوعود بأنك سـتمنحه حرية أوسع، وسرعان ما يصبح كل شىء رهن مشيئتك... و إذا كنت تطمع فى الإستيلاء على دول أجنبية، فبُث فيها بذور الفتنة فهذا سبيل مأمون لإخضاعها جميعًا واحـدة إثر أخرى، وتظاهر دائمًا بأنك نصير المسـتضعفين... صحيح أن أحدًا لاتخدعه هذه المبادئ السياسـية، لأنها جميعًا معروفة، ولذلك فـلا محل للخجـل منها كما لو كان ظلمها صارخًـا للناظرين، فالدول الكـبرى لمّـا كانت تحس الخجل إلا من الحكم الـذى يحكم به بعضها عـلى بعض، ولا تقيم وزنًا لرأى الجمهـور، فلا يخجلها من هذه المبادئ إعلانهـا على الناس، بل إخفاقهـا فى تطبيقها - لأنها جميعًا على إتفاق فى موضوع أخلاقية هذه المبادئ - و يبقى شىء تعوَّل عليه الدول الكبرى

وتطمئن إليه، وهو «الشرف السياسى» المنوط بزيادة بأسها وبسطة سلطانها كائنة ما كانت سبيلها الوصول إلى هذه النتيجة»[1]..

هذه المخاتلات السياسية اللأخلاقية يحذر منها كانط ويفضحها أمام الجميع، ليعلم القادة والساسة فى كل زمان ومكان أن ألاعيبهم الشيطانية لا تخفى على المفكرين الحقيقيين ذوى الموضوعية... ذوى المروءة... فليس معنى الخوف من سياط الجلاد عدم القناعة بظلم تلك الطبقة الحاكم فى غالب الأحيان، فالنفس تمتلئ قناعة وقوة وشجاعة لمجابهة ظلم القادة ولكنهم بجورهم وإستبدادهم يخشون حتى مجرد الكلام، فيوصدون كل باب إلى الحرية أمام المفكرين والعلماء، حتى ولو مجرد الكلمة... فتخلفت الأوطان خاصة فى بعض بلداننا العربية، وعاشت تلك البلاد ديكتاتوريات استبدادية تحت اسم الجمهورية أو الجماهيرية أو غيرهما من المسميات... فساد حكام... ورضوخ شعب وأنينه... وقتل متعمد للمفكرين... وهدم مباشر لكل ما من شأنه أن يرتقى بالعقول، فأصبح حالنا على ما هو عليه، وكفى بالواقع شاهدًا وشهيدًا.

❐❐❐

يعترف العقل ويستقر فى يقينه أن المثالية المطلقة ممتنعة الوجود، ولكنه يأبى إلا صنعها ولو فى خياله المجرد... ولكن مع أول إصطدام بالواقع تأبى الأحداث إلا رفض تلك المثالية والتأكيد على الطبيعة البشرية... نزاع... صراع... آلام... أحزان يفرضها الواقع البئيس.

(1) كانط، المصدر نفسه، ص94 - 95.

لكن دعوة كانط للسلام... وأى دعوة من هذا النوع لا يمكن إدراجها أبدًا تحت بند المثالية... لسبب بسيط جدًا، وهو أن تلك الدعوات الكريمات تمثل نداءات الفطرة السليمة... الأفئدة الرقيقة، القلوب الحانية... الطبيعة فى أصلها وجوهرها... يقول د. عثمان أمين فى تقديمه لكتاب السلام الدائم... «والناظرون فى فلسفة كانط الأخلاقية لا يرون بدعًا، لأنهم يعلمون أن الفلسفة الكانطية أبعد الفلسفات الألمانية عن نزعات القومية ونزوات العصبية، ذلك أنها فلسفة لا أقول «عالمية» بل «إنسانية» بأجمل وأرفع معانى الإنسانية»[1]..

هذه الكلمات تمثل فيصل جوهرى، لأن إهتمامى كله منصب على الفلاسفة الإنسانيون... الذين يحملون مشاعل الخير والسلام والعدل للإنسانية، يظلون يحملونها حتى نحترمهم هم، يموتون وهم يحملونها... دون أن تهن لهم عزيمة أو يضعف لهم أمل فى أن المستقبل سيتلقف جنينهم الإنسانونى بالرعاية والحماية حتى و إن لم يروا هم النصر و يُعاينوه... لقناعتهم أن دعواتهم تمثل الفطرة الإنسانية، جوهر الطبيعة فى معينها الصافى الرقراق... تلك المعانى خرجت من جوف أصل الوجود... مبادئ الطبيعة الأولانية... ضد الظلم... ضد الحرب... كل ما يسلب الإنسان وجوده أو حقه أو حريته... فكانت أصوات أولئك الإنسانيون... وستكون فى المستقبل أصوات إخوانهم من الركب الطاهر أيضًا... ستظل تلك الدعوات شاهدة على خزى الإنسانية... ستظل الظلمات البشرية عارًا يلاحقها عبر الزمان... وعبر المكان إلى أن يغدو الكل هناك... حيث ثواب وعقاب...

(1) المصدر نفسه، المقدمة، ص19.

حيث ميزان عدل... حيث قد علم كل أناس مشربهم... حيث لا تكلّم نفس إلا بإذن الإله الواحد الأحد... يصرخ كانط «و يالأكثر ما صرخ... الحروب دمار... الصراع والتقاتل لا يحمل الصفات الإنسانية، بل ولا الحيوانية لأن الحيوانات لا تتقاتل، قد تختلف بعض فصائلها أو تتعارك، ولكنها أبدًا أبدًا لا تدمر أقرانها... لا تبيد النوع... لا تهلك الحرث والنسل... إنها بالأحرى صفات شيطانية... فالشياطين فقط هم من يوحون إلى أوليائهم تدمير الكون... العبث بالوجود... قتل الحياة... لذا رأينا كانط ضد الحرب... «إن حكامنا لا يملكون المال للإنفاق على تعليم الشعب وتثقيفه لأنهم حولوا كل مواردهم المالية فى الإستعداد للحرب القادمة»[1]...

ومن ثمَّ كتب فى مقدمة كتابه «السلام الدائم» ما نصه: «ليس من شأننا أن نتساءل عما قصد إليه صاحب فندق هولندى، حين رسم على ناصية فندقه مقبرة كتب فوقها عبادة... «إلى السلام الدائم»... تُرى هل أراد ذلك الشعار الساخر أن يوجه اللوم إلى البشر عامة، أم خص به رؤساء الدول المتعطشون إلى الحروب، أم قصره على الفلاسفة الذين يراورهم هذا الحلم اللذيذ»[2]..

سؤال يقرع به كانط القلوب قبل أن يتحدث عن مواد الدستور العالمى... الميثاق الذى وضعه لحفظ الحياة... للدفاع عن الوجود الإنسانى، ليهيئ الأذهان إلى أن فرضية السلام العالمى متحتمة الوجود... ضرورة إنسانية وجودية ملحة... سهل تحقيقها غير مستحيل... فقط إذا إلتزمنا بهذه المواد العالمية.

(1) نقلًا عن ديورانت، قصة الفلسفة، ص362.
(2) كانط، السلام الدائم، ص35.

المـادة الأولى... «إن معاهـدة من معاهدات السـلام لا تعـد معاهدة إذا إنطوت نية عاقديها على أمرٍ من شأنه إثارة الحرب فى المستقبل»[1].

بمـا يعنى أن مجـرد توافر نية الحرب تدمر فكرة السـلام... «و إذا إنطوت السريـرة عـلى الرغبة فى إنتهاز الفرصة المناسـبة فى المسـتقبل للتقدم بمزاعم قديمة، دون أن يحرص أحد الطرفين على النص عليها - لأن كليهما قد استنفذ قـواه بحيث أضحـى لا يقوى على القتال - فذلك مسـلك هـو أدخل فى باب اليسـوعيين، و ينبغى أن تترفع عنه كرامة الملوك كما تترّفع عنه آرائهم، على هذا النحو يكـون النظر لدى من يريد أن يرى الأمر على ما هو عليه»[2]... فالذى يريد السـلام يعتقده... يتنفسـه... يريده بقوة دون أن تنازعه نفسه أهواء بشرية أخرى.

أمـا المادة الثانيـة عند كانط فتنص عـلى: «إن أى دولة مسـتقلة (صغيرة كانـت أو كبيرة) لا يجوز أن تملكها دولة أخـرى بطريق الميراث أو التبادل أو الثراء أو الهبة»[3].

لأن تملك دولة لأخرى بأى صورة من الصور هو أحد أشكال الإستعمار، وهذا يقوض عملية السـلام، لأن الدولة المملوكة لـن تصفو نيتها أبدًا للدولة الجاثمـة على صدرها، فكيف تقر السـلام، لذا نجد رفـض كانط لكل ما من شـأنه أن يكون حجر عثرة فى وجه السـلام، كما وجدناه سـاخرًا من قضية الجنـود المرتزقة قائلاً... «ومن هذا القبيل أيضًا ما تعمد إليه بعض الدول من

(1) نفسه، ص37.
(2) نفسه، ص38.
(3) نفسه، ص38.

تأجير فرق من جيشها لدولة أخرى - لا لمقاتلة عدو مشترك - يندرج تحت هذا المبدأ، فإن من يفعل هذا يستعمل الأشخاص وكأنهم أشياء يسخرها و يستهلكها على هواه»[1]..

ثم يدق كانط الضمير الإنسانى بقوة، فيضعه وجهًا لوجه أمام الذات فى المادة الثالثة قائلاً: «يجب أن تُلغى الجيوش الدائمة إلغاءًا تامًا على مرَّ الزمان»[2]..

و يعقب على تلك المادة بالقول: «لأن هذه الجيوش التى تبدو على الدوام متأهبة للقتال تهدد الدول الأخرى بالحرب تهديدًا دائمًا، كما تُحفزها إلى التسابق فى زيادة قواتها المسلحة زيادة لا تقف عند حدَّ، ولمَّا كانت النفقات التى تخصص لذلك من شأنها آخر الأمر أن تجعل السلام أشد وطأة من الحرب القصيرة، فإن الجيوش نفسها تصبح سببًا لحروب عدوانية القصد منها التخفف من تلك الأعباء، أضف إلى هذا أن استئجار الناس لكى يقاتلوا أو يُقتلوا معناه فيما يبدو أننا نستعملهم إستعمال الآلات أو الأدوات فى يد غيرهم (الدولة) وهو أمر لا يتفق مع حقوق الإنسانية فى أشخاصنا»[3]..

ثم تأتى المادة الرابعة لتوصد الباب أمام النزاعات تمامًا حيث لا يُسمح للدولة بالإقتراض لأجل الحرب... بل الأولى تحقيق رفاهية الشعب لا تدميره، ليكون نص المادة... «يجب ألا تعقد الدول قروضًا (ديونًا) من أجل منازعاتها الخارجية» و يعقب عليها شرحًا بالقول «إذا لجأت الدول تحقيقًا لمصلحة

(1) كانط، السلام الدائم، ص39.
(2) نفسه، ص39.
(3) نفسه، ص39.

الإقتصاد الوطنى إلى طلب معونة من الخارج أو من الداخل (لتحسين الطرق أو إنشاء المستعمرات الجديدة أو تخزين المحاصيل إستعدادًا للسنين العجاف) كانت وسيلتها هذه لتدبير المال وسيلة لا شبهة فيها ولا غبار عليها»[1].

أما المادة الخامسة فتأتى لوضع حد على الممارسات التسلطية العنفوانية للإمبرياليات السياسية التى تمارس البلطجة وتفرض الإتاوات على الشعوب الأضعف ليكون نص المادة .. «لا يجوز لأى دولة أن تتدخل بالقوة فى نظام دولة أخرى أو فى طريقة الحكم فيها»[2]... أما ما تمارسه القوى العظمى من بسط نفوذ وفرض إرادة على بعض الشعوب باسم القيم هو إنتهاك لذات القيم... أو باسم الدين وهو إنتهاك لصحيح الدين... أى دين... ومن ثمَّ تتقلَّص الفرص أمام السلام...

وتأتى المادة السادسة بما يمكن إدراجها تحت بند «أخلاقيات الحروب» فيقول: «لا يحق لأى دولة فى إبان الحرب أن تستبيح لنفسها إقتراف أعمال عدائية كالإغتيال والتسميم والتحريض على الخيانة - من شأنها عند عودة السلم أن تجعل الثقة بين الدولتين أمرًا مستحيلاً»... لأن هذه شناعات وأعمال منكرة، فلابد من الإبقاء على شىء من الثقة فى خُلقُ العدو، حتى إبان الحرب، و إلا إستحال الإتفاق على أى سلام و إنقلب القتال فأضحى حرب إبادة و إفناء[3]، و يترتب على هذا أن حرب الإبادة التى تُفضى إلى هلاك الطرفين كليهما، و إلى إهدار كل حق و شرع، لا تدع للسلام الدائم مكانًا و إستقرارًا

(1) نفسه، ص40.
(2) نفسه، ص41.
(3) كانط، السلام الدائم، ص42.

إلا فى رحـاب قبر كبير يضم الجنس البشرى... و إذن فمثل هذه الحرب ينبغى تحريمها على الإطلاق، كما ينبغى تحريم إستخدام الوسائل المؤدية إليها[1].

ثم يأتى القسـم الثانى مـن الكتاب ليضع فيه كانط مـوادًا نهائية لتحقيق السـلام الدائم بين جميع الشـعوب، يقـول فى مطلعها: «إن حالة السـلام بين أناس يعيشـون جنبًا إلى جنب ليست حالة طبيعية إذ أن الحالة الطبيعية أدنى أن تكون حالة حرب، وهى و إن لم تكن دائمًا حربًا معلنة، إلا أنها على الأقل منطوية على تهديد دائم بالعدوان، و إذن فينبغى إقرار حالة السلام، ذلك أن الكف عن الحرب ليس بضمان للسلام، و إذا لم يحصل جار من جاره على هذا الضمان فمن الجائز أن يُعامل ذلك الجار معاملة من بينه و بينه عداوة»[2].

وتنص المادة النهائية الأولى على أنه... «يجب أن يكون دستور المدينة فى كل دولة دسـتورًا جمهوريًا»[3] لماذا جمهوريًا... هنا يجيب كانط تفصيلًا... لأنه الدسـتور الوحيد المسـتمد من فكرة العقد الأصـلى الذى يجب أن يقوم عليها كل تشريع قانونى لشـعبٍ من الشعوب هو الدستور الجمهورى وذلك لأنه قائم على:

- مبدأ الحرية لأعضاء جماعة ما.
- مبادئ «تبعية» الجميع لتشريع واحد مشترك.
- المساواة بين هؤلاء المخاطبين بإعتبارهم مواطنين، و إذًا فهذا الدستور فى ذاته من حيث القانون هو الأصل الذى تُبنى عليه جميع أنواع الدساتير.

(1) نفسه، ص42.
(2) نفسه، ص47.
(3) نفسه، ص49.

ويعقب كانط: «إذا كان القرار بأن تقع الحرب أو ألا تقع لا يمكن إتخاذه إلا برضاء المواطنين - وهو أمر لا مناص منه فى دستور جمهورى - فمن الطبيعى جدًا أنه ما دام المطلوب منهم أن يحكموا على أنفسهم بمعاناة شرور الحرب وكوارثها، فهم مضطرون إلى أن يترددوا فى الأمر إلى أن يطيلوا التفكير فيه، قبل أن يُقدموا على لعبة خطيرة كهذه، إذ يلزمهم أن يخوضوا هم أنفسهم غمار الحرب وأن يشاركوا بأموالهم فى نفقاتها، وأن يتكلفوا العناء فى تعمير ما خلفته وراءها من خرابٍ ودمار، وعليهم بعد هذا كله أن يعقدوا قرضًا وطنيًا يجعل السلام نفسه عبئًا ثقيلاً، ولن يتيسر الوفاء به أبدًا، لأن الحروب متجددة دائمًا فى حين أن الدستور الذى لا يكون الفرد فيه مواطنًا، وبالتالى الدستور غير الجمهورى إنما تقرر الحرب فيه بأقل قسط من التدبر والتفكير، لأن ولى الأمر ليس بعضو فى الدولة بل هو مالكها[1] ولأنه لا يخشى إن وقعت الحرب أن تؤثر فى مائدته أو فى قنصه أو فى دور لهوه أو فى الأسباب، كما لو كان يقرر رحلة للهو ولا يبالى أن يترك مهمة تبريدها للدبلوماسيين من رجاله، وهم دائمًا على أتم استعداد لذلك»[2]..

ومقصد كانط من ذلك يمكن تلخيصه فى جملةٍ واحدة «الجمهورية أبعد الأنظمة عن الإستبداد»... هذه المعركة الدستورية فلسفيًا لأجل القضاء على الإستبداد... لأنه عدو للإنسانية... عدو للوجود... عدو للحياة وليست عداوته تقتصر فقط على السلام.

أما فى المادة النهائية الثانية فيقول كانط: «ينبغى أن يقوم قانون الشعوب

(1) لاحظ أن هذه صفات بعض بلداننا العربية التى تنتحل ظلماً اسم الجمهورية.
(2) كانط، السلام الدائم، ص50.

على أساس نظام اتحاد بين دول حرة»... ويعقب «إن الشعوب بإعتبارها دولاً تشبه الأفراد فى حال الفطرة (أى الخلو من كل قانون خارجى) يعتدى بعضها على بعض بحكم الجوار، ولابد لكل شعب لضمان أمنه وسلامته أن يطلب إلى الآخر أن يشاركه فى نظام شبيه بالدستور المدنى الذى يرى فيه كل واحد ضمانًا لحقوقه، هذا النظام بمثابة «جامعة أمم» لكنه لن يكون دولة واحدة، لأنه لو تم ذلك لإنطوت الفكرة على تناقض، إذ أن كل دولة تفترض وجود علاقة بين حاكم (أى المشرّع) ومحكوم (أى الشعب) فلو أن شعوبًا عديدة إنضوت تحت لواء دولة واحدة لأصبحت شعبًا واحدًا، وهذا مخالف للإفتراض، إذ أنه يلزمنا هنا ألا تغفل حقوق «الشعوب» فى علاقاتها بعضها مع بعض، من حيث إنها تضم عددًا من الدول المختلفة ولا تندمج فى دولة واحدة بعينها»[1].

ويوجه النقد إلى سياسة الحروب عند المستبدين... «وولى الأمر أو الحاكم يرى مجده وفخره فى المقدرة على التصرف فى حياة آلاف من الناس، يسوقهم إلى التضحية بأنفسهم، دون أن يخشى هو على نفسه خطرًا، ذودًا عن قضية لا شأن لهم بها، وكل ما بين متوحشى أمريكا ومتوحشي أوروبا من فرق هو أن أولئك قد إلتهموا من قبل قطعانًا كثيرة من أعدائهم، بينما هؤلاء يعرفون كيف يستغلون أعدائهم المغلوبين على أمرهم ويؤثرون أن يفيدوا منهم للإستكثار من تابعيهم، ومضاعفة الأدوات اللازمة لفتوحات أوسع نطاقًا وأبعد مدى»[2].

(1) نفسه، ص57.

(2) نفسه، ص58.

ويستنكر كانط مقولات عدة صبت فى أن الحرب وسيلة للسلام... أو مقدمة له... أو سبيلاً إليه... فكلها مقولات خاطئة من عدة نواحى، فأولاً أن الحرب لا تحسم مسألة الحق، بل هى وسيلة إلى الظلم وتوسيع رقعة البغى والقتل ووأد الحياة، وثانيًا أن الحرب ضد كل منطق، وكل عقل، وكل فطرة... «لكن العقل فى علياء عرشه، والذى هو المصدر الأعلى لكل تشريع أخلاقى يستنكر إطلاقًا أن تُتخذ الحرب سبيلاً إلى الحق، ويجعل من حالة السلام واجبًا مباشرًا، ولمّا كان من العسير قيام هذه الحالة أو ضمانها بدون ميثاق بين الشعوب، فقد تعيَّن عقد اتحاد ذى طابع خاص يمكن أن نسميه «حلف السلام» وهو يختلف عن «معاهدة السلام» لأن من شأنه أن يقضى إلى الأبد على الحروب جميعًا، فى حين أن معاهدة السلام إنما هى إنهاء لحرب واحدة، ولن تكون غاية هذا الاتحاد كسب قوة لصالح دولة ما، بل غايته الحفاظ والضمان لحريتها وحرية غيرها من الدول المتعاقدة، دون أن تكون هناك حاجة إلى الإذعان لقوانين عامة ولا لإكراه متبادل (كشأن الناس فى حالة الفطرة)، ويمكن التدليل على إمكان تحقيق هذه الفكرة، فكرة «النظام الاتحادى» الذى ينبغى أن يمتد شيئًا فشيئًا إلى الدول جميعًا، فيؤدى بها إلى السلام الدائم الذى هو تحقيق تلك الفكرة، أى خروجها إلى حيز الفعل، لأنه إذا شاء الحظ لشعبٍ قوى مستنير أن ينتظم فى حكومة جمهورية (وهى الحكومة التى تنزع بطبيعتها إلى السلام الدائم) فسوف تكون هذه الجمهورية مركزًا للنظام الاتحادى، إذ تستطيع الدول الأخرى أن تنضم إليه، ضمانًا لحريتها، وفقًا لفكرة القانون الدولى، وسوف يتسع نطاق هذا الاتحاد دومًا يومًا بعد يوم بفضل إقبال الدول على الإنضمام إليه»[1].

(1) نفسه، ص61.

هـذا النظام الفيـدرالى العالمى هـو الضامن الوحيد لإقرار عملية سـلام عالمى لأنه بمثابة العقد أو التشريع بين الدول المتعاقدة فيه «لو أن شـعبًا قال «ينبغـى ألا تقع بيننـا حرب، لأننا نريد أن نجعل أنفسـنا دولـة، أى تنصب علينا سـلطة عليا تشريعية وتنفيذية وقضائية تتوخى السـلام فى تسـوية ما بيننـا من منازعات» لكان هـذا قولاً مفهومًا، ولكن لو أن ذلك الشـعب قال «ينبغـى ألا تكون حرب بينى وبين الدول الأخرى وإن كنت لا أعترف بأن سـلطة تشريعية عليا تكفـل لى حقى كما أكفل لها حقها، فـلا يُفهم حينئذ على أى أسـاس أري أن أقيم الإطمئنان إلى حقى، إن لم يكن ذلك على أسـاس هذا النظام الاتحادى الحر، وهـو ملحق للميثاق الإجتماعى المدنى الذى لابد للعقـل من أن يُضيفه إلى فكرة القانون الـدولى إذا أردنا أن يكون لهذا الفظ معنى»[1].

إن قيام عصبة الأمم وإنتقالها من المعنى الفلسفى إلى المعنى الواقعى محط آمـال كانـط، في الوصول إلى صيغـة عالمية يلتزم بها الجميـع... «أما فى نظر العقـل فالـدول من حيث صلاتها المتبادلة لا سـبيل لها لـكى تخرج من حالة الحرب التى يحبسـها فيها إنعدام القوانـين إلا أن تتخلى كالأفراد عن حريتها الجامحة، الهوجاء، وأن تُذعن لإلـزام القوانين العامة، فتؤلف بذلك «جامعة أمـم»... على الدوام حتى تشـمل آخر الأمـر شـعوب الأرض جميعًا، ولكن تصور الناس لحق الشـعوب يحول دون سـلوك هذا السبيل، ولذلك ينكرون «بالفرض» ما هو صحيح «بالوضع» فإن لم تكن الفكرة الوضعية لجمهورية جامعة ميسـورة فليـس يبقى - إذا أردنـا ألا نُضيّع كل شيء - سـوى الملحق

(1) كانط، السلام الدائم، ص61.

السلبى لتخلف دائم تتسع رقعته على الدوام، إنه يستطيع أن يصرف الناس عن سبيل الحرب، وأن يكبح جماح تلك الأهواء التى تنافى الإنسانية ولكن سيكون دائمًا مبعث مخاوفنا أن تتفهم عرى ذلك الحلف»[1].

أما المادة النهائية الثالثة فيضع فيها كانط مبدءًا إنسانيًا راقيًا، يخاطب فيه النفوس الراقية بإكرام الأجنبى كما سبق وأوصى القرآن بإكرام ابن السبيل، حيث تنص المادة على... «حق النزيل الأجنبى، من حيث التشريع العلمى مقصور على إكرام مثواه»... ويعقب عليها كانط بما لا يحتاج إلى توضيح... «لسنا هنا كما فى المواد السابقة بسبيل الحديث عن محبة الناس، بل إن «الحق» و«الإكرام» هنا معناه حق كل أجنبى فى ألا يُعامل معاملة العدو من البلد الذى يحل فيه، ما دام مسالمًا، ويجوز للبلد أن يرفض إيواءه إذا لم يكن فى ذلك ما يضر بمصلحته، وليس للأجنبى أن يدّعى لنفسه حق الإكرام بإعتباره ضيفًا، لأن ذلك يقتضى إتفاقات خاصة تبيح له الضيافة، بل حقه مقصور على (حق الزيارة) وهو حق كل إنسان فى أن يجعل نفسه عضوًا فى المجتمع بمقتضى مشاركته فى ملكية الأرض التى نعيش عليها، ولمّا كان سطح الأرض دائريًا فقد إستحال على الناس أن ينتشروا فى الأرض إنتشارًا لا حدَّ له، وكان لابد من أن يلتقوا وأن يتحملوا مجاورة بعضهم لبعض، إذ الأصل أن الأرض مشاع بينهم وليس لأحدٍ منهم أكثر من نصيب غيره، والمناطق غير المعمورة من الأرض كالبحر والصحراء، وقد قسمت تلك الملكية المشتركة، ولكن السفن و«الجمال» (سفن الصحراء)، تتيح لبنى آدم أن يجوسوا خلال تلك المناطق التى لا مالك لها، وتيسر لهم أن يتقاربوا، وأن ينتفعوا فى التجارة

(1) كانط، السلام الدائم، ص62.

بالحـق الذى للجنـس البشرى عامة، وهو إسـتغلال سـطح الأرض، و إذًا فما يعمد إليه سكان الشواطئ البحرية من السطو على السفن التجارية فى البحار المجاورة أو إسـترقاق البحارة الناجين من الغرق، وما يصنعه سكان الصحراء من إستباحة النهب بإزاء كل من يقترب من قبائلهم، هذه كلها أمور تتنافى مع الحـق الطبيعى، لكن حق الإكرام، أى حق النـزول بأرض أجنبية لا يتجاوز الـشروط التى تيسر محاولة عقد صلات تجاريـة مع الأهالى، وعلى هذا النحو يمكـن أن ترتبط القارات النائية بصلات ودية تنتهـى بأن تنظم تنظيمًا قانونيًا عامًا، وبهذا يزداد إقتراب الجنس البشرى مع التشريع العالمى الجامع»[1]..

وبنـاءًا عـلى تلـك الإرادة الملائكيـة يوجه كانـط مُر النقـد إلى الغزوات الأوروبية والإعتداءات المتكررة على الشـعوب الأخرى التى تقوم على أساس عنصرى أوروبى فيقول... «ولو نظرنا الآن إلى المسلك غير الكريم الذى تسلكه دول أوروبـا، خاصة الدول التجارية، لاسـتولى علينا الفزع من هول المظالم التـى ترتكبها تلك الـدول فى «زيارتها» للبلاد وللشـعوب الأجنبية - والزيارة عندها مرادفة للغزو والفتح - فالذين إكتشفوا البلاد الأمريكية وبلاد الزنوج وجـزر التوابل والكاب ومـا إليها قد إعتبروها بـلادًا لا أصحاب لها، لأنهم لم يقيمـوا لأهلها وزنًا، ولمّا دخل الأوروبيون جزر الهند الشرقية إسـتقدموا إليها قوات أجنبية بدعوى إنشـاء مكاتب تجاريـة فضيقوا الخناق بهذه القوات على المواطنـين، وأضرموا نيران الحرب بين الدول المختلفة فى تلك البقعة الشاسـعة مـن العالم، ونشروا فيها الجوع والتمرد والخيانة وما إلى ذلك من شر وبلاء»[2].

(1) نفسه، ص66.

(2) نفسه، ص66.

هذا النص وحده يجعل من كانط ملائكيًا بحق، فقد شهد ضد بنى جنسه، شـهادة حق، وقال كلمة العدل، لم يبرر توسعاتهم الإستعمارية كما فعل من قبل أفلاطون وآرسـطو وغيرهم مـن عنصريى عصر النهضة وما سـبقه وما لحقه من عصور وفلسـفات عـلى مر الزمان، لأجل ذلك إسـتحق كانط ذاك الخلـود، وتلـك المكانة، لكن يبقى التسـاؤل أيضًـا، إذا كان كانط قد رفض الغزو الذى قادته بلاده ضد الشعوب الضعيفة فى وقتٍ لم تكن التكنولوجيا الحديثة قد عرفت الطريق إليهم بخيل ماديتها ورجلها، وبحاملات طائراتها وصواريخهـا، وبالنـووى والكيماوى والـذرى، وما لم يتوصـل إليه علم أو عقـل حتى اليـوم، ما الذى يمكن لكانط أن يفعله أو يقولـه لو كان إبنًا لهذا العصر؟! ماذا سـيكون موقفه من روسـيا وحربها فى سوريا واستقوائها على شـعب عربى أعزل ومسالم؟ وماذا سيكون موقفه من أمريكا فى حربها ضد شـعبنا العربى العراقى؟ ماذا عن الجرائم التى إرتكبها بنو جنسـه وبنو قومه فى شـعوبنا العربية التى خرجت أنوارها حضارةً وعلمًا لتشرق على بلاده قبل التاريخ وبعده وفى عمقه، ونشرت السـلام على ربوع البرية منذ دعوة النبى الكريم ﷺ للإسلام ووضعه حدًا جامعًا مانعًا لعقيدة المسلمين وسلوكياتهم بقوله «**المسلم من سلم الناس من لسانه ويده**»[1]..

مـا الذى يمكـن لكانـط أن يقولـه لبـوش الابـن أو لأوبامـا أو لدونالد ترامـب أو لفلاديمـير بوتـين أو لشـارون أو بشـار و الحوثيـين أو للكتائب المتنازعـة والمتناحـرة فى ليبيـا، أو للجماعات الجهادية فى سـيناء أو لغير كل أولئك من الظلمة والقتلة وأعداء الإنسـانية!!... لا شـك أن موقفه سيكون

(1) رواه البخارى 2191 ومسلم 297.

إنسـانيًا محضًا... ملائكيًا محضًا... فؤاديًا محضًا... سـيكون الإنتصار للمبدأ لا للجنس، للقيمة لا للوطن... للإنسـان بإنسـانيته لا للشـخص بعنصريته، سـيكون إنتصـار كانط للحـق والعدل والمبدأ والقيم الإنسـانية، سـيكون إنتصـاره لقيم الروح والقلب التى تنبعث رحمة عـلى قلوب العالمين، وتذرف لها دموع المخلصين، وتنساب لها عبرات الإنسانيين... نعم... لو كان كانط حيًـا اليـوم لركل بـوش وبوتين وأوبامـا وترامـب بقدميـه... لصفعهم على وجوههم... لقذف فى وجوههم صواعق أقوى أثرًا من صواريخهم ودباباتهم وأسـلحتهم... لجابـه الظلم مهما بلغت قوته، ولصـدع بالحق وللحق دون أن يخشى فى الإنسانية لومة لائم، لأجل ذلك كان كانط ملائكيًا وكانت دعواته كلها إنسـانية... من صميم الفطرة الإنسانوية. يبقى التساؤل الآن، هل هذه الدعوة الكانطية يوتوبية؟ هل يعجز بنو البشر عن تطبيقها، يجيب كانط... «إذا كان هنالـك واجـب يُضاف إليه أمل معقول فى تحقيق سـلطان القانون العام، ولكن بالسير فى تقدم مطرد إلى ما لا نهاية، فإن «السلام الدائم» الذى ينبغـى أن يخلف ما قد أسـموه خطئًا بمعاهدات السـلام (والأولى أن تسـمى مهادنات) ليس بالفكرة الجوفاء، بل هو مشـكلة إذا عولج حلها شـيئًا فشيئًا، زاد إقترابها من غرضها (إذ يجمُل بنا أن نأمل فى أن يتم تحقيق مثل هذا التقدم فى حقبة من الزمان أقصر فأقصر)»[1]..

ويتسـع أمل كانط فى تطبيق السـلام الفعلى... الواقعى على الأرض... كله أمـل فى قناعة البشر بأن الحـرب شر لا خير فيه... «الحرب شر لأنها تزيد عدد

(1) كانط، السلام الدائم، ص116.

الأشرار أكثر مما تستأصل منهم»[1]... شر لأنها لا تورث إلا الخراب والدمار والبوار... ومن ثمّ يراهن كانط على الطبيعة ذات الفطرة النقية والأصل النبيل... وعلى الفلاسفة وحكمتهم وعقلهم ونباهة قلوبهم ويقظة ضمائرهم.

فالطبيعة تضمن إقرار السلام حيث إختلاف الأجناس واللغات، واللذان هما مبعث المنافسة بين الدول، يقول كانط: «فالواقع أنها كلما إتسعت رقعة الدولة ضعُفت قوة القوانين، وإن حكمًا إستبداديًا لا روح له ينتهى دائمًا بعد أن يجتث جذور الخير بأن يتردى فى وهدة الفوضى، لكن ما من دولة أو حاكم إلا ويرغب فى الإطمئنان إلى سلام دائم بالسيطرة على العالم كله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لكن الطبيعة تريد أن يكون الأمر على خلاف ذلك، وإن لها مع الشعوب سبيلين للحيلولة دون إندماجها وللإبقاء على إنفصالها، وهما إختلاف اللغات وإختلاف الأديان... صحيح أن هذا الإختلاف منبت لبذور الأحقاد ومصدر لذرائع الحرب، ولكنه يؤدى مع إزدهار المدينة وزيادة تقارب الناس فى المبادئ إلى الوفاق فى ظل السلام، غير أن هذا السلام مخالف لسلام عهود الإستبداد (ذلك السلام القائم على قبر الحرية)، فليس هو نتيجة لتوهين جميع القوى، بل هو ثمرة لتوازنها وبعث المنافسة بينها»[2]... «فالطبيعة بفضل سير الميول الإنسانية نفسها تضمن السلام الدائم، ولئن لم يكن ذلك الضمان كافيًا للتنبؤ نظريًا بوقوعه فى المستقبل فهو كاف مع ذلك من الناحية العملية، وهو يوجب علينا أن ننشد الغرض»[3]، ولعل هذه الدعوة تكون بمثابة إنبعاث لروح روسو من جديد، فى مبدئه الخالد «العودة إلى الطبيعة».

(1) نفسه، ص73.
(2) كانط، السلام الدائم، ص77.
(3) نفسه، ص78.

ثم تبلغ ثقة كانط فى الفلسفة فيراهن على دور الفلاسفة بأن يضع مادة ضامنة لتحقيق السلام أسماها بالمادة السرية مؤداها... «يجب أن توضع أحكام الفلسفة، فيما يتعلق بشروط السلام الدائم موضع الإعتبار لدى الدول المجهزة للحرب»[1]... وهى دعوة كل فيلسوف... وكل عصر... وكل عقل... نعم، قد يكون أفلاطون أول مبتدئ فى حكم الفيلسوف، ولكن الفكرة لم تمت أبدًا، فكثيرًا ما بُعثت من رقدتها... وكثيرًا ما عوّل العقلاء عليها فى تحقيق مستقبل أكثر أمنًا ورفاهية وسلامًا لأبناء الجنس البشرى... فما أعظمها من فكرة... لا لأجل الوصول إلى حكم العقلاء... ولكن على أقل تقدير لأجل الإستماع إلى أصواتهم، لأجل تحرير العقل من القيود والجمود والإنطلاق به نحو آفاق الإبداع... هذا كله وقف «على التوجه... وقف» على دور المفكرين فى كل أمة... وفى كل عصر... لقد أفلح كانط فى إبتعاث تلك الدعوات المباركات من جديد، وأفلح كل من سار فى ركابه... وفضّل الإنضمام إلى الإنسان ولو بشطر كلمة... ولكن كلمة لابد من إضافتها الآن... إن نظرية السلام الكانطية من ألفها إلى يائها تقوم على أسس ومبادئ المواطنة التى كفلها الإسلام وغذاها العقل وآمنت بها النفس الإنسانية... حيث رفض الحرب ورفض الإستعمار بكافة أشكاله وصوره، ووقوفه ضد كافة المبادئ المنتهكة لحرية الإنسان وحياته... كل هذا خرج من جوف مبادئ المواطنة فى وجهيها السماوى والأرض... الطبيعى والوضعى... لتتفق الغاياتان وليتحد المصيران... السلام والمواطنة»[2]...

(1) نفسه، ص83.

(2) انظر كتابنا، المواطنة فى الإسلام، المعضلات والإشكالات فى واقعنا المعاصر، روابط للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 2016م

الفصل العاشر

حنا أرندت...

يتصارع الشرق والغرب اليوم صراعًا لا هوادة فيه ولا رحمة... هيمنة من الغرب، وخنوع من الشرق تصحبه نارًا تحت الرماد لدى النخبة المثقفة المؤمنة بالقضايا الإنسانية والتى حتمًا ستنتصر تاريخيًا إن عاجلاً و إن آجلاً... لكن القاسم المشترك فى هذا الصراع هو إسرائيل، فهى خيط مشترك وطرف فاعل أو سببى أو حتى جانبى فى كافة هذه الصراعات... هى الوقود الذى يُضرم النيران بقصدٍ وحقدٍ لا مثيل له دون أن يهتز لها ضمير فى مصير تلك النيران وضحاياها، وهل هم صغار أم كبار أم شيوخ أم حتى مرضى وعجزة ومقعدين أم حتى أجنة فى أرحام أمهاتهم... كل هذه جرائم حقيقية إرتكبتها إسرائيل فى حق الإنسانية دون أن يهتز لها ضمير، دون أن ينشغل لديها أدنى حيز من مشاعرها أو قلبها أو إحساسها.... فقتلوا الأطفال وهم أجنة... وقتلوهم وهم رُضع، وما إيمان حجو وأخواتها منا ببعيد... وقتلوهم وهم صبية يلعبون... حاصروا برائتهم بالأسلحة الثقيلة... اختبأ الطفل خلف أباه... رفع الأب يديه ملوحًا للجندى الإسرائيلى بأنه لا سلاح له، بأنه لا خوف منه... بأنه مستسلم تمامًا لإرادته... ولكن الجندى لم يعبأ بمثل هذه

البراءة... لم تؤثر فيه صرخات الطفل... لم تجدى لديه توسلات الأب... يخفى الأب ابنه خلف ظهره... يتمنى أن يموت ألف مرة و يفتدى بموته إبنه... مئات المشاعر والأفكار تتزاحم فى عقل الأب والإبن على السواء... ولكن قطعها صوت رصاصات غادرة... قاتلة للإنسانية فى برائتها... لتردى الطفل شهيدًا... وتصيب الأب إصابات خطيرة يموت على إثرها... ذالكم كان مشهد الطفل محمد الدرة... رآه العالم كله وسمعه... رأى توسلات أبيه ودمعه... رأى صرخات الطفل البرئية... تلك التى مزقت الأذان دون أن تمر على القلوب... وما أشبه تلك المواقف التى صمت لها الضمير العالمى دون أن يهتز... بل والتى غض الطرف عنها الضمير العربى فلم يحرك ساكنًا... بضعة بيانات، وبضعة كلمات باهتات خرجت حفظًا لماء الوجه لا أكثر... لم أنس ولن أستطيع النسيان أبدًا تلك المشاهد... وفى المقابل لن ينسينى الدهر أبدًا تخاذل القادة العرب... بل تخاذل قادة العالم والضمير العالمى... بل إنهيار الإنسانية فى نفوس البشرية... ضياع قيم و إندثار مبادئ طُبعت داخل العقل مسلمات و يقينيات و بديهيات... غض الكل الطرف عنها، وبات الحديث عن المبادئ الإنسانية مضيعة للوقت.

غدت القيم لا قيم... والمسلمات موضعًا للشك... والحق ما يرتأيه الأقوى لا ما يرتأيه القانون العادل... والحرية ما يراها الحكام... والمساواة ضرب من العبث الفلسفى الذى تضل معه العقول... ليحل الإستبداد ضيفًا ثقيلاً على النفوس البشرية ذات الرقى والسمو... ولتحل الحرب بديلاً للسلام، لتصبح الإنسانية كلها فى مأزق... ولتصبح القيم الإنسانوية كذرات تراب فى يوم عاصف...

فى وسط هذه الظلمات كافة يخرج صوت من أنفسهم... شاهدًا عليهم... شاهدًا على قتلهم للإنسانية... وقتلهم للأطفال... و إستبدادهم بالأضعف ووأدهم لحريات الإنسانية والإلقاء بهم على خط النار... لتنادى بالحرية والمساواة، ولتقف ضد الإستبداد وضد الحرب.

تلكم كانت الفيلسوفة اليهودية حنا أرندت، التى ولدت فى أمريكا عام 1906م، لوالدين يهوديين، امتازت حياتها بكثرة الترحال... وتعددت ثقافتها نظرًا لتعدد روافدها، وقد عُرفت بإعتبارها فيلسوفة سياسية، حيث إبتكرت من محاور فكرها المتعددة أدوات لخدمة القضايا السياسية، لذا جاءت فلسفتها كرد فعلٍ طبيعى يتسم بالنزعة الإنسانية إزاء الأحداث العالمية التى فرضت نفسها على واقع بئيس... تشتعل ناره وتُضرم فى كل مكان.

لذا جاءت مؤلفاتها مستمدة من لهيب هذا الواقع وموقدة من نيرانه... مثل أسس التوتاليتارية، الثورة، الوضع الإنسانى، عن العنف، وغيرها من المؤلفات التى تجسد صراعًا بين القيم الإنسانية والخروقات الشيطانية مثل الحرب والسلام... الأنانية والإيثار... العدل والظلم... العنصرية والمساواة... العبودية والحرية... هذه مفارقات تمثل جُل إهتمام آلاف الأطنان من المؤلفات السياسية على مدار التاريخ وعمق وعيه.

ولعل أول ما كُتب بالعربية عن أرندت هو كتاب «اليوتوبيا اليهودية... قراءة فى فلسفة حنا أرندت السياسية» للدكتور شعبان عبد الله، فلم أعثر فى العربية على دراسات غيره، وهذا دليل على فقر المكتبات العربية وتعطشها للكتابة عن هذه الفيلسوفة.

لقد عاشت أرندت مناضلة لما إطمأنت إليه نفسها أنه الحق والعدل

والصواب والخير والجمال... ولما تشبَّع به قلبها منذ نعومة أظفارها، رافعة النازية الهتلرية وكل دواعى العنف والشر، وناقمة على سياسة الإستيطان الإسرائيلى فى أرضنا العربية حتى وافتها المنية فى صيف 1975م.

ويمكننا القول بأن مؤثرات عدة قد تركت عظيم الآثر على فكر أرندت، لعل أهمها ما أثارته الحربان العالميتان الأولى والثانية من قلاقل وقتل للإنسانية، وما ترتب عليهما من آثار سلبية ضد الإنسانية، وكذا الحركات الإستعمارية من الدول الأقوى وما تركته من آثار تتمثل فى الجهل والفقر والمرض فى الدول الأضعف، وأيضًا النازية وجرائمها ضد الإنسانية، كل هذه المؤثرات تركت عميق الأثر على فكر حنا أرندت»[1]..

❐❐❐

تبدأ أرندت ثورتها الإنسانية ذات المبادئ والتركيب والجوهر الإنسانوى بالترسيخ لحرية الإنسان أولاً وقبل كل شىء، حريته الفطرية، وحريته من الصنمية المادية وحريته السياسية، إذ أن: «حرية الإنسان حق فطرى، يولد مزودًا بها، ومن ثمَّ فلا يجوز أبدًا لشىء دخيل علينا أن ينزع ما هو أصيل بداخلنا، وتاليًا لا يحق لأى أحد سلب حريتنا لأنها غرست بداخلنا منذ لحظات الميلاد الأولى»[2].

وهو ذات المعنى الذى يؤكده جيفرسون، حيث فطرية الحرية... «إننا

(1) د.شعبان عبد الله، اليوتوبيا اليهودية، قراءة فى فلسفة حنا أرندت السياسية، المكتبة المصرية للطباعة والنشر، الأسكندرية، سنة 2003م، ص403.

(2) حنا أرندت، بين الماضى والمستقبل، ترجمة عبد الرحمن بشناق، مراجعة زكريا إبراهيم، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 1960، ص20.

نرى هذه الحقائق واضحة بذاتها لا تحتاج إلى دليل... إن الناس جميعًا خلقوا سواسية، وأن خالقهم منحهم حقوقًا لا يمكن أن تُنتزع منهم، ومن بين هذه الحقوق حق الحياة والحرية والبحث عن السعادة»[1]... وكذا يتفق مع إعلان حقوق الإنسان الذى ينص على أنه: «يولد جميع الناس أحرارًا ومتساوين فى الكرامة والحقوق، فهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم البعض بروح الإخاء»[2].

ولكن هذا المفهوم قد تعدى الإطار التقليدى لدى أرندت حيث صورت المادة والآلة بأنهما مصدر العنف والقلق فى هذا العالم، كما أنهما مصدرا العبودية لدى الإنسان إذ جعلت منه آلة وعبدًا للصنمية الآلية... «إن العالم المعاصر، عالم التصنيع القائم على الآلة تجاهل الفعل المترتب على الإنسان وذلك ما أدى إلى نشوء العنف»[3].

كما تجاوزت بمفهوم الحرية السياسية الواقع المعاصر بكثير، خاصة فى دولنا العربية والإسلامية، إذ الحرية تعنى: «أننا مشاركون فى الحكم، وإلا فقدت كل معانيها فتصبح بلا معنى على الإطلاق»[4]..

هذه المعانى للحرية تنبثق من أصل القناعة بفطرتها... بما يعنى أنها ليست هبة يمنحها أحد أو يملك حق منعها، بل هى هبة فطرية داخل النفس

(1) رسل، الحرية والتنظيم، ترجمة عبد الكريم أحمد، مراجعة محمد بدران، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة 1960، ص282 - 283.

(2) بهى الدين حسن، المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، المنظمة الدولية لحقوق الإنسان، القاهرة، سنة 1993م، ص10.

(3) Hannah Arendt , the Haman condition,p.206.

(4) Hannah Arendt, on Revolution Now york, Viking press, 1965 .,p.225

الإنسانية لا يمكن لبشر نزعها، ومن ثمَّ قامت تلك الحرية فى جميع أبعادها على دعامتين رئيستين، تمثل الأولى الخضوع للقانون... وتمثل الثانية حرية الرأى.

وتشترط أرندت على المجتمع السياسى وجود قانون يحمى الجميع من الجميع، ويخضع له الجميع، وقد صار له أهمية كبرى فى المجتمعات السياسية خاصة فى القرن العشرين فتقول: «على الرغم من أن الإرتباط بين الملكية والحرية كان له أهمية كبرى فى العصور الماضية، إلا أنه لا يحتل نفس المكانة لدينا، فبدءًا من القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت الملكية وليس القانون هى الضامن للحرية... إن الإعتراف بأن القانون هو الدرع الواقى للحرية لم يكن متواجدًا قبل القرن العشرين، حيث أدرك الإنسان للضغوط الإجتماعية التى يتعرض لها، ومن ثمَّ أدرك أن القوانين ضرورية للحفاظ على الحريات العامة والخاصة على السواء»[1]، ولكنها تشترط لهذا القانون أن يكون عامًا لا محسوبية فيه، مجردًا عن الأهواء، بالإختصار أن يقيم السمات الموضوعية التى تهتم بها فلسفة القانون فتقول: «يجب أن يكون القانون عامًا وأن يتساوى أمامه الجميع»[2] وتحذر من إنحيازه إلى أى سلطة، دينية أو دنيوية، لأنه حينذاك يفقد قوته وقيمته وموضوعيته... «إن القانون يبدو فاقدًا لقوته فى غضون هذا الصراع لإثبات ماهية السلطة دينية كانت أم دنيوية، إجتماعية أم سياسية»[3].

(1) Hannah Arendt, On Revolution, ,p.180.

(2) Ibid, p.205.

(3) Hannah Arandt, crisis of the Republic: New york: Harvest press, 1972. p60.

وتأخذ أرندت الحريـة فى إتجاه تهفو إليه النفوس جميعًا، حيث تؤكد على الحرية الفكرية والإعتقادية وحرية لا مشروطة للرأى، إذ أن حرية الرأى هى السـلاح الأوحد للتصدى للشمولية من أجل الحفاظ على الحياة السياسية بعيدًا عن النمطية الصنمية والإسـتبدادية المقيتـة... «إن قيمة الإختلاف فى الرأى تبـدو قوة مغايرة لقوى الإسـتبداد والذى ينتج صوتًا سياسـيًا واحدًا، حيث إنها تقف حائلاً دون تحطيم الحياة السياسية»[1]..

إن حريـة الرأى ضرورة حياة... منهـج تعاملاتى بين البشر، أما الفرضية الديكتاتوريـة لرأى على آخر مفهومًا لا تسـتقيم معـه الفطرة ولا تطيب له النفس... «إن الميل الفطرى للمناقشة والتنوير العقلى المتمثل فى تباين الآراء إن لم تكـن لـه نتائج مباشرة يصبح أمـرًا جامدًا، وفى تلـك المجتمعات التى تقوم على الأمر فإن الإنسان إعتاد أن يجعل من الطاعة نهجًا له... وأن يكون قانعًا بالأفعال الجزئية، الأمر الذى يتنافى مع طبيعة الإنسان السياسى»[2]..

وتحذر أرندت من مقوضات الحرية، التى يأتى على رأسها الإرهاب، فالإرهاب ضـد الحرية، إذ أنه يبحث عن كيفيـة القضاء عليها ووأدها فى مهدها... «لقد أصبـح واجبًا على الإرهـاب بحكم كونه خادمًـا مطيعًا للحركـة التاريخية أو الطبيعية ألا يكتفى بالقضاء على الحرية أيًا كان المعنى المخصوص الذى أعطى لهـا، بـل أن يقضى على مصدر الحريـة ذاته الذى أوتى المرء إيـاه بحكم ولادته والذى يكمن فى الطاقة التى إكتسبها بالولادة فى أن يكون بدءًا جديدًا»[3]..

(1) Arendt, On Revolution, p. 116.

(2) Ibid, p. 249.

(3) حنا أرندت، أسس التوتاليتارية، ترجمة إنطوان أبو زيد، در الساقى، بيروت، سنة 1993م، ص254.

لقد ربطت أرندت بين الحرية والقانون، فالحرية تشترط وجود قوانين كى تكون حرية مسئولة... والقانون يلتزم بحماية الحريات، إذ أنه لا يستمد مشروعيته إلا إذا قام على أسس ودعائم الحرية، باحثًا عنها ومناضلاً لأجلها... حاميًا لها، علاقة جدلية... مرتبطة الطرفين... «إذا كانت الحرية لا تستمد مصداقية وجودها إلا فى إطار قانونى، فإن القانون لا يستمد مشروعيته إلا بإعتباره باحثًا عن أسس الحرية»[1]، ومن ثمَّ تنبعث ضرورة القوانين لحماية الحريات... «إن حماية الحريات المدنية عن طريق الضمانات القانونية تتضح وبدون أدنى شك فى الوثائق المعبرة عن حقوق الإنسان، التى دمجت داخل صيغ قانونية جديدة، ونظر إليها بإعتبارها أهم وأعظم جزء فى الحقوق الإنسانية»[2]..

يرتبط بهذا الثنائى، الحرية والقانون... قضية رئيسية أخرى لا تقل عنهما أهمية... إنها المساواة بين جميع أبناء الجنس البشرى، تلك المساواة هى الدافع إلى التجمع البشرى، والشرط لتحقيق ضمانية سارية للعقد الإجتماعى، إذ لو فقدت المساواة لفقدت أخص خصائص الوجود الإنسانى، تقول أرندت: «على الرغم من أن الدافع صوب الجماعية هو المحرك للحرية السياسية، إلا أن المساواة والتميز شرطان أساسيان لتحققها الفعلى، فلو أن بنى الإنسان غير متساوين لفقدوا القدرة على فهم بعضهم البعض الآخر، ولو كانوا غير متميزين ما كانوا بحاجة لحرية القول والفعل لفهم أنفسهم»[3]..

(1) Arendt, on Revolution, p. 152.

(2) Idid, p.122.

(3) Hannah Arendit, the Human condition, Chicago: the university of Chicago, press, 1958,p.176.

وميزت أرندت بين نوعين من المساواة، المساواة بالمعنى العام، وهى تعبير عن المساواة فى الوجود والمتطلبات الضرورية من مأكل ومشرب وملبس (المساواة السلبية)، والمساواة بالمعنى السياسى بحيث يصبح الجميع وحدة واحدة، لا فوارق بينهم، بحيث يفتح الباب على مصراعيه لمشاركة الجميع بلا أدنى تمييز وهو ما وضحته فى عبارتها... «القدرة على أن نحيا بين نظرائنا»[1]..

ويتسع لديها نطاق المساواة الإنسانية ليمثل الجانب الملائكى بالنفس الراقية، إذ تقيم ثورتها ضد الطبقية والعنصرية... «إن الإنتهاء إلى طبقة ما مع ما يستلزمه ذلك من إرتباطات جماعية محددة، وما يستتبعه من مواقف تقليدية إزاء السياسة، يحول دون ولادة مواطنين يشعرون بأنهم مسئولون عن حكم البلاد»[2] ..

ثم تذهب إلى ضرورة المساواة أمام القضاء... «إن نظرة المحلف للناس يجب أن تقوم على أسس من المساواة، لا يفرق بين غنى وفقير، صغير وكبير، رجل و إمرأة، حكومة ومواطنين، يجب أن ينظر للعدالة كهدف دون النظر للون أو جنس»[3]..

هذه المنظومة المتكاملة والمترابطة... الحرية... العدالة... المساواة... كلها تصب فى المعانى الإنسانية الراقية لدى أرندت، كما تنتقل بها إلى الوقوف ضد الإستبداد وبالتبعية ضد الحرب.

❐❐❐

(1) Ibid,p.39.

(2) حنا أرندت، أسس التوتاليتارية، ص42.

(3) Hannah Arendt, Life of the mind, London, warbury press, 1978,p.35.

وقفت حنا أرندت ضد الإستبداد بكافه صوره وألوانه لأنه ضد الإنسانية، ضد الحياة الإنسانية والوجود الإنسانى، فألفت كتابًا بعنوان «أسس التوتاليتارية» فندت فيه أوجه الديكتاتورية الإستبدادية السلطوية الأقرب إلى النازية والفاشية وكل معانى الهرطقة السياسية، وأعطت مصطلحًا للتوتاليتارية بأنها «شكل معاصر من أشكال الإستبداد، ونعنى به نظامًا دون قوانين، حيث السلطة يحتكرها رجل واحد»... وقالت بأن من أهم دلائل ذاك الحكم... «إعتباطية السلطة، وتجاوزها القوانين، وممارستها على حساب الحاكم، و إحداث الضرر فى مصالح المحكومين من جهة، والخوف باعتباره مبدأ عمل، والخوف الذى يستشعره الحاكم من الشعب، والخوف من الحاكم الذى يستشعره الشعب من جهة أخرى، تلك هى السمات التى ينطبع بها الحكم الإستبدادى»[1]..

ومن ثمَّ رفضت كل أشكال الإستبداد فى عالمنا المعاصر، فوجهت النقد إلى سياسة الإعتقالات الأكثر رواجًا فى العالم الثالث... «لم تكن معسكرات الإعتقال قد وُقفت على إبادة الناس و إذلال الكائنات البشرية، فحسب، بل إنها أفادت أيضًا فى الإختبار الرهيب الذى يقضى بإلغاء العفوية نفسها فى ظروف مراقبة علميًا بإعتبارها التعبير عن المسلك البشرى، وتحويل الشخصية البشرية إلى محض شىء، إلى أى شىء لا تقوى الحيوانات على أن تكونه نفسها، ذلك أن كلب بافلوف الذى كان مروَّضًا لأن يأكل، على ما نعلم، ليس لأنه كان جائعًا، بل كلمّا دقت الأجراس، بات حيوانًا مشوهًا. غير أن هذا المصير ما كان ليتم على الإطلاق فى ظروف عادية، إذ ينبغى ألا تزال العفوية نهائيًا،

(1) حنا أرندت، أسس التوتاليتارية، ص245.

طالما أن ذلك لا يمسَّ بالحرية البشرية فحسب، بل لأنها وشيجة الصلة بالحياة نفسها، بما يعنيه ذلك من محض الحفاظ على الحياة»[1]..

هذه قصة رمزية تعبر بها أرندت عن سلب حرية الإنسان وكرامته عبر السياسات الإستبدادية والفاشية السياسية، حيث إعتقال الأبرياء وسلبهم حرياتهم وكرامتهم، وتحويل مصائرهم من المصير الإنسانى إلى المصير الحيوانى مسلوب القيمة والكرامة، بما يعنى رفضها لكل أساليب الإستبداد والعنف السياسى، لذا يمكننا فهم نقدها لقارة إفريقيا عبر هذا الإطار حيث العنف والطبيعة الوحشية... «إن ما جعل الأفارقة متخلفين عن سائر الموجودات الإنسانية الأخرى يرجع لإعتبارهم جزءًا من الطبيعة، كما أنهم لا يمتلكون القدرة على إبداع عالم إنسانى، إنها قارة تعبر عن العنف لا السياسة، إنها تقع خارج نطاق الحرية والقانون»[2]..

مع أن هذا النقد ينقصه كثيرًا من الموضوعية... إلا أنه يعبر عن حالة عامة لرفض الإستبداد، وكذا رفض الإرهاب الذى يعكر صفو الحياة الآمنة والذى يأتى كإبن شرعى للحرمان والتهميش... «وما بات فاتنًا هو أن الإرهاب صار نوعًا من الفلسفة التى تعكس حال الحرمان، والبُغض والحقد الأعميين، نوعًا من الإنطباعية السياسية التى كانت تملك الكلام بمثابة القنابل، والتى كانت ترقب ببهجة الإعلان المعطى لأفعالها المجيدة والتى كانت مستعدة لأن تدفع حياتها ثمنًا فى سبيل أن يعترف المجتمع العادى بوجودها»[3]..

(1) نفسه، ص207.
(2) نقلًا عن د. شعبان عبد الله، المرجع السابق، ص46.
(3) حنا أرندت، أسس التوتاليتارية، ص66.

هذا الرفض المطلق للإستبداد أحد أدلة إنسانوية أرندت، لأنها رسخت للحرية بأوسع معانيها، ورفضت كل ما من شأنه تقييد تلك الحرية سواءًا كان إستبدادًا سياسيًا بآلاته المفزعة من تعذيب و إعتقال، أو بإنعدام المساواة أمام القانون، فكلها قسوة ممارسة وعنف ممنهج ضد الإنسان، وضد الإنسانية.

❐❐❐

يُعد الحرب من أفظع مقومات الإنسانية... إنه التحدى الأكبر أمام الحضارات البشرية التى تدعى القيم والمبادئ وكثيرًا ما تتحدث باسم السماء وباسم الله... ثم تحنث فى تلك المبادئ وتقتل أيضًا باسم الله وباسم السماء... والمفارقة بين الإثنين أبعد ما يكون، الله والحرب... السماء والدمار... مفارقة بعيدة، لدرجة يبدو معها إستحالة الجمع... لتصبح المفارقة أكثر خطرًا حيثما أصبح الحرب لذاته هدفًا استراتيجيًا للبشر فى الحياة الراهنة... الحرب بأنواعها ومشتملاتها وعلى كافة الأصعدة، يقول بيرنز: «إن البلاء واضح لا يحجبه حجاب، وما هو بالشيء الجديد، إنه الحرب، والتأهب للحرب، ولا يكمن الشر فى استعمال وسائل الدمار وتطويرها، بل الشر فى أن الحرب إتخذت طابع نظام من الأنظمة»[1]... بما يعنى أنه بات صعبًا للغاية أن نستأصل مخاطر الحروب طالما اتخذت الطابع النظامى، وطالما باتت متأصلة داخل النفس الإنسانية... دون النظر إلى أن غاية الوجود السلام لا الحرب... الأمن لا الخوف والذعر... «يمكننا أن نعتبر أن الهدفين الرئيسين اللذين يجب

(1) دليل بيرنز، المثل السياسية، ترجمة لويس إسكندر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة 1964م، ص337.

أن تقوم العلاقات الدولية على خدمتهما، أولاً: تجنب الحروب، ثانيًا: الحيلولة دون إضطهاد الشعوب القوية للشعوب الضعيفة»[1]..

أضف إلى ذلك ما تمثله الحروب من أعباء إقتصادية على الدول كان يمكن إستغلالها لحياة الإنسان ورفاهيته لا لقتله و إبادته... كان يمكن توجيهها للإرتقاء بحياته ومستوى معيشته لا تدميره نفسيًا ومعيشيًا، يقول بيرنز: «إن أول ما يقال عن الحرب أنها مضيعة من الناحية الإقتصادية، ولو أن الحروب خلال التاريخ لم تستنزف موارد الثروة والقوة فى مصر وآشور واليونان وروما وأوروبا العصور الوسطى، لكان فى حوزة الجنس البشرى الآن قدر من الثروة المادية يفوق بكثير ما يمتلكه الآن، وفى الحق أن شرورًا أخرى غير الحرب كان من الجائز أن تحدث، إلا أن تدمير الثروة فى حدَّ ذاته وما ينطوى عليه ذلك من خسارة علمية كان شرًا لا شك فيه... ثم إن قدرة الحرب على الإتلاف والتدمير فى زيادة مطردة، وكلما استجدت حروب، زاد عدد الأفراد الذين يتخلون عن إنتاج السلع الإستهلاكية والإنتاجية للعمل فى صناعة معدات التدمير أو وسائل الوقاية منها»[2]..

لأجل هذه المخاطر مجتمعة نددت حنا أرندت بالحروب لأنها تسلب الإنسانية أخص صفاتها... تسلب الرحمة والقيم وتذروا بالمبادئ فى يوم ريح صرصرٍ عاتية... ومن ثمّ وجهت النقد إلى العنف والحرب والدمار، إلى كل ما من شأنه القضاء على حياة الإنسان... «إن الحماس الضارب لدى اليسار الجديد

(1) رسل، سبل الحرية، ترجمة عبد الكريم أحمد، مراجعة على أدهم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ص201.

(2) بيرنز، المثل السياسية، ص328.

و إندفاعاتـه ومصداقيته إن جاز لنا هذا القـول، ترتبط جيمعها بالقلق الناتج عـن التطور الإنتحارى للأسـلحة الجديـدة، فالجيل الراهن هـو الجيل الأول الـذى يترعرع فى ظـل القنبلة النووية، ولقـد ورث أبناء هـذا الجيل من جيل الآبـاء تجربة التغلغـل الكثيف للعنف الإجرامى فى العمل السـياسى، وتعلّموا فى المدارس الثانوية والكليات أشياء كثيرة عن معسكرات الإدارة والإعتقال، وعن المجازر الجماعية وأعمال التعذيب عن المسالخ الجماعية للمدنيين خلال الحـروب التى بدونها لا يمكن للعمليات العسـكرية الحديثة أن تكون ممكنة حتى ولو إقتصرت على اسـتخدام الأسـلحة التقليدية»[1] بل إن الحرب تسلب الإنسان كرامته، بل ووجوده أيضًا، فضلاً عن تدمير نفسيته و إهدار آدميته... «وصارت الحرب بعسـفها الثابـت والمجرم رمز الموت، وبالتـالى باتت الرحم الحقـة من حيث قد يخرج نظام عالمى جديد، ولقـد ألفت قيم من مثل الهوس بالمسـاواة والعدالة، والرغبة فى تجاوز حدود الطبقـات الضيقة والعبثية، وفى التخلى عن الإمتيازات والأحكام المسبقة الحمقاء، إذًا يبدو أن هذه القيم ألفت فى الحرب وسيلة للتخلص من المواقف الأبوية العتيقة التى طالما قضت بالشفقة حيال المضطهدين والمعدمين، إذ أنه فى عصر يتنامى فيه البؤس و يتفاقم البأس الفردى، كان يبدو من الصعب أن يقاوم المرء الشـفقة حين تصير هيامًا مانعًا، بقدر ما يصير صعبًا أن يتنكَّر المرء لمواطنيته العالمية نفسـها، مع كونها تغتال الكرامة البشرية أكثر مما يفعله البؤس بلا ريب»[2]..

(1) حنا أرندت، فى العنف، ترجمة إبراهيم العريس، دار الساقى، بيروت، لبنان، سنة 1992م، ص15.

(2) حنا أرندت، أسس التوتاليتارية، ترجمة إنطوان أبو زيد، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1993م، ص62 وما بعدها.

لأجـل هذه المبادئ التى تقوم عليها الحرب من قتل وتدمير كافة أشـكال الحيـاة الإنسـانية، وجهت أرنـدت النقد إلى الكيـان الصهيـونى قائلة: «إن الصراع العربى الإسرائيلى يرجع لإتخاذ إسرائيل من الحرب أسـلوبًا للتعايش مع العرب»[1]، وهذا نقد مختصر ولكنه يحمل القوة والصدق، فاتخاذ إسرائيل الحـرب أسـلوبًا للحياة يعنى هدم كل حيـاة من ناحية، وعـدم إمكانية قيام أى فرصة للتعايش السـلمى من ناحية أخرى، بما يؤكد عدوانية هذا الكيان المغتصب.

ومـا فتئت أرندت تعدد مسـاوئ الحروب وضديتها للإنسـانية ومعاداتها للحياة وسـلبها لكافة القيم، وما تسـببه من تبلد للمشـاعر و إندثار للمبادئ الإنسـانية... «تلك كانت الغرائز المعادية للإنسانية، والمعادية لليبراليين... والمعادية للفردانيين والمعادية للمثقفين، الغرائز التى أثارها جيل الجبهة الذى ما توانى يمدح العنف مدحًا طنانًا وروحيًا، و يُعلى من شأن القوة والقساوة»[2]، ثم توجه النقد إلى الحرب العالمية الأولى... «ومن المفارقات أن الحرب العالمية الأولى كانـت أبطلت المشـاعر الوطنية الصادقة، ففى الفـترة الزمنية ما بين الحربين كان من الأهمية بما لا يقاس أن ينتمى المرء إلى جيل الخنادق، وسيَّان الجهـة حيث كان... وسـواء كان ألمانيًا أم فرنسـيًا، حتى أن النازين أرسـوا كل دعائيتهم على أسـاس من هذه الرفاقية غير المحددة على أسـاس «جماعة المصير» هذه، وأفلحوا فى كسـب عددٍ كبير من منظـمات قدامى المقاتلين، وذلـك فى بلدان أوروبا قاطبة، وأثبتوا فى ذلك كم باتت الشـعارات الوطنية

(1) Arendt, Crisis of the Republic,p. 26.

(2) أسس التوتاليتارية، ص64.

عبثيـة حتى فى صفوف «اليمين» الذى جعل يسـتخدمها لما تنطوى عليه من عنف أكثر من كونها ذات محتوى وطنى مخصوص»[1]..

مئات النصوص تعدد مسـاوئ الحروب عند أرندت، بما يدل رفضها لتلك الآلة المدمرة للإنسـانية... «إن متمرسى الحرب يكنزون الرصاص والنابالم كى يوجهونه صوب صدرو أصدقائهم الذين ينشدون حمايتهم، كما يوجهونه لصـدور أعدائهـم، أولئـك الذيـن كانوا أصدقـاء قبـل الحـرب»[2]... «مع الحروب لا يتم القضاء على الحريات الفردية للمواطنين فحسـب و إنما تفقد السـلطة مشروعيتها»[3]... «إن الحرب لا تخلق لنا سـلماً و إنما تنجب حروبًا أخـرى»[4]... بل وأقسى مـن ذلك وأصعب... «إن الحـروب كفيلة بالقضاء على كل ما هو إنسانى، بل وعلى إنسانية الإنسان ذاتها»[5] ..

تلك هى مسـاوئ الحروب التى لأجلها ثارت ضدها حنا أرندت وقوضت دعائمها اللإنسـانية... اللآدمية... الخالية من كل قيمة ومبدأ، ليبقى التساؤل الأخير فى هـذا الإطار، هل الحرب على إطلاقها غـير مشروعة؟ لنجد إجابة أرندت بالنفى، لأن الحرب تكون مشروعة لديها فى حالة واحدة وهى الدفاع عـن الحياة ذاتها، أى عندمـا تكون الحرب دفاعًا عن حقنـا فى الحياة، تكون أمرًا حتميًا، أما إذا شذت عن ذلك فإنها تكون طغيانًا وفسادًا بغير الحق[6]

(1) نفسه، ص63 - 64.

(2) Arendt, crisis of the Republic, p.19.

(3) Arendt, on Revolution, p.104.

(4) Ibid , p.34.

(5) Ibid, p.36.

(6) حنا أرندت، أسس التوتاليتارية، ص213.

تلـك هـى أحد أعظـم المبـادئ الإنسـانية التى جـاءت بها حنـا أرندت وناضلت لأجلها، لأجل قضايا إنسانوية تهم كل إنسانيوا العالم... الحرية... العدل... المسـاواة... ضد الإسـتبداد... ضـد العنف... ضد الحـرب... قيم نبيلة... لا تخرج إلا من أفواه نبيلة... كريمة... ذات نزعة إنسانية فريدة... فى موكب إنسـانوى أكثر تفردًا... يباركه الله... تحفه الملائكة... يباهى به الله سبحانه أهل السـماء، فهنيئًا للملائكيين على مر التاريخ مباركة الأرض وترحاب السماء...

الخاتمة...

سجّل الفلاسفة آرائهم الإنسانية للتاريخ... وضعوها أمانة فى أعناق وارثى الأرض عبر التاريخ... ساسة وشعوب... نخبة وعوام... إنها مبادئ لا يختلف عليها العقل... ولا تنفر منها الفطرة... ولا يضيق بها ذرعًا القلب... بل العكس تمامًا هو الصحيح... فهى مبادئ مفطورة داخل النفس الإنسانية... يؤمن بها القلب... يحنُ إليها الفؤاد... يقتنع بها العقل... فقط هم أعداء الإنسانية الذين يقفون فى وجهها... يدمرون سُبُل السلام لأجل غنائم ومصالح محض شخصية ذاتية لا تتجاوز حدود الأنا ورذائلها... بضعة أشخاص لا يبلغون نسبة الواحد بالمائة من سكان الكوكب الأرضى يمثلون السلطة والمال... ويتحكمون فى مصائر وحياة بلايين البشر، ويحكمون بالحديد والنار...

ماذا علينا أن نفعل إذن... أن نتوجه إلى السماء بديلاً للأرض بعد فقدان كل أمل فى إنبساط قلوب أهل الأرض إلى الدعوات الإنسانية... إنه لنعم التوجه... سبق أن زينه العقل البشرى وترنم به... سبق وأن كتبه الفلاسفة والشعراء عندما ضاقت بهم الأرض مثلما هو اليوم... شيللر، شاعر ألمانيا العظيم، يسطر فى الدراما العاطفية «وليم تيل» والتى كتبها فى ظل إستبداد

نابليون الأول... كيف يلجأ الإنسان إلى السماء إذا يأس من طغاة الأرض... «... كلا إن لسلطة الطاغية حدودًا، وعندما لا يستطيع المضطهدون أن يجسدوا العدالة فى أى مكانٍ آخر، وعندما يغدو العبء غير محتمل فإن الإنسان يصل إلى السماء... وهناك يستعيد حقوقه الخالدة كالنجوم، لا تتغير ولا تتحطم»[1]..

أيكون التوجه للسماء بديلاً للأرض... المفارق بدلاً من الواقع... أننتظر الحل من السماء دون سعى إليه... دون عمل على الترسيخ للمبادئ الإنسانية... والقيم الإنسانية... والقلوب الملائكية.

ما أسوأ هذا الإنتظار... لأنه إنتظار العجزة عن الأخذ بالأسباب، انتظار الضعفاء الذين لا يجيدون... أو لا يريدون التضحية لأجل القيم التى يؤمنون بها... والتى على العالم كله أن ينحاز إليها يومًا ما، بعُد هذا اليوم أو قرُب، لكنه حتمًا سيأتى... حتمًا سيفرح الإنسانيون... سيسعد الملائكيون بإنتصار مبادئهم وتحقق أحلامهم ورؤيتهم لها وقد باتت عين اليقين... هذا وعد من إله السماء لا مرية فيه، لكن تبقى الأسئلة التى تحاصرأهل الأرض قاطبة، لعل أبرزها وأهمها، وماذا هم فاعلون لأجل تلك القيم الإنسانية؟... ماذا سيقدمون؟

إبتكروا مادية تحول الإنسان عبرها إلى صنم... أصبح بلا روح... بلا قيمة... بلا وجدان... لتثبت المادة فشلها فى تحقيق سعادة للإنسان ولو ضئيلة... إن ما حققته من مظاهر السعادة لا تتعدى قشرة الشكل... مظاهر

(1) محمد عصفور، الحرية فى الفكرين الديموقراطى والإشتراكى، القاهرة، بدون دار نشر، سنة 1960م، ص12.

الجسد خلو من كل روح... خلو من كل بناء حقيقى للنفس الإنسانية... يقول برجسون: «لقد كان من المسلّم به خلال مدة طويلة أن الصناعة والآلة تحققان السعادة للنوع البشرى... أما اليوم فلا يعزَّ على الناس أن يلقوا عليهما تبعة ما يكابدون من آلام... ويقولون إن الإنسانية ما كانت يومًا أكثر منها اليوم ظمئًا إلى اللذة والترف والثراء... حتى لكأن قوة لا تقاوم تدفع بها أبدًا إلى أن تروى أشد رغباتها غلظة»[1]..

فشلت المدنية فشلاً ذريعًا فى تحقيق السعادة والأمان المفقودين للمخلوق البشرى... بل على العكس قدمت صنوفًا من المنايا لم يكن للإنسان عهد «سابق بها... دمرَّت أخلاقه، أتت بنيانه فجعلته كالرميم... أبادت كل ما شيدوه فى سنواتٍ طوال فى لحظاتٍ معدودة... ويا ليت الأمر يتوقف عند حدود الخسارة المادية... بل تجاوزها إلى تدمير الإنسان ذاته... حياته ذاتها... وجوده ذاته... فأصبح لا مفر من إصابة الإنسان بأحد نوعين... إما بالقتل وإما بالموت مرضًا عضويًا أو نفسيًا... هذا مصير لا مفر منه... صنعته الإنسانية... باركه العالم وارتآه بعينه ولم يحرك له ساكنًا.

مناظر ومشاهد يشيب لها الإنسانيون... يُقتلون مائة ألف مرة... فى إدلب، بريف حماه... بالأرض التى بارك الله فيها... أرض الشام... يصعد الطيران الروسى فوق سماء البلدة فى السادس عشر من المحرم عام 1435هـ، يصُب رصاصه الغادر فوق مدرسة أطفال... يدرسون بالمرحلة الإبتدائية... ليقتلوا بغدرهم واحدًا وعشرين طفلاً وست معلمين... والعالم كله يرى ويسمع ولا يتحرك... ولا يدين... ولا تبكى الأعين....

(1) برجسون، منبعا الأخلاق والدين، ص247.

مئات... بل آلاف المذابح ضد الإنسانية... تدمر الوجود الإنسانى... راح ضحيتها ملايين البشر، ولم يرتدع هذا المخلوق الذى أفسد كون الله وأرضه... لم يتراجع... لم يحاسب نفسه يومًا... ولم يعتبر ممن ملأوا الأرض قتلاً وظلماً ثم واراهم التاريخ تحت ذرات تراب فأصبحوا نسيًا منسيًا... لم يتبق فقط سوى سوء الأحدوثة... سوى الدماء التى أراقوها لتوزن فى ميزانهم... لتنبعث ثائرة يوم القيامة تلعن القتلة والظالمين.

حتى الصور والشكليات التى إبتكرها العالم حديثًا... بأسمائها المختلفة... حرية... ديموقراطية... شورى... هى كلها لا تحمل أدنى نصيب من إسمها... هى مجرد شكل لتزين الوجه القبيح للإنسانية... لخلق تبريرات وهمية لدهس القيم الإنسانوية... وإلا فسلوا أنفسكم يا عقلاء البشر... أية ديموقراطية تلك التى تقتل وتستبيح الشعوب الضعيفة؟! أية قيم تلك التى يُباد لأجلها ملايين البشر باسم الحرب على الإرهاب... هم الإرهاب ذاته... هم الذين سلبوا أقوات وحريات الشعوب... هم الذين دمروا الإنسانية باسم الإنسانية... وقفوا ضد إرادة الله باسم الله... قتلوا الرسالات باسم الأنبياء... يا لها من حروب خارج الأطر كافة... متعدية على المبادئ كافة... قاتلة لمعانى الحياة كافة...

أية شورى تلك التى يكون فيها الحكم إستبداديًا؟... أية حرية تلك التى تُمارس باسمها الديكتاتوريات علنًا... أية ديموقراطية تلك فى القانون الدولى الذى يسمح لبعض البلدان بدخول الأجانب بشروط معينة، منها ألا يشتغلوا بعمل يحقق لهم كسبًا خلال مدة إقامتهم، أو أن يُسمح لهم بالدخول شريطة إجتياز فحوص مهينة بشأن مبادئهم السياسية والهيئات أو الجماعات المنتمين

إليها، وفى كل دولة من الدول الديموقراطية يقيم الأجانب تحت السيف المسلط ويُعرضون للترحيل فى أية لحظة... ويتعامل معهم أصحاب البلد كأنهم عبيد لديهم... إنها ديموقراطيات خاوية على عروشها... خالية من كل مبدأ... حتى أعظم الدول... الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها تمارس البلطجة على كافة الدول الأضعف باسم الديموقراطية، وباسم الحرية... وباسم المبادئ... مع أنها فى الحقيقة تمارس إرهابًا و إستبدادًا تحت مسميات وهمية تكاد تبدو شرعية و إنسانية، وما هى من الشرعية أو الإنسانية بقريب، إنها مخاتلة... إرهاب... إستبداد لا يختلف عليه ذوى الحجا... يفضح نفسه، يبدو لذوى العقول خارجًا عن كل مقومات الأدب واللياقة والمروءة... ولكن ما أكثر المنافقين والمخادعين الذين زينوا لهم سوء أعمالهم فرأوه حسنًا... هذه الشكليات كلها فى طريقها بالإنسان إلى النهاية... إنها لم تقدم شيئًا للإنسانية بقدر ما سلبت منها... بقدر ما قتلت وفتكت ودمرت... بقدر ما أبادت وأفسدت... ليبقى الرهان الأكبر اليوم متوقفًا على مدى إعتبار البشرية من التاريخ... مدى فهمها و إستساغتها لأحداث الماضى القريب والحاضر البئيس... لتنزع عن الشر والعدوانية وتقطع ولو خطوة واحدة نحو الإنسانية.

ويبقى الرهان أيضًا على تلك النفوس الملائكية... الرقيقة... الصافية، فى صناعة عالم خالى من الظلم والإستبداد والإرهاب والحرب والقتل والمرض والفقر... كل هذه لصوص سارقة للإنسانية... الأمل فقط فى التوقف الضمائرى و إدراك البشر لمسئولياتهم وعودتهم إلى الفطرة النقية للطبيعة الإنسانية... هذا أمل لن يخبو أبدًا... سيظل الرهان على تلك الفطرة وعلى الطبيعة وعلى الأصل النقى للنفس الإنسانية قائمًا، لأنه سيتحقق ولو بعد حين.

أما الملائكيون الذين عادة ما يُفضى بهم إلى السجن أو الموت... فهم مداد الحريـة... هم الثمرة المباركة التى لأجلها خلـق الله الكون... دماؤهم هى السقاء لشجرة الحرية.... لشجرة المبادئ... ليظلوا هم داخل الرهان وليسوا خارجه... فى عمق التاريخ وليسـوا بعيدًا عنه... فلن يسـتطيع أحد حذفهم من التاريخ... ولن تستطيع أنهار الدنيا غسل آثار دمائهم.

إن الأنفس التى قُدمت للقصاص نفسًـا بنفس، لا تبلغ معشار ما قُدم من رءوس لأجـل الحق والخير والعدل والفضيلـة... لقد قدمت البشرية المعذبة على مدار تاريخها، الكثير من الشهداء الذين قدموا أرواحهم بنفوس مطمئنة راضية لأجل إسـعاد البشرية، أو لأجل إنتشالهم من وحل ما يعيشون... وما يصنعون... وما يسيئون... وما يعبثون... وما يفسدون.

قدمـوا تلك الأرواح والمهج ولسـان حالهم يقول: «يـا ليت لنا مائة ألف نفس تُزهق لأجل إسعاد البشرية»... لأجل خلاصها... لأجل حياتها.

وسيظل الركب سائرًا... وستظل الرهانات على الفطرة والطبيعة قائمة... وسـيظل حلم - إنسـانوية البشرية - عذبًـا صافيًا، و إذ لم يكتـب لنا القدر رؤيته فيكفى تلذذنا به فى أحلامنا... شـهادة الأجيال القادمة للإنسـانويين بالإنسانية...

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر المترجمة إلى العربية

1- أفلاطـون، محاورة فايدروس، ترجمـة د. أميرة حلمى مطـر، دار الثقافة، القاهرة، د.ت.

2- أفلاطـون، محاورات أفلاطون، ترجمة د. زكى نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1966م.

3- أبكتيتوس: المختصر، الترجمة العربية ضمن كتاب الفلسـفة العملية عند أبكتيتوس الرواقى، د. طارق عبد المحسـن، المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 2015م.

4- حنا أرندت، بين الماضى والمسـتقبل، ترجمة عبد الرحمن بشـناق، مراجعة زكريـا إبراهيـم، دار نهضة مصر للطباعة والنـشر، القاهرة، سنة 1960م.

5- حنـا أرندت، فى العنف، ترجمـة إبراهيم العريس، دار السـاقى، بيروت، سنة 1992م.

6- حنا أرندت، أسـس التوتاليتاريـة، ترجمة أنطوان أبو زيد، دار السـاقى، بيروت، سنة 1993م.

7- روسو، لوك، العقد الاجتماعى، ترجمة عبد الكريم أحمد، تقديم آرنست باركر، دار سعد مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

8- روسو، الإعترافات، ترجمة محمد بدر الدين خليل، مطبوعات كتابي، القاهرة، د.ت.

9- فولتير، الرسائل الفلسفية، ترجمة عادل زعيتر، مكتبة ومطبعة الغد، ط1، القاهرة، سنة 2010م.

10- فولتير، القدر، ترجمة د.طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1960م.

11- فولتير، رسالة فى التسامح، ترجمة هنرييت عبودى، دار بترا للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا، سنة 2009م.

12- كانط، السلام الدائم، ترجمة د. عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط3، سنة 1986م.

13- لوك، رسالة فى التسامح، ترجمة منى أبو سنة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، سنة 2005م

ثانيا: مصادر باللغة الإنجليزية

1- Epictatus: The Discourses withan English, Translated by old father (W.A), London, William Heinemann, New york: 1978.

2- Hannah Arendt: The Human condition, Chicago: The university of Chicago press, 1958.

3- Hannah Arendt on Revoulution, New york, Viking press, 1965.

4- Hannah Arendt, Crisis of the Republic, New york, Harvest press,1972.

ثانيًا: المراجع

1) أندريه كريسون، فولتير، ترجمة د. صباح فخرالدين، منشورات عويدات، باريس، ط1، سنة 1984م .

2) أى إف ستون، محاكمة سقراط، ترجمة نسيم مجلى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، سنة 2002م.

3) إد موند كان، الإنسان والديموقراطية، ترجمة مصطفى حبيب، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، د.ت.

4) آرنست باركر، النظرية السياسية عند اليونان، ج1، ترجمة لويس إسكندر، مراجعة د. محمد سليم سالم، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة 1966م.

5) بهى الدين حسن، المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، المنظمة الدولية لحقوق الإنسان، القاهرة، سنة 1993م.

6) جورج سارتون، تاريخ العلم، ج2، ترجمة عدد من العلماء، تحت إشراف د. إبراهيم بيومى مدكور، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

7) جون باول، الفكر السياسى الغربى، ترجمة محمد رشاد خميس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1985م.

8) دليل بيرنز، المثل السياسية، ترجمة لويس إسكندر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة 1964م.

9) ريكس وورنر، فلاسفة الإغريق، ترجمة عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1985م.

10) رسل :- سُبُل الحرية، ترجمة عبد الكريم أحمد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.

11) زكريا إبراهيم، مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت.

12) سليم سعدة: فولتير، سلسلة إقرأ، دار المعارف، القاهرة، سنة 1998م.

13) شعبان عبد الله: اليوتوبيا اليهودية، قراءة فى فلسفة حنا أرندت السياسية، المكتبة المصرية للطباعة والنشر، الإسكندرية، سنة 2002م.

14) طارق عبد المحسن، الفلسفة العملية عند أبكتيتوس الرواقى، المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة، سنة 2015م.

15) عبد الفتاح أحمد فؤاد، الأصول الرواقية فى الفلسفة الإسلامية، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، سنة 2003م.

16) عثمان أمين، الفلسفة الرواقية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة 1971م.

17) عبد الغفار مكاوى، لم الفلسفة، منشأة المعارف، الإسكندرية، سنة 1981م.

18) فريدريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ج1، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، سنة 2002م.

19) كارل ياسبرز، فلاسفة إنسانيون، ترجمة د. عادل العوا، منشورات عويدات، باريس، ط3، سنة 1988م.

20) كارل بوبـر: بحثًـا عـن عـالم أفضل، ترجمـة د. أحمد مسـتجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 2001م.

21) مصطفى النشـار: فلاسـفة أيقظوا العالم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سنة 2014م.

22) محمد عطية الإبراشي: أصول التربية المثالية فى إميل، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، سنة 1967م.

23) محمد عصفور: الحرية فى الفكر بين الديموقراطى والإشتراكى، القاهرة، بدون دار نشر، سنة 1960م.

24) محمد ممدوح:- المواطنة فى الإسـلام...المعضلات والإشكالات فى واقعنا المعاصر، روابط للنشر والتوزيع، القاهرة، 2017م.

25) محمـد ممـدوح:- ضد الإنسـانية، نيو بوك للنـشر والتوزيـع، القاهرة، 2017م.

26) محمد ممدوح:- سـقراط...إغتيال العقل، المكتبـة العصرية، المنصورة، 2014م.

27) هنرى برجسـون: منبعا الأخلاق والدين، تعريب سامى الدروبى، عبد الله الدائم، مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة 2011م.

28) ول ديورانت، قصة الفلسـفة، ترجمة د. فتح الله المشعشـع، منشورات مكتبة المعارف، ط4، بيروت، سنة 1979م.